



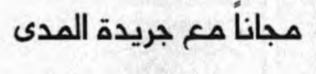
الكتاب للجميع
١٨

كافن يونغ

العودة الى الأهوار

ترجمة
د. حسن الجنابي







الكتاب للجميع

■

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

فخري كريم

■

فاكس ٧١٧٥٩٤٣
هاتف ٧١٧٠٥١٣-٧١٧٠٣٩٥
almadapaper.com
almada119@hotmail.com
almada112@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق- ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com



١٨

كافن يونغ

العودة إلى الأهوار

ترجمة: د.حسن الجنابي

طبعة خاصة
توزع مجانا مع جريدة (المدى)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٦



إهداء

إلى عجرم بن حسين وحسن بن مناتي وعمارة بن ثكب وسبيتي وحسن بن محيسن وصحين بن كاظم وأولاده وريِّد وباني ومحمد و إلى فالح بن جاسم الفارس ونهيّف بن جاسم وجثير الفريجي واخوانه صفير وأحمد وإلى سيّد صروط وجميع أولاده، وإلى جبار بن دعيّر وفرحان بن زغيّر وأخيه عيدان أولاد

ياسين بن عيدان

وإلى الآخرين كافة

وإلى ذكرى

أخ صحين حفّاظ بن كاظم وياسين بن عدأن والحاج

يونس من منطقة آل عكار وجاسم الفارس آل

فرطوس وفالح بن مجيد الخليفة من عشيرة

البو محمد

وإلى

ولفريد ثيسيجر الذي عرفني على الأهوار لأول مرة

كلمة المترجم

"لماذا لم نكتب نحن عن حياتنا بهذا الدفء والاستقصاء؟ أيكون الغريب أكثر منا تأثراً وتأثيراً؟ هل تناول كتّابنا وأدباؤنا مثل هذه الموضوعات والشرائح البشرية في وطننا؟" بهذه الأسئلة التي "تدمي القلب" تبدأ رسالة الفنان العراقي الصديق محمد سعيد الصكار، الذي اطلع على بعض فصول الكتاب المترجمة؛ وهي الأسئلة نفسها التي واجهتني عندأول قراءة لي للكتاب. وها أنا أعزّي النفس بتقديمي ترجمة له لعلها تغطي جزءاً ولو بسيطاً في الفراغ الهائل الذي نشهده في هذا النوع الرائع من الكتب.

لاأودّ الكتابة في هذه الكلمة عن المنجز الحضاري العراقي والإضافات المشرقة التي قدمها العراقيون عبر التاريخ للتراث الإنساني الهائل، والتي مازال الكثير منها مغطى تحت الطمي والرمال والحطام؛ ولا عن منطقة الأهوار العراقية التي "تحرص" الحكومة العراقية منذ سنين على تدميرها لاستكمال جولة السقوط المريع في الوحشية والقضاء على قدسية الحياة والتاريخ، بل سأترك ذلك لكافن يونغ مؤلف الكتاب.

صدر الكتاب بطبعتين الأولى عن دار وليام كولنز William Collins عام ١٩٧٧ ضمت عشرات الصور الملونة التي لا تقل قيمة عن النص المكتوب، والثانية خالية من الصور صدرت عن دار هاتشنسن Hutchinson عام ١٩٨٣، وأعادت طبعها دار بنجوين penguin في عام ١٩٨٩ وتضمنت فصلاً جديداً بعنوان "خاتمة".

كان بودي أن أقدم هذا الكتاب بكامل حلّته، أي بالصور المدهشة التي ظهرت في الطبعة الإنجليزية الأولى إضافة إلى الفصل الجديد"أبيلوج". غير أن

أسباباً فنية منعت تضمين الصور في هذه الطبعة العربية التي ضمت فصل "أبيلوج" بما فيه من آراء غير مدروسة بطبيعة الحرب العراقية ـ الإيرانية إلا أن فيه إحساساً عالياً بمخاطرها على الأهوار. ودعوة صادقة للحفاظ عليها ,وإدانة واضحة للمتسببين بتدميرها والجاهلين بقيمتها التاريخية والحضارية.

أخيراً أود تقديم آيات الشكر إلى الأصدقاء الذين أبدوا ملاحظات قيمة بشأن المادة المترجمة ومنهم الدكتور غانم حمدون والأستاذ الباحث هادي العلوي والفنان محمد سعيد الصكار، الذي يعود لهم فضل تطوير صياغة عدد من فصول الكتاب؛ وكذلك زوجتي سعاد التي ما انفكت تغمرني بعاطفة دافئة استوعبت قلقي وهمومي وانشغالاتي المتزايدة مع اتساع دائرة المنفى.

سيدني ٢٧/١٠/١٩٩٧

كلمة المؤلف

مضى ما يقرب من ثلاثين عاماً على مغادرة ويلفرد تسيغر، "مكتشف" الأهوار الأوروبي لها، وثلاثين عاماً بالضبط منذ أن مضى فيها كافن ماكسويل عدة أسابيع في عام ١٩٥٦، ألف كل منهما كتاباً عن تجربته الشخصية، أما كتابي هذا فيحاول وصف ما حدث لاحقاً، كيف أثرت التغيرات في العراق على عرب الأهوار، الذين يقطنون أجمل المناطق، على الصعيدين الاجتماعي وفي غالب الأحيان الفردي.

أمضيت زمناً طويلاً في الأهوار في الخمسينيات؛ ثم ـ بعد غياب دام عشرين عاماً تقريباً ـ ومنذ عام ١٩٧٣ رجعت إلى هناك مرات عديدة متنقلاً، كما كنت من قبل، بالزوارق ومقيماً مع سكان الأهوار بالضبط كما يعيشون. لذا فالكاتب هو كتاب شخصي بالدرجة الأولى واعتبره نوعاً من التخليد لأصدقائي عرب الأهوار. أنا لست عالماً متخصصاً أو مؤرخاً أو أنتروبولوجياً أو مختصاً بعلم الطيور أو أي علم آخر. ولكن توجد هنا فصول من التاريخ تتجاوز معركة البريطانيين والأتراك وظهور الإسلام وغزوات اليونانيين والفرس والمنغول والميديين والآشوريين وغيرهم، إلى الأزمنة السومرية العريقة ـ بل حتى بداية الخليقة. لذا فأنا مدين للدكتور إيدموند سولبرغر المسؤول عن قسم الآثار الآسيوية في المتحف البريطاني، لتدقيقه الفصل المتعلق بسومر وجلجامش ومساعدته في السماح بالتقاط بعض الصور في المتحف، أنا مدين كذلك بالقدر نفسه للبروفسور تشارلس بيكنهام من قسم الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن لقراءته المتمعنة للفصل الخاص بظهور الإسلام. أنا ممتن،والمصور نك ويلر، للدكتور فؤاد سفر من دائرة الآثار العامة ببغداد لمساعدته ونصائحه القيمة وكذلك لجميع موظفي المتحف العراقي الرائع للطفهم الجم.

أود كذلك أن أشكر العميد ستيفان لونغريغ لتخصيصه جزءاً من وقته لإطلاعي على مشاعره أثناء إقامته في بلاد ما بين النهرين مباشرة بعيد الحرب العالمية الأولى، حيث كان عضواً بارزاً في الإدارة البريطانية آنذاك. كتابه التاريخي عن العراق لا يقدر بثمن ولا يمكن الاستعاضة عنه. أشكر كذلك السيدة هيد جكوك التي استعادت من أجلي أجمل ذكرياتها في العمارة حيث كان زوجها يشغل منصب الملحق السياسي في مطلع العشرينيات. فقد تذكرت بحب الناس الذين كتبت عنهم مع زوجها - تحت الاسم المستعار "فلانين" في البداية على شكل حلقات في مجلة بلاكوود - قصصاً مدهشة أصدرت فيما بعد بكتاب بعنوان "الحاج ركان؛ عربي من الأهوار".

استعملت الكلمة "المعدان" لوصف "عرب الأهوار" لأنهم يسمون أنفسهم هكذا. لم أحاول شرح معنى الكلمة لأن المعدان أنفسهم لا يفقهون معناها ولا مصدرها، ولم يسبق أن حاول أي كان تفسيرها، رغم ورود مصطلح "المعدان" في كتابات الرحالة العربي الشهير ابن بطوطة في القرن الرابع عشر.

لقد شجعني ناجي الحديثي كثيراً على إنجاز الكتاب، كما كان من الصعب جداً إصداره في الوقت المحدد دون المساعدة التي لم تعرف الكلل للآنسة غريتا ويل. كذلك لم أكن قادراً على إنجازه دون تفضل دونالد تريفولد من "الأويزرفر" بمنحي إجازة من العمل لإتمامه.

على الشفير

أشعر الآن أني عرفت عرب الأهوار طيلة حياتي، رغم أني لم أكن أعرف بوجودهم أصلاً قبل ستة أسابيع فقط من لقائي بهم. حدث اللقاء الأول في الأهوار في يوم مشمس من عام ١٩٥٢، لم أكن أفكر بالذهاب إلى هناك قط. فطموحي الأساسي في ذلك الوقت كان قطع صحراء العربيا من الخليج حتى البحر الأحمر على ظهر جمل.

كنت مستغرقاً بقراءة كتب المغامرات الصحراوية وتعلم اللغة العربية. أنهيت قراءة لورنس (العرب) وبرترام ثوماس وجيرترود بيل وبعض كتابات جون فيلبي وتشارلس دوتي، واتخذت قراراً باتباع نماذجهم مهما كان الثمن، لذلك، عندما علمت بمجيء آخر عظماء الرحالة في العربيا يولفرد ثسيغر إلى البصرة، حيث أعيش وأعمل في شركة شحن، عزمت أمري على مقابلته، فاحتلت على القنصل البريطاني لحضور دعوة غداء أعدها على شرفه. أخبرت ثسيغر بسرية، أثناء الغداء عن أحلامي العربية، وكنت متأكداً من أن رجلاً من نوعه سيكون متعاطفاً مع طموحاتي ولن ألقى منه إلا التشجيع. ولكن، ويا للدهشة، فقد عنفني ثسيغر وقال إنه يتعين أن أنسى حكاية الجمل وأضاف: "لن تحصل على تأشيرة دخول العربية السعودية، وانتهى الأمر". كنت نسيت تماماً أن هناك مشكلة سياسية بين العربية السعودية وبريطانيا آنذاك، يستحيل معها ردم الهوة بيني وبين بعيري العربي. لم أعد أرى الأطباق الموضوعة على طاولة الأكل أمام القنصل البريطاني بوضوح. فقد كنت أصارع ولشهور عدة، الفكرة المفزعة التي استقرت بداخلي كأنها كابوس، والناتجة عن رؤية نفسي أقضي حياتي كاتباً لحسابات شركة شحن في أحد الموانئ. شعرت بوطأة حلمي المجهض تهبط إلى معدتي، وتختلط بالجلي السيء الاعداد الذي

قدمه القنصل. كان ذلك نهاية طموحي فعلا، ولكن حين هم ثسيغر بالمغادرة، توقف فجأة عند الباب وقال بصوته المهيب: "كبديل لذلك، ما رأيك أن تلقي نظرة على الأهوار، فأنا ذاهب إلى هناك غداً صباحاً وسأرجع بعد ستة أسابيع للاستحمام. يمكنني أن أصطحبك معي إذا استطعت الحصول على إجازة من عملك".

عند هذه النقطة، أعتقد أنه من المناسب قول بعض الكلمات بحق هذا الرجل الرائع الذي لا مثيل له. كان آنذاك في حوالي الأربعين من العمر، ولكن كانت له من الخصال، وما زالت، ما لايغيرها من الزمن. ولد في أديس أبابا من أب كان يشغل منصب وزير بريطاني وأم أثيوبية بالرضاعة. استكشف أبعد المناطق في الشرقين الأدنى والأوسط من ريف داناكايل الحبشي، إلى الكوش الهندي، إلى كاراكوراميس ونورستان. رافق الكاشكاي في هجرتهم السنوية عبر سهول إيران، وتنقل على البغال عبر مناطق الشمال الجبلية لبلاد فارس، أحب واحترم، من بين أشياء أخرى، القبائل العربية، بشخصيتهم الدافئةوكرمهم اللامحدود مقارنة ببخل سكان التلال الإيرانية الغلاظ. أنا لا أعتقد أن أي رجل يعرف الآن عن القبائل العربية أكثر مما يعرف ثسيغر. عندما التقيته للمرة الأولى، كان أمضى سنوات من الترحال في الصحراء العربية. وفي السهل الساحلي الممطر لتهامة على البحر الأحمر، وجبال عسير الباردة الغنية بالمياه، وسهول الحجاز، مأثرته الكبرى هي قطع الصحراء وتلال الربع الخالي الجافة لجنوب العربيا ذهاباً وإياباً مشياً على الأقدام، والتي قطعها قبله اثنان فقط هما برترام ثوماس وجون فيلبي، بعد الحرب الكبرى وأثناء الانتداب البريطاني على العراق.

كان ثسيغر عندما رأيته على طاولة القنصل طويلاً ونحيلاً، بوجه مستطيل متغضن من حروق الشمس، ذا عينين عميقتين. له ذراعان سمراوان، اكتشفت فيما بعد أنهما على قدر كبر من القوة. فقد كان بطلاً للوزن الثقيل في الملاكمة في أوكسفورد، ولم تكن تلك قوة شاب جامعي عادي. فعرب الأهوار، الذي يجلون كل أشكال القوة الجسدية، أدهشتهم قدرته في ملاحقة الخنازير البرية وهو على ظهر فرس عربية بدون سرج، وتمكنه من إصابة الهدف بطلقة واحدة لا تخطئ من بندقية الركبي ٢٧٥ . يعرف كل من حاول أن يرفع تلك البندقية بيد واحدة. فضلاً عن التصويب بها بدقة. أية قوة يجب أن تكون عليها الذراع والكتف.

في ذلك الوقت، أصبح ثسيغر، من خلال رحلاته التي لا تضاهى أكبر

رحالة في عصره، ولربما في كل العصور، كان مدركاً لذلك بالطبع، وبالرغم من أنه بعيد كل البعد عن العدوانية والتبجح في التحدث، إلا أن له لساناً لاذعاً في الجلسات الخاصة ضد بعض المستشرقين البريطانيين، الذين يدعون الشجاعة والمغامرة بسبب رحلات بسيطة تفتقر إلى المجازفة، فمثلاً يقول هازئاً عن إحدى "البطلات"، "تشرثر... عملت كذا وكيت وهي لم تذهب إلى أي مكان لا يمكن الوصول إليه بالتاكسي". وكتب عن آخر ذي سمعة مبالغ بها "إنه ليس آخر رحالة العربيا بل أول سياحها".

يعتبر هذا النوع من النقد قاسياً، لكنه عقلاني يصدر عن رجل صارم وغير مجامل هو ثسيغر. لقد كره اقتحام السيارات للأماكن الجميلة التي لم يفسدها الإنسان بعد، وابتعد عنها قدر الإمكان (كان يمكن استعمال سيارات الأجرة حتى ضفاف الهور فقط وذلك لانعدام الأرض اليابسة بعد ذلك). كان ومازال يضع مقاييس صارمة لسلوك الرحالة، ويؤمن (وقد علمني ذلك أيضاً) أن هناك حواجز طبيعية تفصل ما بين الغرباء من جهة ورجال القبائل من الجهة الأخرى، كاللون واللغة والدين والعرق والتربية وغيرها، وهي بحد ذاتها فائقة الأهمية، ولا يمكن فهم الناس، كعرب الأهوار مثلاً، على حقيقتهم، إذا أضيفت لها حواجز مصطنعة مثل استعمال الأغذية المعلبة، والانشغال بكش البعوض، و أسرة السفر وعادة غلي الماء قبل شربه. إضافة إلى أن تناول الكحول، أو دعوة رجال القبائل لتناوله، وهم الذين تربوا على ازدرائه، يدخل لديه في عداد الجريمة، ولا يغيظه إن اتهمه أحدهم على أنه ذو عقلية قديمة، كان معجباً ببعض نماذج ممن سبقوه من الرحالة مثل ريتشارد بيرتن Richard Burton، وسبيك speke ومونغو بارك Mungo Park، ودوتي Doughty ولورنس Lawrence وهذه بعض الأسماء من قائمة شهيرة. لقد سافر ـ وأنا سعيد أن أقول إنه مازال يسافر ـ لأنه يحب الناس الجميلين في المناطق القصية في زوايا العالم الحلوة، يحب الصحراء الشاسعة، الأنهار ومناطق الجبال، وحيواناتها البرية وطيورها.

بدأ ثسيغر دراسة عرب الأهوار وعالمهم المبهم، الواقع على مسافة ستين ميلاً إلى الشمال من البصرة، في عام ١٩٥٠ . لقد عاش كواحد منهم على الرغم من الحرارة والحشرات والمياه الراكدة، تاركاً كل وسائل الراحة الحديثة. بالنسبة إلي، فلم تكن عندي أية فكرة عن الكيفية التي كان عليها عرب الأهوار، برغم علمي أنهم يعيشون في سهول سومر القديمة، حيث مهد حضارة ما بين النهرين. مع ذلك كنت

مصمماً أن أكون مستكشفاً رغم خيبتي مع الجمل، ولم أتردد قط بقبول دعوة ثسيغر. حصلت على إجازة لمدة أسبوع من عملي في شركة الشحن، وانطلقت شمالاً على وجه السرعة. حشرت نفسي في زاوية سيارة أجرة قديمة كانت تجري بشكل غريب على طريق غير مبلطة بين البصرة ومدينة صغيرة على جانب النهر قرب العمارة حيث كان موعدي مع ثسيغر.

بعد ثلاثة ساعات من السياقة على ذلك "الطريق الرئيسي" أدار السائق مقوده فانعطفنا إلى طريق جانبي، وبدأت السيارة بالارتجاج على طريق موحلة مليئة بالحفر، إلى أن توقف قرب ساقية كبيرة وقال بدماثة بعد أن بصق من خلال الشباك "لقد وصلنا".

رأيت زورقاً أهيف يطفو بإجلال على مبعدة عدة أقدام، ملك الزوارق، أنيق وفاتن، طويل بشكل مدهش ـ يبلغ طوله، كما عرفت مؤخراً، ستة وثلاثين قدماً. كان ثسيغر يقف قبالته، فأومأ له بيده مرحباً وتقدم لتحيتي أربعة شباب عرب، يعتمرون أغطية الرأس التقليدية المثلة باليشماغ والعقال العربي، كانوا معه. أخذ اثنان منهم حقيبتي وبندقية الصيد، وهي كل الأشياء التي استطعت جلبها، فعلق ثسيغر ساخراً: "آمل أن لا تكون الحقيبة جد ثقيلة". ثم أردف مشيراً إلى مرافقيه العرب: "هؤلاء الأولاد من عرب الأهوار سيتولون العناية بك، اركب في الوسط تماماً وإلا ستسقط".

جلست مقرفصاً وخائفاً من الحركة في القعر المستوي لذلك الزورق، التحفة الفنية، المتوازن بدقة متناهية، والغاطس حتى ليبدو أنه على وشك الغرق في أية لحظة. حاولت أن أعزي نفسي بحقيقة أن هذه الزوارق أثبتت كفاءة منقطعة النظير عبر خمسة آلاف عام، غير أن ذلك لم ينفع معي. في تلك الأثناء عقد مرافقونا دشاديشهم حول الورك تهيؤاً للتجذيف؛ وبعد أن أعطى ثسيغر إشارة الانطلاق غطست المجاذيف بخفة في المياه الواهنة، وبدفعة خاطفة تمايل الزورق فابتلت حافته قليلاً وانطلق بنا بعيداً.

يتفرع هذا النهير العميق والسريع من نهر دجلة وتجري مياهه بين ضفتين حادتين لتملأ قنوات الري، على فترات، وينساب ما يتبقى إلى الأهوار، على مبعدة عدة أميال، تاركاً أراضي واسعة على الجانبين متشققة طيلة السنة من الجفاف، فيما تضمن المضخات وصول الماء إلى محاصيل الرز والقمح والسكر والحقول الخضراء

الأخرى الممتدة حتى حدود البصر، في استواء سهلي قاتم ومغبر. فمشهد أرض سومر، خارج مساحات الأهوار، رتيب لا يقلقه غير ظلال بعض أشخاص ملفعين بدشاديش طويلة، أو خيالة أو مجاميع من الطيور أو قطعان ماشية. تنتشر هنا وهناك أجمات من الأشجار مشيرة إلى وجود قرية على إحدى القنوات العديدة. عدا ذلك فإن استواء الأرض هو السائد، البيوت المبنية، كما في الأهوار، من القصب لكن سكان هذه القرى ليسوا معداناً مثل طاقمنا من المجذفين، بل من القبائل التي تتعاطى الزراعة، أي أنهم فلاحون، وهم مع ذلك بارعون في استعمال الزوارق التي تعتبر واسطة التنقل الرئيسية التي لا غنى عنها.

القناة الجانبية التي مررنا خلالها تسمى الوادية، تظللها أشجار الصفصاف التي تتقافز من أغصانها طيور الرفراف (١) للغطس وصيد السمك. قابلت رجالاً بزوارق أصغر، يحيوننا بأيديهم: "السلام عليكم" فنرد بالمثل. عالمي التقليدي وتربيتي الانجليزية، شركة الشحن، البصرة، الأندية، السيارات، الويسكي المخفف بالصودا، كلها كانت تبدو على مسافة ملايين الأميال. التفت إلى الخلف فأدركت أن المدينة الصغيرة حيث التقينا قبل قليل قد اختفت وراء الأفق، ودخلنا إلى عالم جديد أكثرهدوءاً، وبالنسبة إلي عالم سحري. فالمشهد، رغم وجود بعض الأشخاص هنا وهناك، يوحي بالهدوء المطلق، وهو ما زال كذلك حتى اليوم رغم آثار الزراعة الكثيفة، وعبور بعض الطائرات في الجو.

بدا لي أنه قد مضى وقت طويل قبل أن ينطق أحد مرافقينا بشيء مشيراً إلى الأمام. التقط الآخرون إشارته وانعطف زورقنا فرأيت بناءً قصبياً ضخماً على ممر مائي ـ تهيأ لي أنه كنيسة من القصب. قبالة هذا البناء الدرامي وقف عدد من الرجال، فقال ثسيغر: "لقد وصلنا، هذا مضيف فالح" وأدار الرجال الزورق ليرسو على الضفة الواطئة. كان فالح بن مجيد آل خليفة ابن أحد الشيوخ العظام في المنطقة. استضاف ثسيغر من قبل عدة مرات، وأعاره زورقه الحربي الخاص كما زوده بطاقم المجذفين عندما أراد زيارة عمق الأهوار للمرة الأولى. بعد ذلك أهداه زورقاً حربياً جديداً وثميناً، صُنع خصيصاً له على يد أمهر الحرفيين، وهو هذا الصقيل البارع الجمال الذي نجلس فيه الآن. نهضت أنا، فيما أمسك الشباب بحشائش اليابسة لتثبيت الزورق، وقفزت إلى الجرف. أتذكر ـ وذلك مشهد مثبت في مخيلتي ـ أن رجلاً ممتلئاً، بغطاء رأس أسود وأبيض، وشاربين أسودين صغيرين، صافحني

بدفء وقال شيئاً ما لثسيغر وابتسم. تبعه الآخرون للترحيب، بعضهم رجال مسنون بوجوه شاحبة ولحى بيضاء، لحية أحدهم مصبوغة بالأسود على غير انتظام. كان هؤلاء من السادة (والسيد رجل مبجل ومقبول لدى مسلمي تلك البقاع بإعتباره من أحفاد الرسول محمد)، وبعضهم من الشباب، من أقارب الشيخ، كما هو واضح من عباءاتهم المذهبة الأطراف، إضافة إلى عدة أشخاص يعتمرون أحزمة من الرصاص من أتباع الشيخ صافحوني برزانة، فيما وقف خلفهم بعض الخدم بدشاديش بيضاء، يبدو من وجوههم أنهم من بقايا العبيد، تقف خلفهم كلاب كبيرة خطرة المظهر تنبح مهتاجة. فيما رُبط حصانان عربيان أصهبان على مسافة قريبة وضعت على صهوة كل منهما سجادة. حمل مساعدو ثسيغر حقيبتي وبندقيتي ودخلا المضيف الذي يبدو، مع انحدار شمس المساء ذا لون ذهبي، من خلال مدخله المقوس. قال ثسيغر: "هذه هي الأهوار" فمددت بصري حتى حدود السماء. لم أر الأهوار بل خطاً عريضاً من أشجار النخيل وقرص الشمس المحمر وهو يغطس في ظلمة المساء. وفي السنوات اللاحقة فقط تأكدت من طبيعة الشعور الذي تملكني لحظتئذ: شعور الإثارة القوية التي تملأ القلب، والذي لا تستحثه إلا تلك الأماكن الهادئة، حيث نهاية العالم، كالصحارى والجبال والبحار وبالطبع هذه الأهوار. أنا أعتقد أن العديد من الناس ينتابهم الشعور نفسه الذي أحسسته قرب مضيف فالح. اليوم، وأنا أعبر خلال المكان حيث كان البيت قائما (اليوم لا تمكن رؤية شيء عدا أشجاراً خفيضة وسحباً من الذباب، وإن كنت محظوظاً فقد ترى طائر مالك الحزين). كان باستطاعتي أن أشم رائحة مياه الأهوار، بل أعتقد أني رأيت - برغم بعد المسافة - النهايات البيضاء المتموجة للمقاصب الكبرى، لكني وفي تلك اللحظة بالذات اكتشفت وببساطة أني على شفير مغامرة مثيرة.

كان مضيف فالح هو البداية بالطبع، فقد أمضينا صباحنا التالي بالتجذيف للوصول إلى الأهوار الدائمية. فبعد أن تناولنا طعام الإفطار، كتقليد عربي لا يمكن تجنبه، وهو من البيض والمربى والخبز والشاي، هيأ رجالنا الزورق فوثبت بحذر شديد على متنه وأقعيت على السجادة الملونة التي أمر فالح أن تفرش في قاع الزورق. حضر لتوديعنا عدد كبير من الناس وتمنوا أن نزورهم ثانية.

وقف فالح يراقبنا حتى انعطفنا في قناة تظللها أشجار الصفصاف التي حجبتنا عنه. لم يعد سوى انبساط الأرض و انخفاضها وقبل أن نبتعد كثيراً ثرثر

الشباب، وأشاروا إلى جهة اليمين فشاهدت مضيفاً ضخماً آخر وأناساً، كما حدث عند فالح، يخرجون من بوابته المظللة المقوسة، لرؤيتنا ونحن نقترب. كان هناك اختلاف واضح إذ أن جميع الرجال تقريباً يعتمرون الكوفيات السود بدلاً من اليشماغ المرقط. من تلك العلامات يمكن تمييز أن هؤلاء سادة، مثل الرجل النحيل عند فالح. صاحب المضيف هذا هو السيد صروط، أكثرهم احتراماً في تلك البقاع، وكان رجلاً معروفاً ومحبوباً عبر جنوب العراق كله حتى بغداد، وكذلك في الكويت أيضاً، ذا هيبة جلية ـ ليس فقط عند محبي الأساطير المتدينين من عرب الأهوار بل كذلك عند الشيوخ و الرسميين الحكوميين أيضاً ـ وهو رجل حكمة وأمانة لا يرقى إليهما الشك.

هذا ما أخبرني به ثسيغر. كان بإمكاني رؤية السيد الذي لاح لي من على الشاطئ ـ أقول لاح وأعني ذلك تماماً، فالسيد رجل ضخم البنية في الحقيقة، بطول ستة أقدام، عريض المنكبين ممتلئ، أضافت إليه لحيته وثيابه السود مهابة أكثر، وكذا صوته الرخيم الذي انطلق ترحيباً بنا. توقفت عنده في مناسبات لاحقة، فمضيفه كان موطناً للعطف والكرم اللامحدود، ومكاناً للراحة والاسترخاء، بعد تعب ليالي الترحال في الأهوار، والدردشة حول شؤون المنطقة وتعلم فطرة الحياة، أنه مكان جليل. كانت زيارتنا الأولى له قصيرة لكوننا في عجلة من أمرنا، ولأني كنت ما زلت أعمل في شركة الشحن في البصرة، وهم يتوقعون عودتي بعد أيام، لأفاوض الألمان والهولنديين حول حمولات القمح التي تصدرها الشركة. لذلك ودعنا السيد وغادرنا ذلك الرجل الجليل الذي لامنا كثيراً بسبب عدم تمكننا من البقاء للغداء والعشاء أو المبيت أو البقاء ليوم أو أسبوع...

اقتربنا من الأهوار فأحسست أنني سأتأكد بعد هنيهة فيما لو تركت طموحي بركوب الجمل عبر الصحراء. ضاقت القناة التي كنا نعوم فيها وارتفعت على حين غرة حزم عالية من القصب فعزلتنا عما حولنا. بعد لحظات اضمحلت القناة تماماً فتحولت إلى مجرى ضحل مليء بالطمي انحشر فيه الزورق. نزل الشباب في الوحل بعد أن رفعوا دشاديشهم إلى ما فوق الحوض، ودفعوا الزورق فانزلق بهدوء من الوحل إلى المياه العميقة الصافية كأنه بجعة وجدت غايتها القصوى. ارتفع القصب الذهبي من كل جانب بالغاً علو عشرين قدماً وحاجباً إيانا عن العالم الخارجي. قربت حافات القصب المتموجة السماء حتى لتبدو كأنها فوق رؤوسنا تماماً،

اندفعنا إلى عالم آخر مثل أليس في أرض العجائب. فالأهوار مهما بدت صغيرة على الخارطة، إلا أنها عالم يمكنك أن تضيع فيه: ستة آلاف ميل مربع من المسطحات المائية.

غير طاقمنا اتجاه الزورق وأقحموا حيزومه المدبب في ما يشبه نفقاً متموجاً من القصب و الأسل والبردي. نظرت أسفل فرأيت الماء صافياً كالزجاج تظهر فيه بوضوح العرائش العميقة والأسماك، فقال ثسيغر: "هذا الهور" وربت أحد الشباب على كتفي وردد مبتهجاً: "هذا الهور". أجل ذلك هو الهور. إن انطباع الأيام القليلة التي تبقت من زيارتي تلك مازالت عالقة بذهني بقوة كتعلق عرائش الماء تلك بسيقان القصب. كنا نخرج أحياناً من غابات القصب إلى المياه الفسيحة المضاءة بالشمس والتي من سعتها تتصل بحافة السماء على مرمى البصر. رأينا رجالاً في زوارق ذوات تصميم عريق في القدم. منهمكين في التجذيف أو منتصبين وعلى أهبة الاستعداد للصيد بفالاتهم الخماسية الأطراف، كأنهم تماثيل رماة على إفريز قديم، و آخرين كأنهم في الطريق إلى الحرب؛ يمرون سراعاً في أجواء متجهمة محملين بالبنادق والبارود. رأيت رجالاً وصبية يتقافزون من الزورق وإليه، حتى في المياه العميقة، بخفة غير قابلة على التصديق، إلى أن تذكرت أن لديهم خبرة خمسة آلاف عام.

حللنا في قرى تتكون من جزر صغيرة، لا يمكن التنقل بين أكواخها دون زورق لأنها مقامة على الماء، وقد وصفها كيفن ماكسويل بدقة قائلاً: "تشبه أسطولاً من زوارق مضاءة راسية في بحر هادئ". من خلال الفتحات المقوسة للمداخل، وهي نسخ مصغرة وبائسة لمضيف فالح المهيب، رأيت رجالاً ونساءً يتحلقون حول نيران تنعكس على وجوههم فيبدون كأنهم أشخاص من رسوم القرن السابع عشر. تقت آنئذ للتقرب لهم والتحدث معهم ومشاركتهم حياتهم بشكل ما، وإذاك نسيت تماماً حكاية الصحراء والجمل.

كان جمال المكان الطبيعي ساحراً. طيور الرفراف المرقطة ما تنفك تغطس لالتقاط فرائسها، أسراب من الحمام تحلق فوق رؤوسنا، مجاميع من اللقالق، بيضاء كالثلج، تتصيد ببهاء، وفي السماء لابد من وجود عقاب واحد على الأقل. القصب الذي اجتزناه يضج بالحياة البرية: كلاب الماء، والطيور كمالك الحزين، الغرة، الصداح، والحساسين الملونة، الغاق إضافة إلى الخنازير البرية الخطرة. في أحيان

كثيرة، ومن غابة قصب تبدو مهجورة، ينطلق صوت بشري في فضاء الصمت، لشاب يغني عن الحب وهو يقطع الأسل، فيتوقف آنذاك الأولاد عن التجذيف للاستماع وغالباً ما يعبرون عن إعجابهم بجودة الصوت. حين يغني عرب الأهوار يصبحون عاطفيين، وقد وجدت أصوات المغنين الهواة أولئك شجية تهز المشاعر بالفعل وهي أصوات فتية نابضة بالحزن، سواء كان هذا الحزن حقيقياً أو مزعوماً.

لتلك العزلة الهائلة، حيث قاد رجال أور زوارقهم، وحيث أقام الإله العظيم مردوخ، كما جاء في الأسطورة السومرية، منصة من القصب على سطح الماء ومن ثم خلق العالم، وقع عاطفي شامل.

في البدء

"بيت القصب. يا بيت القصب!
جدار... يا جدار
اصغ أنت يا بيت القصب.. يا رجل شوروباك
يابن اوبارو ـ توتو:
هدّ بيتك وابنِ مركباً.."
ملحمة جلجامش
قصة الطوفان (من الألف الثالث قبل الميلاد)

قبل أن يأتي البشر كانت بلاد ما بين النهرين دوامة مقفرة من الهواء والماء السديم. هذا ما تقوله الأساطير على الأقل، ونحن لا نعرف أفضل من ذلك. فتاريخ العراق القديم، قبل الألف الثالث قبل الميلاد، مازال محيّراً. هل ظهر الإنسان المتحضر هناك قبل ستة آلاف سنة أو سبعة آلاف؟. إن هذا الإمعان في الزمن جعل حتى الخبراء يسمحون لأنفسهم ببضعة قرون من الشك حذفاً أو إضافة. أما من جهة عرب الأهوار فهم يجهلون كل شيء عن أسلافهم البعيدين ولن يقدموا هنا أي عون.

في أحد الأيام سألت شيخاً من عرب الأهوار إن كان بمقدوره أن يقتفي أثر أسلافه من سكنة الأهوار، فرد قائلاً "الحق أنني لا أعرف منذ متى كنا هنا، أظن أن عشيرتي انتقلت إلى هنا من الأرض الجافة القريبة قبل عشرة أجيال. أنا لست شخصاً متعلماً يعرف مثل هذه الأمور لكنني لا أعتقد أن مخلوقاً كان هنا من قبل ما عدا الطيور والبهائم". مع ذلك، حين كان يتحدث، كنا نجلس في قلب منطقة وجدت فيها الحياة الإنسانية منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد، ولربما عدة

قرون أبكر من ذلك، هالة من اللانهاية تخيم على هذه الأهوار، الستة آلاف ميل مربع من الماء والقصب، الجميلة حد البهجة حينا والكئيبة والمقلقة حيناً آخر.

ولماذا تدهشنا حميمية اللانهاية تلك؟. أهو أمر هين أنه قبل خمسة آلاف سنة حدق ملوك أور و الكلدانيون في بيوت القصب المنحنية التي نستطيع أن نحدق فيها ونزورها الآن؟. وإن باستطاعتنا التنقل اليوم في الزوارق الملكية لسومر وبابل؟.

ترينا النصوص الكثيرة التي عثر عليها في مواقع سومرية عديدة في السنوات المائة الأخيرة، ما الذي صنعه وتمتع به البشر في بلاد ما بين النهرين في التاريخ الممعن في القدم. كان السومريون أول سكان عرفوا القراءة والكتابة جنوبي العراق. فهم الذين اخترعوا الكتابة ويعدون، من دون أدنى شك، من أكثر الشعوب التي شهدها العالم موهبة. يرى بعض العلماء أن السومريين جاؤوا من شمالي العراق وشرقه قبل الألف الثالث قبل الميلاد، ويرى آخرون أنهم كانوا خليطاً من قادمين جدد نزحوا من خارج العراق وحلوا مع سكان جنوب العراق الأصليين وحضارتهم الجنينية التي أخذت تترعرع هناك، ويبدو أن المجموعة الثانية هي السائدة. لكن السومريين سواء جاؤوا من هنا أم من هناك فقد خلقوا في بلاد ما بين النهرين حضارة عظيمة لا تعلو عليها حضارة مصر. فلم يترك وادي النيل ولا سهول اليونان كنوزاً أكثر إدهاشاً من تلك الكنوز التي استخرجها الآثاريون في مدن ما بين النهرين مثل أور وأوروك ونفر وآشور وبابل. كانت مساحة سومر تقارب مساحة بلجيكا (حوالي عشرة آلاف ميل مربع). وهي عبارة عن أرض مستطيلة بل ضيقة تمتد على الأراضي المروية بين بغداد والأهوار عند رأس الخليج (الذي كان السومريون يسمونه البحر الأسفل أو بحر الشمس الطالعة). امتدت دويلات ـ المدن السومرية العديدة صاعدة إلى بغداد اليوم من دويلة أريدو جنوبي أور تماماً وهي على مسافة قصيرة من مدينة الناصرية الحالية. كانت المستوطنات السومرية تلك واسعة ومتطورة تتكون من ضواحي وبلدات تابعة وتضم بساتين وحدائق، ولربما ضمت المستوطنة الواحدة منها بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألفاً من السكان. كانت دويلات ـ المدن هذه بمعابدها وأسوارها الدفاعية وسدودها متقنة التنظيم وذات خدمات مدنية كثيرة يشرف عليها من الأعلى كبار الكهنة. فكل دويلة ـ مدينة كانت تحكم بواسطة ملك أو حاكم، هو بمثابة ممثل أو مندوب للآلهة على الأرض قاموا هم باختياره. فلم تكن كل دويلة

محمية فقط بإله معين وإنما كانت ملكاً له بالفعل، والزقورات كالتي تمكن مشاهدتها اليوم في اور والتي تشبه برج بابل، هي محاولات لردم الهوة بين البشر الفانين والآلهة في الأعالي. في المدن التي تقع على حافة أحواض القصب الهائلة ولدت الكتابة (حوالي الألف الثالث قبل الميلاد) وتطورت في البداية على شكل صور ثم تخطيطات بسيطة بالقصب على الطين وفيما بعد كأشكال مسمارية مضغوطة على ألواح طينية مفخورة جيداً وصلبة كالصخر. ولقد بقيت مئات الآلاف من تلك الألواح الطينية، وعثر على الغالبية منها في وقت متأخر نسبياً. بدأ "العصر الذهبي" لعلم الآثار في بلاد ما بين النهرين في القرن التاسع عشر مع التنقيبات الأولى التي قام بها السير هنري لايارد في نينوى وكذا في عمل السير هنري رولنسن العسكري واللغوي الذي اكتشف سر النصوص المسمارية، وقد ساهم القرن العشرون بالانتصارات التي حققها السير لونارد وولي والفرنسي الدكتور بارو والسر ماكس مالوان والدكتور فؤاد سفر من الدائرة العامة للآثار ببغداد، والدكتور صامونيل كريمر من بنسلفانيا الذي أعاد اكتشاف الأدب السومري (هذا إذا ما ذكرنا بعض الأسماء اللامعة فقط). لقد عثر على حوالي ربع ملون رقيم طيني على الأقل، ونصوصها أقدم مما تم اكتشافه في أي بلد آخر، ولا يزال العمل الاستكشافي مستمراً في اكتشاف المزيد وثمة الكثير مما يمكن العثور عليه، فأية خرائب تقبع تحت مياه الأهوار أو تحت الطمي؟.

تشكلت هذه الحضارة العظيمة في ظروف غير ملائمة على حفافة الأهوار وحتى في وسطها في سهل مستو أصبح قابلاً للسكن بفضل الرافدين دجلة والفرات وحيث تصل درجة حرارة الصيف إلى ١٢٠° فهرنهايت مصحوبة برطوبة كثيفة تجعل التنفس، فضلاً عن العمل البدني، أمراً في غاية الصعوبة. من ثراء الحفريات على الأختام الاسطوانية وطبعاتها على الألواح، والمنحوتات البارزة على الكؤوس والجرار، والتماثيل الأخاذة؛ يمكننا التوصل إلى فكرة جيدة عن هيئاتهم، بناة المعابد أولئك الذين لم يعرفوا الكلل، الفنانين، المشرعين، والمزارعين - رجال الأهوار الذين طاردوا الحيوانات البرية في المقاصب واصطادوا السمك بالشباك والفالة. كان السومريون في الغالب ذوي وجوه بيضوية، متيني البنية غليظي الرقاب ذوي أنوف كبيرة ناتئة، وعيون مستديرة بشكل غير اعتيادي - لا يمكن القول إنهم خارقو الجمال، لكن وجوههم تنم عن شخصية قوية مرحة ولطيفة.

بعد السومريين، الذين لم يكونوا ساميين، وبغض النظر عمن كانوا، جاءت أقوام من الشمال الأبعد، قصار ذوو أنوف مستدقة ورؤوس ألطف وأقل استدارة ـ الهيئات السامية ظهرت مع توغل أمراء الأكاديين من العراق الأوسط. وبإمكانك مشاهدة هذين النمطين من الملامح (مع أنماط أخرى) متحلقة حول المواقد المسائية في بيوت الأهوار اليوم مع فارق أن أصحاب البيوت هؤلاء لا يتحادثون باللغة السومرية القديمة.

اللغة السومرية لسان غير مصنف وليست لها علاقة بأية لغة أخرى كالأكدية (أو الآشورية ـ البابلية) التي هي لغة سامية ذات صلة بالعبرية والعربية. تلاشت السومرية كلغة منطوقة في الاتصال اليومي حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، لكنها ظلت حية لقرون أخرى (نظراً لقوة الثقافة السومرية والاحترام العميق الذي خصها به الفاتحون "الأجانب" من جنوبي بلاد ما بين النهرين الذين تعاقبوا على الحكم من بابليين وآشوريين) كلغة أكاديمية للكتابة يستخدمها الكهنة والدارسون، شأنها شأن اللغة اللاتينية التي بقيت حية خلال القرون الوسطى في أوروبا. ليس ثمة صلة لغوية، إذاً، ما بينها وبين لغة سكان الأهوار اليوم الذين يتكلمون العربية الدارجة في العراق.

ضع اللغة جانباً، أظن أن صدمة السومري في التعرف ستتغلب على صدمة ذهوله، لو استطعت، بفعل من أفعال السحر، أن أنتزعه من الألف الثالث قبل الميلاد، أو حتى قبل ذلك بكثير، ووضعته في مشحوف من المشاحيف العربية ذوات الحيزوم العالي، صناعة ١٩٧٦ مثلاً، ومضيت به إلى عتبة بيت من بيوت القصب بني في الأسبوع الماضي. إن بقايا المشاحيف الآتية من "العصر الذهبي" السحيق لسومر تماثلها بصورة دقيقة مشاحيف سكان الأهوار اليوم. فقد عثر السير ليونارد وولي على أنموذج من الفضة لمشحوف يبلغ طوله قدمين في بقايا مدينة أور الملكية التي تبعد أربعين ميلاً فقط من مركز الأهوار الحالي، وهو معروض اليوم في المتحف العراقي الرائع ببغداد. وهناك نموذجان أكبر، من أور، مصنوعان من القار ومعروضان في المتحف البريطاني بلندن. لقد انتشرت نماذج القار عبر العصر السومري ويتراوح طولها ما بين قدم ونصف إلى ستة أقدام، ويبدو أن لنماذج المشاحيف هذه، بمعايير الفن القديم، أهمية دينية حيث عثر عليها داخل القبور السومرية ومن المؤكد أنها صنعت هناك. وقد حملت منمنمات من الأوعية النحاسية

وجراراً تضم نذوراً من الطعام والشراب مخصصة إما للميت الجائع وإما لاستدراج الأرواح الشريرة إلى متون القوارب لتنقلها بعيداً إلى عالم المغفرة.

القوارب ذات الأشكال الجميلة التي يستعملها المعدان اليوم، كما كانوا من قبل، تشبه شبهاً شديداً تلك النماذج القديمة. وهي جميعها، وخاصة الطرادة، زورق الشيوخ الحربي، أشياء، كالحيوانات، ذات فصيلة نادرة. يبلغ طول الزورق - الحربي الذي بناه فالح بن مجيد وأهداه إلى ويلفرد ثسيغر في العام ١٩٥١، ستة وثلاثين قدماً وعرضه من أوسع نقطة فيه ثلاثة أقدام ونصف القدم فقط. ويرتفع حيزومه الأنيق، أسود وأملس بفعل القار، إلى مسافة خمسة أقدام فوق سطح الماء. لقد بنى السومريون زوارقهم قبل خمسة آلاف سنة بالطريقة نفسها التي تستعمل اليوم. فالمشاحيف والطرادات تصنع من خليط من خشب التوت العراقي والخشب المستورد من ماليزيا وأندونيسيا، وبأبسط الآلات: منشار، قدوم، ومثقب. عندما تربط أضلاع خشب - جاوة المنحنية إلى أضلاع خفيفة في قاع الزورق ، تشبه هيكلاً عظمياً وهي ملقاة على الأرض، تثبت بالمسامير دعامات أفقية لتقوية الجوانب. وتحشر ألواح للقاع ويسوّى جزء صغير من المقدمة والمؤخرة ليهيأ مكان المجذفين في الأمام والخلف.

استخدم السومريون، لمنع تسرب الماء، الطريقة نفسها التي بإمكانك مشاهدة عرب الأهوار يطبقونها اليوم، حيث يكسون قشرة الخشب الرقيق بطبقة من القار الذي يغلي على الأرض - كما هو الآن في هيت والرمادي - (استخدم السومريون القار أيضاً لمنع تسرب المياه في المبازل وملاطاً في صناعة الطابوق)، وفي كل سنة تكشط طبقة القار القديمة وتضاف طبقة جديدة باستخدام المرقاق.

إذا عرفت المشهد الطبيعي، الذي هو اليوم مماثل لما كان عليه آنذاك، فهل مما يدعو للعجب أن الأساطير السومرية تدور في أماكن تعكس جنوبي العراق اليوم: أنهار، قصب، أهوار، ونخيل؟. أساطير الخلق السومرية والبابلية تناسب تماماً الاستواء الأخضر - الرمادي عند رأس الخليج. "لو وقفنا في صباح ضبابي قرب شاطئ البحر العراقي الحالي، عند فم شط العرب - كما كتب مؤرخ عراقي حديث يعرف ذلك تماماً - فماذا سنرى؟...ضفتين منخفضتين من الغيوم معلقتين بالأفق، بحيرات واسعة من الماء العذب تنبجس من تحت الأرض أو تخلفت من فياضانات النهر تمتزج بدون عوائق بمياه الخليج المالحة، ومن منبسطات الوحل التي تشكل عادة

المشهد الطبيعي، ولا تمكن رؤية أكثر من بضعة أقدام منها، فكل ما حولنا البحر، والسماء، والأرض تمتزج كهيولى من سديم مائي". هكذا، كما أشار، رأى سكان هذه المنطقة القديمة بداية الكون. وواقعا فإننا نعرف كيف فعلوا ذلك من أثر أدبي عظيم. قصيدة ملحمية ألفها البابليون وخطوها على سبعة ألواح طينية حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد صورت بالتفصيل أسطورة الخليقة ولربما ورثها البابليون من عهود سومرية سابقة. تعلن هذه الألواح أن الخليقة جاءت نتيجة صراع مستميت بين مجموعات مختلفة من الآلهة المهتاجة، مواجهة هائلة بين الخير والشر وبين النظام والفوضى.

تصف القصيدة المعنونة "أينوما ايليش "Enuma Elish، في مطلعها "عندما في الأعالي (لم تكمن السماء قد سميت بعد...) الزمن الذي لم يخلق بعد فيه شيء - لم يفرش كوخ قصب، لم تظهر أرض أهوار...، فقط أبسو (المياه العذبة)، تيامات (المياه المالحة)، وميمو (السحاب) امتزجت مياهها ككتلة واحدة". التشوش، الرطوبة، والكآبة هي السائدة. كانت هناك حاجة إلى معجزة إلهية، وقد جاءت المعجزة. ينسب البابليون خلق النظام والعالم والبشر إلى إلههم - الراعي مردوخ (وهو أنليل السومريين).

اعتلى مردوخ/ أنليل عربة العاصفة، مسلحاً بعاصفة الطوفان والبرق واستطاع أن يقهر قوى الفوضى، وكانت جيشاً جراراً من التنانين والأفاعي العملاقة، وشرع يخلق سماء جديدة وثبت الشمس والقمر والنجوم في مساراتها المناسبة، ثم مضى وصنع العالم. (أقام منصة من القصب على سطح الماء، ثم خلق التراب وصبه حول المنصة) - وهذا يبين باختصار كيف يصنع المعدان هذه الأيام جزرهم الاصطناعية التي يقيمون عليها أكواخ القصب.

أخيراً عزم مردوخ/ أنليل على أن يكون ثمة شاهد يذكر ما فعله حين يأتي الوقت المناسب، فقال: "سوف أخلق وحشاً سيكون اسمه "الإنسان". حقاً سأخلق الإنسان الوحش - وسيكلف بخدمة الآلهة - بهذا يكونون في طمأنينة!"؛ وهكذا جاء الإنسان إلى العالم.

مع أن السومريين والبابليين كانوا ممتنين لهبة الحياة - إلا أنهم جميعاً كانوا يدركون الجانب المظلم للأرض الخضراء المروية جيداً التي خلقها مردوخ/ انليل. فقد جرفت الفيضانات أسوار المدينة ودمرت الغلال والمشاية. النهران المباركان دجلة

والفرات، اللذان بفضلهما بقي العراق، يمكن أن يحطما ضفافهما ويجينا بالخراب، أمطار الشتاء، وعواصف الرمل، وحرارة الصيف، والجفاف، كلها تهديدات دائمة للرخاء - بل حتى للبقاء بالذات. وهكذا - ولالفي سنة تقريباً - ظل الكهنة الحكماء القلقون يرتلون "إينوما ايليش" في اليوم الرابع من مهرجان سنتهم الجديدة - كانت مديحاً لإلههم العظيم مردوخ وتعبيراً معقولاً عن الشكر - ولكن في الوقت نفسه كانت علامة على أن البابليين لم يكونوا - بأية حال - متأكدين من أن الصراع الكوني بين النظام والفوضى قد حسم بشكل نهائي. هذا إذاً الكلام على أسطورة خلق العالم السومري والبابلي - وهو عالم محدد ببلاد ما بين النهرين والمناطق المحاذية - حيث بابل هي العاصمة عند البابليين ونفر عند السومريين. هذه هي الأسطورة فما هي الحقيقة؟

هنا يأتي الجدل بين الأكاديميين. حتى السنوات الأخيرة، اعتقد الدارسون أن البحر - أو الخليج على وجه الدقة - كان يغطي، حتى الفترة التوراتية، ما هو الآن أرض من اور وإلى نقطة بين القرنة ومدينة العمارة الحديثة. ظهرت الشكوك حول وصول البحر إلى محور القرنة - العمارة عندما لم يجد المهندسون، الذين حفروا الآبار في المنطقة، أي أثر للصخور البحرية التي كان البحر سيأتي بها إلى هناك ويخلفها بعد انحساره. لقد اكتشف الباحثون الجيولوجيون مثل تلك الصخور في منطقة اور، ولا شك أن هذه المدينة العظيمة أنشئت قرب شاطئ البحر. يؤيد هذه النظرية، الألماني فرنر نوتزل - الذي قدم صورة مدهشة جديدة لارتفاع وانخفاض المحيطات القديمة. فهو يرى أنه في العصر الجليدي الأول الذي دام من عام ١٤٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠ قبل الميلاد امتص الامتداد الهائل للمناطق الجليدية على الأرض كميات هائلة من المياه كافية لخفض مستوى بحار العالم بمقدار ١١٠ متر تحت المستوى الحالي. ولا تتعدى أكثر النقاط عمقاً في الخليج مسافة ١٠٠ متر. لذلك يرى نوتزل أن الخليج كان منخفضاً جافاً في تلك الفترة، ولم يكتسب شكله الحالي إلا في الألف الخامس بعد أن أدى ذوبان الجليد إلى ارتفاع مستوى الماء مرة أخرى. وهو يرى أنه في حوالي عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد رفع العصر الدافئ، بصورة مؤقتة، مستوى الماء ثانية إلى حوالي ثلاثة أمتار أعلى من مستواها الحالي. لابد من أن هذا المنسوب المرتفع للماء قد سبب اندفاع الفيضان إلى الشمال الغربي مكتسحاً أو غامراً الأسوار وقنوات الري والسدود، ومطوقاً المدينتين البحريتين أور واوروك. ولابد من أنه قد أحدث دماراً

هائلاً لبيوت القصب، والقرويين، ومجتمعات الأهوار، حطم غلالهم وماشيتهم وأغرقهم. لابد من أنها كارثة لا تنسى. إن هذا يفسر السبب في أن السومريين والبابليين كتبوا تحت هاجس الطوفان العظيم نصوصهم القديمة. وقد جاءت قصة الطوفان التوراتية من تلك الهواجس السومرية. فمن المؤكد أن رعاة الجواميس الفقراء، في جنوبي العراق، في تلك الأزمنة القديمة قد عرفوا وخافوا وأحبوا قصة الطوفان المذهلة. ويجب أن تكون هذه القصة قد رويت وأعيدت روايتها في أكواخ قصب لا حصر لها وعلى شفاه أجيال من الأمهات إلى أجيال من الأبناء والبنات - هذه الأسطورة التي تروي الانفجار المفاجئ لغضب السماء، وإرسالها المياه الهائلة لإبادة البشر. وبالطبع انتشرت قصة إفلات الإنسان - بما فيه من مستلزمات كامنة ومهددة - كان يمكن أن تحدث ثانية - عبر الشرق الأدنى كله. حينما سقطت سلالة اور الثالثة (٢١١٠-٢٠١٠ قبل الميلاد) تحت هجمات الغزاة الشرقيين، كان إبراهيم واحداً من اللاجئين، ارتحل بقضه وقضيضه إلى فلسطين وأخذ معه، إلى جانب أسرته وخدمه وبضاعته وماشيته، التراث الأدبي المتألق لسومر وأساطيرها المتوقدة ومن هذه الأساطير قصة الطوفان التي أخذها كتبة التوراة والتي نعرفها كلنا.

لقد انتقلت قصة الطوفان شفاهية إلى أجيال من السومريين والبابليين والآشوريين، وأسهمت في كتابة فصل مضيء من المجد المتوج للأدب السومري - قصيدة ملحمية رائعة تقع في اثني عشر نشيداً ومعروفة باسم ملحمة جلجامش. فهي مزيج من المغامرة والعبرة والمأساة وتعتبر ملحمة جلجامش أفضل قصيدة ملحمية عبر العصور حتى إلياذة هوميروس. وهي تسبق الإلياذة بألف وخمسمائة سنة، كتبت أولاً في الألف الثاني على الألواح الطينية بالخط المسماري، أقدم الخطوط كلها، مع أنه كان مألوفاً لدى السومريين لقرون عدة قبل ذلك. (بين الدكتور صموئيل نوح كريمر، وهو أحد المختصين العظام بالسومريات، وذلك في مجموعة ترجماته للنصوص السومرية، أن تفاصيل الطوفان الواردة في الملحمة كانت معروفة بالتأكيد منذ العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد).

كان جلجامش ملكاً حقيقياً على الدويلة - المدينة اوروك السومرية (في الشمال الغربي لمدينة أور وتعرف الآن بالوركاء) عاش حوالي ٢٧٠٠ قبل الميلاد. كان حاكماً عظيماً عادلاً وبانياً للمعابد في حياته، وقد غدا أسطورة بعد موته، ثلثاه إله وثلثه الآخر بشر.

تروي ملحمة جلجامش في جانب منها بحثه المتواصل عن سرّ الخلود والذي أوصله بعد العديد من المغامرات والأخطار إلى حضرة اتونابشتم، باني الفلك والناجي من الطوفان، الذي وهبته الآلهة الخلود كتعويض لمحنته أثناء الطوفان. يعيش اتونابشتم الآن "في ثغر الأنهار" في أرض دلمون الهانئة، حيث اعتقد السومريون بأنها الأرض التي "كان فيها العالم فتياً.. لا يسمع فيها نعيب غراب، وطائر الموت لا يطلق صيحة الموت، والأسد لا يفترس، والذئب لا يمزق الحمل، والحمامة لا تئن، ولا توجد أرملة، ولا مرض، لا شيخوخة ولا نواح". يخبر اتونابشتم، جلجامش، بسر النبتة الوحيدة التي يمكن أن تمنحه الخلود. أخيراً يعثر جلجامش عليها في قاع البحر، لكنه وهو يحملها عائداً إلى مملكته، يتوقف ليستحم في جدول، فتسرقها الأفعى من الماء. وفي الختام يسلم جلجامش اليائس بقدره الفاني.

قبل ذلك، وأثناء محادثتهما، يروي اتونابشتم العجوز شهادته عن الطوفان. كان انليل "أب الآلهة" مسؤولاً عن الطوفان. وقد صنع معجزة الخلق بأن بنى جزيرة من القصب على سطح الماء، ووضع فيها الإنسان. اقنع، بعد ذلك، الآلهة الآخرين كي يرسلوا الطوفان ليمحوا كل حياة حيوانية. وكان ذلك أمراً شنيعاً. لا شيء يقدم تبريراً معقولاً لمثل هذا الفعل الرهيب يمكن إيجاده في النصوص القديمة، لا شيء سوى افتراض بابلي بأن "سكان الأرض صاروا كثارا وصخابين فازعج هيجانهم انليل". وعلى أية حال، فقد خالف انكي، إله الحكمة والسلام، قرار الأغلبية، واحتج قائلاً: "ولماذا نحرم أنفسنا من خدمنا وعبادنا البشر؟". أي معنى في الواقع، في قرار مجموعة مصطنعة من الآلهة في أن يفنوا دفعة واحدة الجمهور البشري - الذي يمكن بسهولة معاقبته، كفاية، عن طريق المجاعة أو الطاعون الأسود؟

إلا أنه لا يمكن تحدي قرار مجلس الآلهة. ولم يكن بوسع أنكي أن يمنع حدوث الطوفان. كل ما استطاع فعله هو تحذير إنسانٍ واحد من أن الطوفان قادم، كي يمنحه وقتاً لبناء سفينته، وهذا سيؤمن، على الأقل، بقاء الإنسان والحيوان. ولأن قانون الآلهة يمنع إفشاء الأسرار إلى أذن فانية، فقد همس أنكي تحذيره إلى جدار كوخ اتونابشتم القصبي:

"بيت القصب.. يا بيت القصب!

جدار... يا جدار

اصغِ أنت يا بيت القصب.. يا رجل شورورباك

يابن اوبارو ـ توتو:

هدَ بيتك وابنِ مركبا

اهجر كل ما تملك واطلب الحياة...

احمل في مركبك بذرة كل الأحياء"

هكذا بنى اوتونابشتم، ابن مدينة شوروباك (عثر عليها الآثاريون على مبعدة ٤٠ ميلاً شمال ـ غربي أور) فُلكه، وأخذ معه عائلته و "الحيوانات البرية والداجنة، والحرفيين"، وسرعان ما اندفعت، حسب الاعتقاد السومري، رياح العواصف الجبارة مجتمعة... وقذفت رياح العواصف المركب الكبير إلى المياه الطاغية.

كاد البشر أن يفنوا و أخيراً، بعد فوات الأوان للبشر والحيوانات الغرقى، ارتعبت الآلهة مما فعلته فجعلت الطوفان ينحسر. رسا المركب الكبير على جبل نسير NISIRوالذي يعتقد أنه الآن جبل بير عمر كودرون PIR OMAR GUDRUNإلى الشرق من نهر دجلة في حوض الزاب الأدنى. هنا أطلق اتونابشتم حمامة فطارت فلما لم تجد أرضاً تحط عليها عادت أدراجها إلى المركب. وحدث الشيء نفسه عندما أطلق اتونابشتم خطافاً. ثم، على أية حال، عندما غادر المركب بمن فيه من حيوانات وبشر قلقين، غراب لم يره ثانية أحد، ولا بد من أنه وجد اليابسة. انحسرت المياه بسرعة، وقدم اتونابشتم القرابين للآلهة الذين عملوا ما بوسعهم لإبادته.

أما انليل، الذي لم يندم على ما حصل، فقد كان غاضباً لنجاة أي مخلوق بشري، لكنه سرعان ما اقتنع أن الطوفان كان خطأً فادحاً في الحكم. وكما روى اتونابشتم العجوز لجلجامش في وقت لاحق: "صعد انليل إلى المركب وأخذ بيدي وبيد زوجتي وجعلنا ندخل المركب ونركع على أحد الجانبين، وكان واقفاً بيننا. لمس جبهتينا وباركنا قائلاً: في ما مضى كان اتونابشتم شخصاً فانياً، ومنذ الآن سيكون هو وزوجته مثلنا نحن الآلهة في المكان البعيد عند ثغر الأنهار".

تنتهي قصص الفيضان التوراتية، لاعادة الطمأنة، بظهور قوس قزح. لكن الرواية السومرية والبابلية لا تحتوي على ضمانات إلهية كهذه تجاه طوفان آخر. حقيقة أن رواية اتونابشتم في ملحمة جلجامش عن ندم الآلهة العميق تحتوي على طمأنة ما للإنسان. لكن الملحمة تنتهي نهاية كئيبة. لأن جلجامش ـ الملك البطل الأسطوري لجنوب العراق ـ قدر له أن يرى نبتة الخلود تسرق منه بواسطة أفعى، واضطر للاعتراف بأن نصيب الإنسان هو الموت.

من سومر إلى الإسلام

ما عدا الطوفان العظيم، واجه سكان العراق القدماء سلسلة لا نهائية من الفيضانات الأصغر حجماً، وأظهروا في مجابهتها عزيمة كعزيمتهم في مقارعة الأوبئة. يقول الدكتور فؤاد سفر، العراقي الموهوب المختص بالسومريات، أن فياضانات مياه دجلة، المنتظمة والعنيفة غمرت في الأزمنة القديمة المساحات إلى الشمال والشمال - الشرقي والجنوب - الشرقي من مدينة العمارة الحالية. إن معظم سكان سومر الحقيقيين سكنوا ما يسمى اليوم بالمنتفك - وهي المساحة الممتدة من الناصرية الحديثة وسوق الشيوخ والشطرة حتى بابل. ولا يوجد اثنان من الخبراء يتفقان على الشكل الذي كانت عليه الأهوار آنذاك، بل حتى المجاري الأصلية السابقة للنهرين العظيمين اللذين تعتمد عليهما الجداول وقنوات الري والأهوار تبدو غير مؤكدة. نعرف الآن أنهما ينبعان من هضاب أرمينيا، ويلتقيان عند القرنة ثم يواصلان الجريان أسفلَ من خلال شط العرب إلى البحر. أما على الخارطة، فيبدوان كأنهما آلة الشوكة الرنانة، لكن من الممكن تماماً أن الفرات كان في يوم ما يجري منفصلاً إلى البحر، إلى الجنوب من مدينة السماوة.

النظر من الأعلى يظهر أراضي سومر، مشهداً مرقطاً بآلاف التلال والروابي والجزر التي تعلّم مواقع الأكواخ والقرى والمدن. فهذه البقع باقية هناك غامضة وملغزة. أغلبها لم يستكشف بعد وهي غير مسماة تنتظر وصول الباحثين. هناك العديد من هذه الروابي المختبئة في الأهوار. أحدها المسمى ايشان (١) أبي شذر، أزوره كثيراً، يقع في الأهوار الوسطى. يبلغ طوله ٣٠٠ قدم وعرضه ٢٠٠ قدم وارتفاعه حوالي ١٠ أقدام أعلى من معدل منسوب المياه. تسكنه اليوم عشيرة بيت نصر الله مع جواميسهم وبعض الماشية وتدور حوله قصص مروّعة. فالمرة الوحيدة

التي شاهدت فيها الجواميس تسلك سلوكاً غريباً هي في أبي شذر وذلك منذ عام. كان لدى أحد المجذفين صديق من بيت نصر الله فأرسينا الطرادة على الجرف، وبعد مصافحة مضيفنا ذهبنا للتجوال عبر ذلك النتوء الأرضي الغريب. لا توجد هناك أشياء كثيرة للمشاهدة. عدد كبير من الجواميس يلوك العلف في وسط أبي شذر ولم يكن ذلك منظراً غريباً، ثم فجأة حدث شيء مذهل. تدافعت الجواميس بخفة غير عادية وهي تخور هائجة. خفضت قرونها باتجاهنا كأنها ثيران المبارزة، وأخذت تنبش التراب بأظلافها وهي ليست هائجة فحسب بل، وبعدوانية جلية، تستعد للهجوم.

ـ "دير بالك".

صرخ جبار، أصغر وأنشط رفقتي، وتناول مباشرة حجراً كبيراً وقطعة خشب كانت ملقاة جانباً. فعل الآخرون الشيء نفسه وتراكضوا إلى الأمام برشاقة وهم يقذفون الحجر ويصرخون كالمسعورين. تراجعت الجواميس عن الهجوم المباغت إلى الطرف الآخر من الجزيرة وهي تشخر بغضب وتنفخ مناخرها بعصبية، وتبدو عليها علامات القهر. كان شيئاً لافتاً للنظر.

ـ "ما الذي جعلها تفعل هذا؟" سألت.

لكن لا أحد كان بمقدوره الإجابة.

ـ "لو حدث هذا قبل سنوات لقلنا إنها الطناطل (١)، الأشباح الأرواح الشريرة التي يعتقد آباؤنا وأجدادنا أنها تعيش في هذه الجزر" قال فرحان ضاحكاً، وهو أحد الشباب في المركب.

يقال إن هذه الطناطل، التي تدور حولها القصص التي تروى حول مواقد الليل، تحرس كنزاً ملغزاً مدفوناً في جزيرة ما يخفونه عن عيون الناس بفعل نوع من السحر. اعتاد رجال العشائر المحليون القول بوجود ذهب مدفون في المنطقة، لكن لم يتم العثور حسب علمي على أية قطعة ذهبية. في إحدى المرات عرض أحدهم على ثسيغر ختماً قديماً وقطعة من الرصاص موشاة بحفر تمثل رموزاً فينيقية. كما قام القنصل البريطاني في البصرة جون جورج تايلور في العام ١٨٥٣ باستكشاف أجزاء من "البحيرة الكلدانية" (كما كان يسمي الأهوار) وعثر هو الآخر على قطع رصاصية في جرار مدفونة في قبر عليها أدعية وابتهالات. يقول الخبراء الآن إن هذه الحفريات تعود للقرن السادس وهي مكتوبة بلغة الصابئة المندائية، وهي ديانة قديمة لا تزال قائمة في المنطقة. بغض النظر عن الأختام، فإن وجدت هذه الروابي هناك منذ ألف

وثلثمائة سنة، فمن المحتمل جداً أنها وجدت منذ عصور ما قبل الإسلام، بل حتى من العصر السومري. بعض هذه التلال صلبة، بصلابة الأرض وليست بصلابة الحجر، وعالية جداً. كتب ثسيغر حول مشاهدته تلاً أجرد وأسود يرتفع حوالي ثلاثين قدماً فوق البردي. يعتبر ذلك لسكان الأهوار ايشانا واقفاً ويعتقدون أنه موقع مدينة غابرة منسية. كما شاهد ثسيغر رابية يسمونها "العزيزة" وقدر ارتفاعها بخمسين قدماً. تقع هاتان الرابيتان في ريف آل سويد شرقي مدينة العمارة الحالية باتجاه الحدود الفارسية. يمكنك هناك أن تجد أجزاءً من آنية فخارية أيضاً، بعضها غير مزجج والبعض الآخر أزرق بلون السماء. كما يجد، من وقت لآخر، أحد عرب الأهوار مربعاً من حجارة مستوية منقوش عليها ما يشبه الرموز المسمارية، وأحياناً قطعاً من بناء منهار مزجج بأخضر غامق. بعض هذه الأشياء قد يكون حديثاً، من العصر الإسلامي ربما، ولكن أشياءً أخرى، لا يزال قسم منها مدفوناً وغير مرئي، قد تكون قديمة جداً في الواقع.

كانت الحياة جميلة في تلك الأزمنة الغابرة. الحدائق الخضراء المروية جيداً، البساتين وغابات النخيل اللانهائية في سومر، شبكات القنوات والسدود المعقدة الرائعة التي جعلت بلاد ما بين النهرين مخزن قمح الشرق الأدنى، الفلاحون الأثرياء والآلاف المؤلفة من الأغنام والبهائم، رجال الزوارق وهم يغنون وسط أحواض البردي العملاقة ويصيدون الأسماك والحيوانات دون أن يقلقهم أحد، هكذا كان المشهد ويصيدون الأسماك والحيوانات دون أن يقلقهم الذهبي عندما كان العراق فتياً، فردوساً أضاعته النزاعات والإهمال.

يعتقد أن السومريين جلبوا أسلاف الجاموس العراقي من الهند قبل الألف الثالث قبل الميلاد. وأنت تراها الآن، كما كانت آنذاك، بأجسامها الضخمة ذات اللون الأسود، جاثمة على عتبات بيوت المعدان المستديرة، وغالباً إلى جانب بيوت الفلاحين أيضاً. إنها بالطبع أليفة لسكان الأهوار، كأبقارهم. جسمها الضخم والاهتزاز الثقيل لسنامها والقرون الغليظة والعريضة، تدهشك عند رؤيتها للمرة الأولى، خاصة حين تقفز من الزورق إلى عتبة بيت من الأهوار، حيث تقف الجواميس دائماً، أو تستلقي ملتصقة ببعضها، مما يضطرك للارتطام بها أثناء مرورك. لا داعي للقلق رغم مظهرها الخيالي. فهذه المخلوقات الشبعى تبدو وكأن لديها طاقة تكفي فقط وبصعوبة لعلك العلف في أفواهها بعد قرون من عدم الاهتمام الذي أسرف فيه

عرب الأهوار جيلاً بعد جيل. فنادراً ما قام المعدان بنحر الجاموس لغرض الأكل، وهي تقدر فقط لحليبها وروثها الذي يجفف كقوالب رقيقة، كأنها أقراص عجين غير مختمر، تستعمل كأحسن وقود لمواقد عرب الأهوار الطويلة الاشتعال، متميزة بصلابتها الإسمنتية ورخصها ووفرتها.

يشرب حليب الجاموس بحالته الخام مباشرة من وعاء الحلب، أو تصنع منه الزبدة الغنية واللذيذة التي تقدم مع الطعام في عموم المنطقة. وكما جرت العادة لدى القبائل الصحراوية، فالرجال (وليس النساء مطلقاً) هم الذين يحلبون جمالهم، كذلك الأمر عند عرب الأهوار فالحلب من مسؤولية الرجال وهم يتولون العناية بالجواميس المريضة أيضاً. فيشعلون نيراناً صغيرة، وبطريقة ما لا ترسل لهباً بل تدخن فقط، فتكون موجات لولبية من الدخان على جانبي عيون الجواميس المعذبة بسحب من الحشرات الصيفية.

تبنى بيوت الأهوار قديماً، كما هي الحال، على جزر صغيرة بمعدل بيت واحد لكل جزيرة. بعض تلك الجزر، إن وجدت، متكونة طبيعياً وبالرغم من إقامة الإنسان عليها لسنوات فهي ما زالت تبدو جدّ طبيعية في الحقيقة. يمكنك صنع بيتك بالطريقة نفسها التي صنع فيها مردوخ العالم. فأنت تقرر حجمه. تبدأ بجمع جبل من الأسل وتكومه في الماء داخل سياج من القصب الذي يعلو سطح الماء، إلى أن تظهر الأرضية على سطح الماء، كتل خضراء مضغوطة بالأقدام جيداً، فتثني فوقها السياج إلى الداخل، وتستمر بتجميع وضغط القصب إلى أن تقتنع بحجم وصلابة الجزيرة الجديدة التي صنعتها للتو. ولكي يمكنك بناء جزيرة تعمر مدة أطول، عليك أن تغطي بالتناوب طبقات القصب والأسل بطبقات من الطمي، فذلك سيقوي الكتلة المصنوعة من النبات والتربة ويجعلها رابية غير قابلة للتفكك. تمكن مشاهدة رواب مهجورة من مختلف الأحجام موزعة هنا وهناك في الأهوار. وقد كان الناس يبنونها، بالطريقة نفسها التي وصفتها قبل قليل، منذ خمسة آلاف عام. يسعى أصحاب البيوت إلى تعلية مستوى الأرضية في مواسم الفيضان وذلك بإضافة كميات جديدة من الأسل. وفي أوقات أخرى تشاهدهم يشيدون حواجز واطئة، بعلو ستة انجات، حول دكة الجواميس التي تظهر في مؤخرة البيوت "كأنها ظهر مركب من مراكب القرون الوسطى" كما كتب كافن ماكسول. فهذه ليست لمنع الجواميس والأبقار، التي تشارك العائلة مكان العيش، من الهرب - فالجواميس مدللة وكسولة إلى الحد الذي لا ترغب فيه بالهرب، أما الأبقار فلا تحب

المياه العميقة ـ بقدر ما توفر مشجباً لربط الزورق.

لقد نزحت الأقوام السامية غير المستقرة ـ الأكاديون، الآراميون ـ من الشمال ومن الصحراء وانتج اختلاطهم مع السومريين غير الساميين، ما نعرفه "بالبابليين". لكن رعاة الجواميس وصيادي السمك سكان الأهوار لم يتركوا بسلام على الدوام. ففي ولايات بلاد الرافدين المختلفة تعاقبت، في لعبة السلطة، قرون من الحكم والحكم المضاد والصراع المرير بين الحكام. ثم جاء الرومان من الشرق القديم، والآشوريون القساة بمكانتهم الحربية العصية على المقاومة. ومزقت سيادة الأحداث المروعة، الفترة السلمية نسبياً الممتدة من عام ١٤٠٠ إلى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد التي أدرك خلالها ملوك القوى العظمى، مصر وبابل وآشور ومملكة الحيثيين في الشمال، أن من الأفضل لهم الحفاظ على ميزان دقيق للقوى. في بابل قام الملك حمورابي بتنيظم القوانين وبنى المعابد، وأصلح الزراعة. لكن القلاقل كانت وشيكة. فما قيل عن "همجية الآشوريين وقسوتهم التي تفوق الوصف" سرعان ما غمر المنطقة.

أسماء الملوك الآشوريين آشورناصربال، شلمانصر، ادادنيراري، تيكلاثبايلسر، سنحاريب، اشوربانيبال؛ ترن مثل صدى أجراس بربرية. كان الملك سنحاريب هو الذي هاجم عرب الأهوار. في عاصمته نينوى، وفي العام ٧٠٥ قبل الميلاد، أعلن نفسه "الملك العظيم، الملك الجبار، ملك الكون، ملك آشور، ملك الأركان الأربعة (للعالم)...".

سرعان ما مزقت اثنتان من حملاته سلام الأهوار ـ فقد أشعل حروبه عبر الشرقين الأوسط والأدنى من مصر إلى جنوب الدولة الفارسية. في حملته الأولى في عام ٧٠٣ قبل الميلاد، وهو القائل: "أنقضُّ مثل الأسد، وأثور مثل العاصفة". احتل بابل وتقدمت مواكبه إلى الجنوب بمطاردة ساخنة لملكها ماروداً كبالادان. لكن الملك الهارب كان محظوظاً باللجوء إلى الأهوار. فغاص هناك في المقاصب؛ ولأن المعدان هرعوا لنجدته فقد أخفي بأمان.

برغم شعور سنحاريب بالاستياء، فقد سجل في مذكراته "لاحقته ـ أي الملك ـ وأرسلت جنودي إلى وسط مستنقعات الأهوار فبحثوا عنه مدة خمسة أيام، لكن مكان اختفائه لم يعثر عليه".

مع ذلك لم يرجع سنحاريب إلى نينوى فارغ اليدين. فقد أخذ معه ٢٠٨٠٠٠ سجين ومتمرد، وخيلاً، وماشية، وأغناماً. "الكلدانيون والآراميون...

الذين لم يستسلموا لإرادتي، انتزعتهم بعيداً عن أراضيهم، وجعلتهم يحملون السلال وقوالب الطابوق. حصدت قصب الأهوار في بلد الكلدان وجعلت رجال الأعداء، الذين هزمتهم يداي، يجرون قصبهم الجبار (إلى بلاد آشور)".

في حملة لاحقة في عام ٦٩٤ قبل الميلاد هاجم سنحاريب الذي مازال "ينقضّ مثل الأسد..." عيلام، أي جنوب بلاد فارس على الخليج "البحر المر". ولكي يجهز لتلك الحملة، فقد بنى السفن على دجلة في نينوى. وعندما أصبحت جاهزة، تحركت بها كتائبه أسفلَ إلى باب ساليت عند ثغر الفرات.

سجل سنحاريب: "جنودي الشجعان، الذين لا يعرفون الراحة، حملتهم في السفن، وجهزتهم بمؤونة الرحلة، وبالعلف للخيل التي أبحرت معهم. ذهب جنودي أسفل الفرات بالسفن بينما بقيت إلى جانبهم على الأرض اليابسة"، ولكن فيضان الأهوار أوقفه وجنوده في السفن لمدة خمسة أيام، فكتب "سفن جنودي بلغت المستنقعات في ثغر النهر، حيث يفرغ الفرات مياهه في البحر الرهيب".

بعد الآشوريين جاء الكلدانيون ثم الميديون الذين حطموا الامبراطورية الآشورية. بعدها جاء البابليون ـ الجدد الذين هزم ملكهم نبوخذ نصر الجيش المصري المعتدي في العام ٦٠٥ قبل الميلاد، ولكن بحلول عام ٥٣٩ قبل الميلاد كانت بابل انهارت تقريباً، فاحتلها الفارسي العظيم كورش، وبعده اليونانيون. كما مرّ الاسكندر المقدوني في جنوب بلاد ما بين النهرين، في طريق عودته من الهند إلى المدائن، وتوفي هناك على نهر دجلة، لربما بسبب حمى أصيب بها من المستنقعات. وكان قائده البحري نيركوس قد أنشأ ميناءً قرب البصرة (لم يكن موجوداً حتى ذلك الحين) ليس ببعيد عن مدينة خرم شهر الحديثة، وقد سمي في فترات متباينة بالاسكندرية أو انتيوك أو سبازينا وكاراكس، ومرت عبره بضائع كثيرة من الهند إلى العربيا، ولكن لم يتبق منه اليوم أي أثر.

الحدث المميز، بل أكثر الأحداث درامية في تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط وليس في الأهوار فقط، كان مجيء الإسلام. فحتى ذلك الوقت كانت هجرات القبائل المتتابعة من صحراء العربيا، بغض النظر عن ديانتهم سواء كانت مسيحية بيزنطية أم وثنية، قد ضمنت كون سكان جنوب العراق جزءاً من العراق العربي.

في العام ٦٣٤ ميلادي، بعد سنتين من وفاة الرسول محمد في المدينة، ظهر القائد الشجاع خالد بن الوليد الملقب بصدق "سيف الله المسلول" على ضفاف دلتا

الفرات مع قوة تعدادها ١٨٠٠٠ رجل من رجال القبائل العرب. كان نابليون عصره، وقد هاجم واحات العراق بعد حملات ناجحة في شمال ووسط العربيا. لم ير جنود خالد، الداخلون تواً في الإسلام، حتى ذلك الوقت غير الجبال والصحارى. فوقعت العيون المندهشة لعرب البراري الزهاد أولئك على ما يمثل لهم نوعاً من أنواع الفردوس، فلم يشهدوا من قبل قط مثل هذه القنوات والخضرة وحقول القمح المتموجة أو هذه المياه، وهم بعد كل شيء على وشك الدخول إلى مهد جديد للحضارة والفنون لأنها، وكانت آنذاك مقاطعة فارسية تحكم بواسطة دهاقنة أي حكام مقاطعات فرس، قد كانت كذلك فعلاً.

طغت الحضارة الجديدة على المجد القديم. فلم يتبق آنذاك من أور وبابل ونمرود ونينوى الآشورية شيء سوى رواب مشوهة. بل حتى تلك القوة الجديدة، التي كانت تبدو راسخة ـ امبراطورية الساسانيين الفارسية. جردت من مكاسبها المشروعة.

في البدء شتت الجنود العرب، ذوو العيون المندهشة، الجيش الفارسي، المبهرج بالأمراء والنبلاء، عند عيون حفير على حافة الصحراء. وقد قيل إن الجنود الفرس كانوا موثقين بالسلاسل إلى بعضهم لمنعهم من الهرب، ولهذا سميت المعركة باسم "معركة ذات السلاسل". بعد ذلك بوقت قليل انطلق جنود خالد بن الوليد بخيولهم إلى الفرات. وسرعان ما اجتازوه إلى أطراف المقاصب. فأنذرهم خالد ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية، فإن دفعوا الجزية فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وإذا رفضوا كلا الخيارين فالحرب.

نجح إنذار خالد، ولم يجر التعرض لسكان الأهوار وحرفييها، وبقيت أراضيهم ملكهم. أما القبائل المسيحية في المنطقة فوافقت على دفع الجزية وسمح لهم بالبقاء على ديانتهم من دون تدخل. تعرض جيش المسلمين لاحقاً، على أية حال، إلى نكسة. ففي تشرين الثاني من عام ٦٣٤ حشد البطل الفارسي رستم، الزعيم الشجاع والنشيط لامبراطورية فاسدة آيلة للسقوط، قواه، وتقدم عبر (نهر) الغراف (فرع من فروع دجلة يجري غرباً باتجاه الفرات ـ المترجم) مع فيلة "معززة بالجنود كأنها قلاع متحركة". نشر راياته الامبراطورية المصنوعة من جلد الفهود، وهزم، بل أباد، الجيش العربي بالقرب من الحيرة غربي الفرات.

لكن الفرس هزموا كذلك. فقد حشد المسلمون جيوشهم وهزموهم في معركة

بويب عام ٦٣٥ ميلادية. أما رستم فقد قتل بعد ذلك بوقت قصير في معركة القادسية ودمر جيشه نهائياً. في ذلك الوقت أمر الخليفة (عمر بن الخطاب) بانشاء مدينتين في جنوب العراق هما البصرة والكوفة. أصبحت كل منهما قاعدة عسكرية. بنيت بيوت المدينتين أولاً من القصب. وكانت المساجد في كلتيهما من القصب والطين ثم من اللبن. توسعت المدينتان بسرعة إلى مركزين كبيرين للعالم الإسلامي. فالبصرة أضحت ميناءً مكتظاً للتجارة في منتصف المسافة بين العالمين الشرقي والغربي.

رحب السكان المحليون بالجنود العرب. فقبائل ما بين النهرين كانت مسيحية على الغالب وتساء معاملتهم على أيدي الفرس الزرادشتيين. وكانوا يشعرون أن الفرس غرباء عنهم، فتعززت وشائجهم، المتينة أصلاً، مع عرب الصحراء في أعقاب النصر. كما نزحت، بلهفة، قبائل عديدة من الصحراء إلى وادي الرافدين الخصب. قابل هؤلاء العرب الأنقياء، مربو الجمال من شبه الجزيرة العربية، رجال الأهوار في الأسواق وفي الحقول المجاورة للأنهار والبحيرات. فتعلموا منهم خصالهم، زاوجوهم، وأعطوهم بالمقابل عقيدتهم: الإسلام.

أصبحت البصرة والكوفة والمناطق المحيطة بهما مسرحاً للمشكلات مرة أخرى أثناء خلافة الخليفة الرابع علي الذي نقل عاصمته، بعد تسلمه الخلافة، من المدينة إلى الكوفة. ورغم كونه ابن عم الرسول وزوج ابنته، إلا أن العديد من الناس رفضوا مبايعته وبينهم زوجة الرسول المفضلة عائشة، إضافة إلى الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وهما من أصحاب الرسول. شكّل هؤلاء الثلاثة جيشاً من قبائل البصرة أجبر علياً على خوض معركة، على الرغم من كونه رجلاً متسامحاً حاول تجنب الخلاف. وهكذا بدأت "معركة الجمل" بين جيش علي وجيش مناوئيه في كانون الأول من عام ٦٥٦ ميلادية. كانت عائشة الرهيبة نقطة التحشيد حيث جلست بشكل جلي في هودجها على الجمل (ومن هنا جاءت تسمية المعركة) الذي سرعان ما امتلأ بالنبال. لقد كان أمراً تراجيدياً. فالقتال ضار حيث قاتل بنو ربيعة الكوفة ضد بني ربيعة البصرة. وانقسمت بشكل مماثل القبائل الأخرى.

كان لقاء الجيشين يحدث هديراً رهيباً. ولكن طلحة والزبير قتلا بحلول المساء. وأنزل علي عائشة وهي تصرخ من على جملها المصاب، وأرسلها باحترام على إلى مسكنها في المدينة. كان علي سمح التفكير وقد بقي لعدة أيام أخرى في

البصرة لدفن العدد الكبير من القتلى. سميت إحدى المدن الصغيرة باسم الزبير وهي ما تزال قائمة لليوم بين بساتين السنط خارج البصرة. بعد ذلك القتال الأول من نوعه بين المسلمين لابد من أن سكان الأهوار قد عادوا إلى بيوتهم أكثر وعياً.

استمر خلاف علي مع مناوئيه الأمويين في سوريا على الخلافة (تمكن مقارنته مع الانشقاق بين البروتستانت والكاثوليك) حتى عام ٦٦١ ميلادية، بعد ذلك اغتيل هذا الرجل النبيل والباسل وهو في طريقه إلى مسجد الكوفة ودفن في النجف القريبة فأصبح مرقده مزاراً مقدساً للمسلمين الشيعة.

جسد علي للمسلمين، بل لعموم العرب الفروسية والشهامة والنموذج الذي كتب عنه دواوين الشعر والقصص والحكم. الشيء نفسه ولكن بدرجة أقل، في ما يخص ابنه الشهيد الحسين الذي سار إلى الكوفة مع مجموعة محزنة من ٢٠٠ شخص من أتباعه ليطالب بخلافة أبيه القتيل من والي العراق الأموي، فحوصر في كربلاء بقوة أكبر بكثير وهزم وقتل في اليوم العاشر من محرم سنة ٦١ هجرية (١٠ أوكتوبر ٦٨٠ ميلادية). العباس: وهو ابن آخر لعلي، فقد ذراعيه ثم قتل حينما حاول أن يجلب الماء لأنصار أخيه المحاصرين. وبالنسبة إلى عرب الأهوار اليوم فإن القسم باسم العباس هو أكثر قسم ملزم. فحين تسمع شخصاً يصرخ:بالعباس. في مضيف قصبي مزدحم فستشاهد الآخرين يوافقون ـ بإيماءة من رؤوسهم ـ كأنهم يقولون: "حسناً، ذلك صدق إذن".

المسبحة العربية لا تزال مستعملة إما للتسلية أو للحصول على الهداية الإلهية بالطريقة التالية: اعزل جزءاً من المسبحة ثم سم خرزها من اليسار إلى اليمين: "الله، محمد، علي، الحسين، أبو جهل". فإذ حصل أن الخرزة الأخيرة وقعت مع أحد الأسماء الأربعة الأولى فذلك يعني أن كل شيء على ما يرام ويمكنك تنفيذ خطتك. أما إذا وردت مع اسم أبي جهل، وهو من معاصري الرسول ولكنه كان عدواً للإسلام؛ فعليك إلغاؤها. لقد قمنا أنا وثسيغر بتعليمهم نظاماً آخر سرعان ما أصبح يتردد في الأهوار على ألسنة الفتية:

EANY, MEANY, MINEY, MO! CATCH A NIGGER BY HIS TOE

IF HE SQUEELS LTE HIM GO.. O-U-T SPELLS OUT SO

إن سكان الأهوار كلهم من (المسلمين) الشيعة، على الرغم من أن البعض منهم لا يصلي بانتظام، والبعض الآخر، الأصغر سناً، لا يصلي بتاتاً هذه الأيام. المدن المقدسة ككربلاء، حيث مرقد الحسين، والنجف هي: أماكن ذات مكانة دينية خاصة للمؤمنين ومن يزورها يسمى "زاير". تمكنك مشاهدة "المهيلات" (زوارق بخارية كبيرة) في أعلى الفرات تحمل جنائز المؤمنين، ومنهم عرب الأهوار، إلى أماكن السكون المقدسة تلك.

برهنت تلك الأحداث التاريخية الحاسمة والمثيرة على أنها ذات تأثير مدمر على الاقتصاد الزراعي الذي يعتمد عليه العراق. فقصة بلاد ما بين النهرين، بعد كل شيء، هي قصة الري. فالمهارات المبكرة للسومريين في استصلاح الأراضي كانت محط إعجاب خبراء الري منذ القدم. سدودهم التي طوقت مساحات شاسعة مكنتهم من بناء خمس مدن وقرى مزدهرة تحت مستوى سطح البحر. كانت المساحات المطوقة المستصلحة تروى عن طريق فتحات في جدران السدود. لكن هذه الأعمال البارعة خربت فيما بعد. في القرن الخامس الميلادي كانت هناك فترات عديدة للاضطراب السياسي والاهمال الاداري، فغرقت المدن والحقول بسبب انهيار السدود غير المصونة، ثم إن سوء الإدارة أحبط محاولات الاستصلاح اللاحقة. إن تحطم واحد من أكثر أنظمة السيطرة المائية براعة في حياة الإنسان؛ تعزز أكثر بعد فشل محاولات الملك الساساني غير المحظوظ في القرن السابع الميلادي. فهو قد حشد طاقات كل رجل قادر في محاولة إنقاذ يائسة، بل نفذ حكم الإعدام علنياً - عن طريق الصلب - بأربعين من خبراء بناء السدود الذين، بشكل ما، لم يتمكنوا من رأب صدع مهلك في احدها. غير أن جهوده باءت بالفشل.

في هذا الأفول الكئيب، مثّل العصر الذهبي للخلافة العباسية في زمن هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م) في بغداد مجرد فسحة للتنفس. فهذا الحاكم العربي العظيم، المعاصر المتألق لشارلمان(١) أشرف على برنامج حيوي لإعادة إصلاح السدود والقنوات في الجزء السفلي لدجلة والفرات. وقد اضطر السير وليام ولكوكس على الموافقة، بعد ألف ومائة عام، مع هارون الرشيد على أن أفضل طريقة حتى

الآن، لإعادة ارواء تلك المساحات هي بإعادة حفر وفتح القنوات التي انشأها البابليون. هذا بالذات ما حاول ولاة هارون الرشيد عمله بدلاً من المباشرة بتنفيذ برنامج جديد. وقد كانت النتائج طيبة فجاءت فترة أخرى من الثراء الزراعي، وازدهرت عبر الأراضي زراعة الشعير والقمح والرز والتمر والسمسم والسكر. لكنها لم تعمر طويلاً. فبعد هارون الرشيد وولده المأمون بدأ الانحدار علَى طول الخط. وبحلول عام ١٠٠٠ ميلادي كان جبروت وعظمة امبراطورية هارون الرشيد قد اختصر إلى مجرد ولاية ذات حكم ضعيف وفاسد. فقد خمدت الخلافة في بغداد إلى الأبد في عام ١٢٥٨ م باجتياح هولاكو، حفيد جنكيزخان، وجماعته من الجنود المنغوليين بخيولهم الخشنة، ودمر: "المدينة المقدسة التي لا تضاهى".

لقد صنع هولاكو هرماً مروعاً من جماجم علماء بغداد وشعرائهم وفقهائهم، وحولها إلى ولاية خاضعة لسيطرة الحكام المغول في إيران. ودمر هولاكو عن عمد نظام الري الممتاز ـ شبكة السدود المثالية التي استطاع بواسطتها هارون الرشيد استصلاح أراضي الأهوار ـ واستكملت جيوش تيمورلنك تدميرها في العام ١٤٠١ ميلادية. تفسخت الولاية ذات الجنائن، أغنى الولايات في زمن الخلافة العباسية، إلى منطقة غرقى بالمياه لقبائل رعوية ذات عدد متضائل من السكان في عدة مدن. فردوس مفقود. لكنه يجب أن يسترد. أخذت مياه دجلة، منذ ذلك التاريخ، تفيض دون عوائق إلى الجانبين الشرقي والغربي إلى الأسفل من (مدينة) الكوت وعلى جانبي العمارة (أو ما سيصبح فيما بعد مدينة العمارة). أما الفرات فيسفح مياهه جنوباً باتجاه البحر بدءاً من سوق الشيوخ. وقد خلقت مياه الفيضانات تلك أهواراً دائمة جديدة.

ارتفع عدد سكان الأهوار، أثناء ذلك، من موجات اللاجئين العرب الهاربين من مذابح المغول. وقد انضم إلى المعدان، من دون شك، بعض من تبقى على قيد الحياة من انتفاضة العبيد الكبرى، في منطقة البصرة، ضد خليفة بغداد في القرن التاسع الميلادي، فقائدها علي بن محمد جعل مقره في الأهوار، ومن ملجأ في أحواض القصب قاد حرب العصابات على شكل كمائن وغارات ليلية، وتمكن حقيقة من السيطرة على البصرة من قبل أن يلقى القبض عليه ويقتل بعد ذلك بأربعة عشر عاماً. وقد أرسل قائد الخليفة رأسه إلى بغداد وتمت بعثرة جيشه الثوري تماماً. فكم من هارب وجد في الأهوار ملتجأً آمناً؟ بعضهم بالتأكيد.

بعد كارثة الاجتياح المغولي الشهيرة أصبح تاريخ العراق أسير الصراع الفارسي - التركي. لم تقلق تفاصيل ذلك الصراع عرب الأهوار مباشرة. من المعروف أن الحاكم العربي في البصرة كان يدفع ضرائب سنوية للشاه في فترات للسيطرة الفارسية. وعندما سقطت بغداد للسلطان التركي سليمان الكبير في العام ١٥٣٣م: خضعت له بسرعة عشائر أهوار البصرة والحويزة والأهوار الوسطى. لكن ذلك لم يعن أنها أذعنت ذليلة للباشا التركي في بغداد بعد ذلك التأريخ. على العكس فقد بقيت العشائر عدائية جداً. فمثلاً، اضطرت تركيا لتجهيز حملة عسكرية كبيرة (ساهمت فيها ٣٠٠ باخرة) لمواجهتهم في البصرة في عام ١٥٤٦, وقد لوحقت العشائر بعد المعركة قرب الجبايش حتى أطراف البردي. مع ذلك أعادوا الكرة في العام ١٥٤٩, حينذاك هزمهم علي باشا تمارود قائد الانكشاريين، وهم أفضل جنود السلطان، عند نهر الفرات. لكن المعدان الذين لا يعرفون الهزيمة استمروا بتهديد أطراف البصرة.

بحلول عام ١٥٠٠م كانت التقاليد العربية هي السائدة في العراق. فقد سادت اللغة والثقافة العربيتان المتأصلتان في الإسلام. من الموصل حتى البصرة. في الجنوب ,وفيما عدا البصرة، كانت النواحي الرئيسية هي الدير (على شط العرب) ونهر العنتر والمنصورية وكوت المعامر. ولم تكن المدن الحديثة كالعمارة وكوت العمارة والناصرية موجودة قبل القرن التاسع عشر. أصدر السلطان التركي مرسوماً بجعل البصرة ولاية تابعة لباشا في بغداد. أما والي الحويزة فقد حكم القبائل العربية في عربستان - وأبرزها قبيلة بني كعب - التي اعتادت على زراعة الرز وتربية الجواميس في الأهوار والبراري المنتشرة عبر الحدود الحالية بين العراق وإيران إلى الشرق من القرنة وشط العرب باتجاه الأهواز.

حلت في الثلاثمائة سنة أو أكثر اللاحقة، أوقات أقل ما يقال عنها أنها مضطربة. فالبصرة بقيت وكراً للمتاعب بالنسبة إلى الحكام العثمانيين على الرغم من الحملات العسكرية التأديبية المتعاقبة المرسلة من بغداد. لم تنفع كل الوسائل التي اتبعها الباشوات للقضاء على المشاغبين العرب - لا ضربات كتائب الانكشاريين ولا الغرامات والسجون - فلا الجيوش ولا العقوبات القاسية لها تأثير دائم. في الواقع، أصبح العداء العربي - في القرن السابع عشر - من الكثافة بحيث أن الباشا التركي في البصرة لم يستطع المقاومة أكثر ففر متنازلاً عن السلطة (مقابل مبلغ من المال) إلى قائد عربي لا يعرف الشيء الكثير عنه يسمى أفراسياب (١). لكن ابنه

الشجاع، علي باشا صد، بمساعدة البحرية البرتغالية، الاجتياح الفارسي على القرنة في العام ١٦٢٤م. كان علي باشا عموماً في منتهى التهذيب ونموذجاً للنبل العشائري. قورنت محكمته في البصرة من قبل بعض الناس بمحكمة هارون الرشيد نفسه. وازدهرت الفنون، وأصبحت الحكومة أكثر إنسانية وليبرالية في دولته الواقعة ضمن الدولة التركية. وحتى عرب الأهوار تمت ترضيتهم لبعض الوقت. لكن لبعض الوقت فقط. فحسين باشا الذي أعقب عليّا، وهو رجل تعوزه اللياقة، لم يعد متسامحاً مع المعدان كما كان متوقعاً، وفرض ضريبة على الجواميس. ولذا حين حاصره أخيراً جيش السلطان في القرنة، وجد أن حلفاءه أبناء العشائر يتلاشون في غابات البردي.

أصبحت قبائل جنوب العراق الموحدة قوة يحسب لها حساب. فقد تشكلت اتحادات قبلية قوية. فشكّل حفّاظ ـ حفيد أحد أفخاذ بني لام ـ اتحاد بني لام الكبير في المساحة التي تقع وسط وأسفل دجلة؛ نتيجة للنزاع مع الحاكم الأعلى لمنطقة الحويزة. كما تشكلت في القرن السابع عشر أيضاً تجمعات البو محمد إلى الجنوب ـ الشرقي والجنوب الغربي من مدينة العمارة الحالية، والتي ستدخل في نزاع مع بني لام امتد لقرون. لقد كتب رحالة المنطقة العربية الشهير في القرن الثامن عشر، كارستن نيبور عن قبيلة بني لام قائلاً: "قبيلة عظيمة... يستوفون رسوماً على البضائع التي تُنقل بين بغداد والبصرة. هؤلاء العرب يسلبون القوافل أحياناً. يرسل باشا بغداد آنذاك قواته ضدهم، وأحياناً يعاقبهم بقطع رؤوس شيوخهم، ولكن ورثة الشيوخ المقتولين يكونون دائماً أشد عداءً للأتراك وأكثر تحمساً للحفاظ على حريتهم كما كان أسلافهم".

أكثر الاتحادات قوة كانت تلك التي أنشئت في الفرات الأدنى. فبعد مدة طويلة من القتال والثأر، اتحدت القبائل الرئيسية ـ بني مالك، آل جواد، وبني سعيد ـ في المنطقة بين السماوة وهور الحمار، وذلك تحت قيادة آل شبيب. أصبحت تلك الاتحادات مشهورة حتى خارج العراق، كما هو الحال مع المنتفك في حوالي العام ١٧٧٠م. يشير نيبور إلى أن شيخهم الأكبر كان مقيماً في نهر العنتر قرب القرنة، ويحكى أنهم هيمنوا على عدد كبير من القبائل التابعة، وبضمنها "رعاة الجاموس". ولاحظ أن "الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات تتشابك فيها أعداد كبيرة من القنوات وتسكنها قبائل تمارس الزراعة يسمون المعدان".

وعن الناس البسطاء، يقول نيبور: "إنهم فقراء، كما يتوقع أن يكون عليه أتباع أولئك الشيوخ، الذين يعيشون في بحبوحة ولكنهم غير ميالين لتعذيب فلاحيهم كي يغتنوا أكثر" (الرجل الذي كتب هذا لم يكن ليبرالياً سابقاً لأوانه، بل هو ابن ضابط دانيماركي صغير). مع ذلك، وبالرغم من كونهم فقراء كان بإمكانهم القتال. ففي العام ١٧٧٥، بعد ثلاث سنوات من نشر كتاب نيبور، تمت مقاومة هجوم فارسي شامل على البصرة بواسطة مزيج من المدافعين - فالأتراك والأرمن ورهبان الكرملية قاتلوا جنباً إلى جنب مع الانكشاريين والعبيد، وأخيراً وليس آخراً في الأهمية الحربية، عرب الأهوار. فجلب شيخ المنتفك ثامر السعدون مقاتليه إلى البصرة المحاصرة، فيما احتل الزبير أخوه عبد الله. ولكن بعد مرور ثلاث سنوات أوقعت قبائل المنتفك هزيمة مدمرة بقوة فارسية غازية مؤلفة من ١٢٠٠٠ رجل من المشاة والفرسان. فقد خدع ثامر، شيخ المنتفك، الفرس بعد أن استدرجهم إلى مكيدة قرب السماوة، وعندما غطسوا في الأهوار هجم عليهم برجاله وقتلهم بالمئات. وقيل إن ثلاثة فقط من الفرس نجوا بحياتهم ووصلوا البصرة، فيما بقيت عظام القتلى شاهدة على مكان المعركة لجيل كامل. يضيف نيبور إلى ذلك: "تستقي القبائل أسماءها من شخص منتفكي جاء من الحجاز، ينحدر من عائلة شريفة منذ ما قبل الرسول محمد، شيء واحد بحكم المؤكد هو أن المنحدرين من المنتفكي هذا كانوا غرباء (مقيمين) في هذا البلد من تاريخ ممعن في القدم". (هناك على أية حال شك معتبر حول مصدر كلمة المنتفك - برغم آراء نيبور المثيرة للإعجاب - وهي تلفظ محلياً "منتفج". فالبعض يعتقد أنها مشتقة من الكلمة العربية "اتفاق").

يعلق نيبور كذلك على قبيلتين واقعتين إلى الشرق من الفرات. شيخ إحداهما يسمى فونتل (1) FONTIL، وشيخ الأخرى يسمى حمود: "كان بإمكانهما تحشيد ٢٠٠٠ فارس وعدد مناسب من المشاة. كان باشا بغداد قد حارب في وقت متأخر هؤلاء الناس بنجاح متعثر... تلك القبائل المنحدرة من عرق عربي صاف، تعيش على لحوم المواشي والجواميس وبعض إنتاج الأراضي المحروثة... ويسمون معدان".

في ضوء معرفتنا بالتطورالسياسي للعراق، يكون من الممتع الآن أن نقرأ ما كتبه نيبور في عام ١٧٧٠م وجاء فيه: "الحروب العديدة بين عدة قبائل من جهة وباشا بغداد من جهة أخرى وبالرغم من أن الضباط العثمانيين يعتبرونها تمرداً، كانت

دلالة على استقلال العرب".

أطفال القصب المغمورون قد كبروا. ألم يكونوا أساساً غير صيادي سمك مسالمين من سومر، ثم حماة للاجئين من "ملك الكون" الآشوري، وخيالة المغول؟. فيما بعد وجد شاهات (٢) وخانات (٣) الفرس الغزاة نوعاً آخر من السكان. قرونٌ طويلة من التعامل مع وافدين مكروهين ـ جنود أجانب، جباة ضرائب، سارقي ماشية، معاوني حكام قساة ـ ولدت لديهم شكوكاً ضد الزوار. وقد أصبحوا، كما اكتشفت ذلك فيما بعد، بارعين في إخفاء مشاعرهم الحقيقية. لقد لاحظتهم يتحدثون مع ممثلي "الحكومة" الرسميين بأدب شديد ووجوه جامدة ويقظة كوجوه لاعبي البوكر.

لكن تغييراً آخر قد طرأ. فقد تغير المعدان نتيجة الغرس المستمر لدماء القبائل العربية الحارة منذ أيام خالد بن الوليد والخليفة علي بن أبي طالب ومن تلاهما؛ وعلى الرغم من أنهم استمروا بصيد السمك وتربية الجواميس وزراعة الرز، لكنهم أصبحوا مقاتلين أيضاً. وتعلم الباشوات أيضاً التفكير ملياً قبل أن يرسلوا الجيوش المكلفة بترويضهم. أصبح سكان الأهوار عرب الأهوار بالروحية المتوثبة لأقاربهم عرب الصحارى. وهم يسمون الرجل الشجاع: سبع (١)، ويسمون الناس الماكرين: مثل الفيران (٢) يعيشون على دهائهم تحت الأرض بهدوء وحذر. لهذا (فالشخص) المثالي عند المعدان هو نصف ـ أسد ونصف ـ فأر، مخلوق غريب، ولكن لا يمكن الإيقاع به بسهولة في بيئته الخاصة.

الأوربيون الأوائل

لم يكن عرب الأهوار معروفين حتى بدايات بالخمسينيات بالرغم من أن الأجانب، وبضمنهم الأوربيون ,ولعدة قرون كانوا يمرون بجانب وخلال أحواض القصب. مع ذلك فقد التقطوا بعض ملامح متخيلة لسكان الأهوار وفتنوا بهم. لكنهم غالباً ما كانوا يسافرون مشياً على الأقدام أو يركبون الخيل إلى أماكن محددة قد يتطلب الوصول إليها شهوراً، ولم يكن لديهم وقت كافٍ للتجوال. وعلى أية حال، كان يعتقد أنه من الأفضل تجنب التسكع هكذا بين سكان غرباء وفي أماكن بعيدة. مع ذلك فقد تحمل بعضهم مشقة كتابة انطباعاتهم عن مناطق البصرة والأهوار. يرجع تاريخ أقدم كتب الرحلات "الحديثة" تلك إلى القرن السابع عشر، وهذا هو عذري للقفز عند هذه النقطة، إلى الرجل الذي كتب عن بلاد الرافدين بمائتي عام قبل نيبور. فهو وكالعديد من الرحالة، أمضى بعض الوقت في البصرة وحواليها - فالبصرة ومحيطها يكملان بعضهما - ، لذلك سأضمّن ملاحظاته عن البصرة أيضاً. لقد كتب وكان حينها متضايقاً من البعوض، وواقفاً وجهاً لوجه مع عربي من الأهوار: "نظراً لكوني مرتاباً من بعض العرب المعدان، المتشردين الجوالين (كانوا يسمون هكذا لأنهم يسكنون مع قطعان الجواميس)... فقد ابتعدنا عنها حوالي الميل لأسباب أمنية". هذا ما كتبه النبيل الإيطالي الجريء لكن الحذر بييترو ديلافاله في العام , ١٦٢٥ بذلك انتقلت إلى العالم الأوروبي، وربما للمرة الأولى، كلمة "المعيدي" وهي صفة مشتقة من "المعدان". سافر ديلافاله إلى أماكن أبعد في الشرق، وفي طريقه المضطرب من البصرة إلى حلب كان أمضى ليلة تحت النجوم على حافة الأهوار فكتب في يومياته: "كانت ليلة غير هادئة. أوينا إلى مكان فيه عدد هائل من البعوض منعنا من النوم". وقبل ذلك كتب عن "بحيرات جافة وأراض مغطاة

بالخيزران والحقول الخضراء وأنواع مختلفة من القصب". لقد اشتكى كذلك من مرارة المياه هناك. مع ذلك فمكافأته كانت بالمناظر الممتعة حيث: "البحيرة الكلدانية إلى اليمين... شاهدت وفرة من أصداف البحر الملقاة على الأرض تلمع كأنها اللؤلؤ بعضها تام وبعضها الآخر مكسر. دهشت كيف تسنى لها أن تأتي من البحر. رأيت كذلك قطعاً من القار مرمية عاليها سافلها، وهي منتجة من تلك التربة المالحة التي تغمرها المياه لمدة طويلة من السنة، واحتفظ الآن ببعضها". لقد التقط كذلك بعض الأختام وقطعاً سوداً من الرخام عليها كتابة مسمارية.

في فيض جديد من أدب الرحلات فتح رجال القرن السابع عشر، مثل ديلافاله، أبواباً على الشرق الأدنى كانت مغلقة طويلاً. فالنهضة الأوروبية واكتشاف الأمريكتين دفعت أماكن، كبلاد الرافدين مثلاً، بعيداً عن العقول الغربية. وإذا ما ذكر "الشرق" أمام سكان باريس ولندن وروما ومدريد، فإن تفكيرهم سينأى إلى الهند التي اكتشفها فاسكو دي جاما ودياز في رحلتهما البحرية المثيرة. أما حديثاً فقد أصبحت الرحلات البرية مثل الموضة. وهي أكثر مشقة ومتعة من الرحلات البحرية. ونشرت تجارب لرحلات بعيدة عن حدود التصور تقريباً من حيث الجرأة، من قبل ضباط وتجار وعلماء ومغامرين عاديين ممن فضلوا أو أجبرتهم الظروف على تتبع الطريق البرية في طريق العودة إلى أوطانهم من الشرق الأقصى. فالمسافة طويلة وخادعة. ولكي تسافر غرباً من الهند فأنت ملزم، إلا إذا عملت انحرافاً طويلاً خلال جبال كردستان، بالمرور بمدينة البصرة ثم إلى أعلى الفرات أو دجلة وعبر سوريا إلى البحر المتوسط. عليك أن تأخذ أدلاء عرباً وحراساً وحمالين من البصرة وبالطبع كمية كبيرة من النقود وتلتحق بقافلة من الجمال (لأسباب أمنية)، وإذا ما سار كل شيء على ما يرام فستصل حلب بسبعة أيام.

يكون من المنطقي أن تمضي بعض الوقت في البصرة. فالأدلاء والحراس يجب أن يؤجروا من هناك ومن المفيد قضاء بعض الوقت لاختبار مصداقيتهم. فقد عرف عن بعضهم إفشاء أخبار وصولك الوشيك إلى قطاع الطرق ممن لهم علاقة بهم، لتنظيم كمين لمهاجمتك في الصحراء. ولذلك فمن الأفضل التريث حتى يتم تجهيز قافلة ما ثم الرحيل معها.

لقد وجد ديلافاله البصرة كبيرة ومزدهرة لكنها رديئة التصميم وكتب: "سكانها من العرب مع خليط من الأتراك... كان هناك بعض الصابئة أيضاً ـ سماهم

خطأً مسيحي يحيى المعمدان ـ الذين يتكلمون كلدانية خشنة إلى جانب العربية التي كانت لغة العامة، وتسمى اللغة المندائية". لقد أعجب بنضارة النخيل والحقول المزروعة والبيوت الضخمة والحدائق الجميلة على القنوات. كما شاهد "بواخر البرتغاليين" راسية في شط العرب، وهي التي جاءت لمساعدة باشا البصرة لصد هجوم الغزاة الفرس بقيادة خان شيراز، في الوقت الذي كان يتقدم فيه الفرس من هور الحويزة لاحتلال القرنة. فقد أرسل القائد البحري البرتغالي كونزالفو دي سيلفيرو ثلاث سفن حربية إلى القرنة للمساعدة بطرد الفرس مقابل دفوعات مالية كبيرة. وبسبب ذلك ومع توارد أخبار الشقاقات الداخلية ألغى الخان الفارسي حملته في اللحظات الحرجة. إثر ذلك سير الباشا رجاله وأعلامه الخفاقة وأبواقه المزمجزة في البصرة احتفاءً بالانتصار.

كانت البصرة مدينة السندباد البحري في حكايات ألف ليلة وليلة: "مدينة التجارة الكبرى للتوابل والعقاقير" كما كتب رالف فيتش في العام ١٥٨٣. أما النبيل الفرنسي تافيرنييه، الذي قام بسلسلة من الزيارات للمنطقة منذ العام ١٦٣٨، فقد وصف الأشياء بدقة أكبر: "كان أمير البصرة مدخراً جيداً قادراً على توفير ثلاثة ملايين ليرة في العام. يأتي مدخوله أساساً من التجارة بالخيل والأموال والجمال وبالأخص بالتمر... كان البصرة ولمدة طويلة مدينة صغيرة، لكنها متجر متألق على طريق التجارة شرق ـ غرب... فيها الكثير من الحرية والتنظيم... يمكنك التجول في شوارعها طوال الليل دون إزعاج. في كل عام يجلب الهولنديون التوابل، ويحمل الإنكليز الفلفل والثوم، والهنود يجلبون الأقمشة والأصباغ والبضائع المختلفة، أما البرتغاليون فلم يتعاطوا التجارة. باختصار يأتي إلى هناك تجار من القسطنطينية وحلب ودمشق والقاهرة والأجزاء الأخرى من تركيا لشراء البضائع القادمة من الهند، فيحملون بها الجمال التي يبتاعونها من المكان نفسه، حيث يبيعها العرب القادمون من الموصل وبغداد وأرض الجزيرة وبلاد آشور. ترسل البضائع عادة بصعوبة وبكلفة أكبر خلال نهر دجلة".

تشير الفقرة السابقة، ضمنا، إلى أن الهولنديين والبريطانيين (من شركة الهند الشرقية) تمكنوا عملياً آنذاك من الحلول محل البرتغاليين في السيادة على الخليج، واستمر الأمر كذلك لمدة قرن كامل إلى أن أصبحوا مكروهين بسبب قسوتهم وجشعهم. أما "المشكلة العظمى والمصاريف" المشار إليها فهي عادات عشائر أسفل

دجلة والفرات ـ المنتفك وبني لام والبو محمد وكذلك معدان العشائر البعيدة. فرجال العشائر هؤلاء، ذوو اللحى الكثة بغرابة، كانوا يظهرون فجأة للمطالبة برسوم عالية ثمناً للعبور خلال مناطقهم. أحياناً يواجه هؤلاء الرجال قوافل التجار العابرين بحزم ولكن بدهاء، وفي أحيان أخرى ينفد صبرهم. فالأمر يعتمد على مزاجهم. لذا قد يجرد التاجر من كل شيء عدا ملابسه الداخلية إن كانوا بمزاج سيء. ولا غرابة في أن تحصل لأي شخص صدمة العمر حين يتعرض على حين غرة لهجوم من الصحراء أو من أحواض القصب، لرجال عشائر مخيفين وعدائيين شاهرين سيوفهم وفالاتهم. لذلك، وكما قلت، فمن المناسب قضاء عدة أيام في في البصرة ـ هذا على افتراض أن كل شيء على ما يرام هناك ـ لتجهيز الرحلة.

لم يكن الوضع في البصرة حسناً على الدوام. فالمدينة كانت عرضة للفيضان والطاعون والغزو على فترات منتظمة حتى القرن العشرين. كانت الجيوش الفارسية الغازية تهاجم من شيراز لاحتلال الميناء الكبير وطرد الباشوات الأتراك. الباشوات الذين تعاقبوا على بغداد أرسلوا بدورهم جيوش الانكشاريين فطاردوا الفرس عبر عربستان. لقد سالت دماء غزيرة من جميع الأطراف. المدينة بالذات، وبغض النظر عمن كان يحكمها، كانت تبعث روائح كريهة في وسطها نتيجة لنقص التجهيزات الصحية. كانت أسواقها محفوفة بالمخاطر. مع ذلك فإن لها جمالاً مميزاً كان يطغى على تلك العوائق، وقد تغني بها الزوار في الكتاب بعد لآخر. في العام١٧٩٧ كتب جون جاكسون، الذي توقف فيها وهو في طريقه من الهند إلى لندن: "كانت البصرة كبيرة وكثيفة السكان... أسواق بطول ميلين، المنتجات الأوروبية نادرة وغالية (يفضل الناس المنتجات البريطانية على غيرها)... فيها كنيسة كاثوليكية لم يكن أتباعها مضطهدين". وأضاف: "ذهبت مجموعة منا للصيد... وجدنا إلى جانب غابات النخيل، كميات هائلة من ثمار الرمان جاهزة للقطاف ومثلها من البرتقال والليمون الذي يطلق روائح عطرة... كنت في قمة البهجة أثناء الرحلة القصيرة تلك، وبالرغم من أنني قمت بزيارة حقول القرفة في سيرلانكا، إلا أن هذا المكان كان أروع. بقعة بهيجة حقاً وسكانها أكثر تحضراً". وليام هيود الملازم في المؤسسة العسكرية الذي وصل البصرة في العام ١٨١٧، بعيد انتشار وباء الطاعون فيها، والذي حذّر لأخذ الحيطة لأن الأجانب غير مرغوب فيهم، كتب إلى عائلته قائلاً: "لم نقابل بأدنى إزعاج أو همجية". كان هيود قد أقام مع بريطاني آخر يدعى دكتور

كولكون COLQUHOUN يملك أربعين إلى خمسين حصاناً عربياً. كتب حين غادر إلى بغداد: "انزلق مركبنا بخفة على سطح النهر مجتازاً بساتين النخيل على الضفتين، حيث يجلس عدد من أثريا أتراك داعرين وهم مستلقون باسترخاء قرب الماء يتمتعون بارتشاف القهوة". كانت مقاهي البصرة كذلك مليئة بالمتسكعين الانكشاريين وهم يدخنون بشراهة.

إذا ما قفزنا مائة عام لفنان بريطاني آخر كان يعمل في البحرية وقد عبر ذات مرة عن شكوكه بالادعاء أن البصرة هي "فينيسيا الشرق" بسبب كثرة قنواتها. بالطبع، كما قال، لا يمكن توقع أن أي بيت في البصرة يمثل مقاماً للسندباد البحري مثل ما يدعي الجميع، إلا أنه اعترف بروعة المكان قائلاً: "لا يمكن للبصرة أن تفخر بعمرانها، لكن جمال طبيعتها يتفوق على أي شيء تكشفه فينسيا. جمال القنوات المحفورة بين الحدائق لا يوصف، صور النخيل الساحرة وهي تنعكس على صفحة المياه كأنها الحلم". كان مفتوناً بالشفق حيث الغموض والرومانس في البيوت القديمة ومشاهد المياه والزوارق التي تشبه الجناديل، فاستحضرها بمخيلته ثم وضعها بشكل تخطيطات رائعة.

بالنسبة إلى الرحالة الأوائل فالطريق المؤقت إلى الشمال كان يأخذ مسارين. الأول يتعرج على السهل المغبر باتجاه مدينة الزبير ومن هناك شمالاً عبر الصحراء إلى الفرات. هذا الطريق سلكه ديلافاله. أما الطريق الآخر فهو يتبع شط العرب إلى القرنة ومن ثم، إما عن طريق نهر دجلة إلى بغداد، وإما أخذ الطريق غرباً إلى سوق الشيوخ فالمساوة فالحلة فبغداد. في القرنة وبحلول عام ١٨٠٠ اعتادت سفينة حرب تركية قديمة، لم تكن تصلح للإبحار، الرسو في دجلة لمنع مراكب التجار من العبور دون دفع رسوم. وكانت تطلق بين الفينة والأخرى بعض الاطلاقات الزائفة لإعطاء انطباع كاذب عن اليقظة.

جميع الرحالة كتبوا عن الجمال الأخاذ لمدينة القرنة. فالعقيد جيسني الذي اشترك بسلسلة البعثات البريطانية لتخطيط مجرى النهرين دجلة والفرات في الأعوام ١٨٣٥ و ١٨٣٦ و ١٨٣٧، أعجب بالتميز الخاص لتمور تلك المنطقة من الفرات الأسفل (على أية حال كان بليني يعتقد أن دجلة وليس الفرات هو "أخصب ما في الشرق"). لقد علق جيسني كذلك على عمق وعرض شط العرب عند التقاء النهرين العظيمين، وقدّر سرعة جريان الماء بين خمس إلى ست عقد (١). كما وصل

إلى القرنة الأسطول البريطاني، الذي كانت بضمنه باخرة مونارتش الشرقية التي تسع لحمولة ٢٠٠٠ طن، مع قوة عسكرية بقيادة الجنرال اوترام لمحاربة الفرس.

سفينة العقيد جيسني ذات المحرك البخاري والتي تنفث البخار من مدخنتها البرجية، والمسماة "الفرات" قطعت مسافة الخمسة والسبعين ميلا من القرنة إلى سوق الشيوخ بسبع ساعات ونصف الساعة في إبحارها عكس التيار. وكتب حينذاك في وصف سوق الشيوخ: "إنها تضم حوالي ١٥٠٠ بيت من اللّبن وما يقرب من ذلك من الخيام، مظللة بأشجار الكروم والتين والرمان وموشاة بورود الجوري البرية".

في عام ١٨٣٤ كتب بيلي فريزر أنه شاهد: "مدينة مسيجة ذات حجم معتبر دمّرها الطاعون الذي أفرغ بغداد من سكانها مؤخراً، ولم يبق على المنتفك..." لقد تجول "بكثرة" في أسواقها، ووجد حوانيتها مليئة "ببضائع مناسبة للعرب أساساً، كالفالات والخناجر والسيوف والدروع والعباءات. كانت هناك وفرة في مواد البقالة والعقاقير وقوالب السكر الأبيض وكميات هائلة من القهوة والتوابل وكذلك البضائع الهندية المألوفة كالسكر الأسمر والتمور والصابون إلخ...". لم يكن فريزر محظوظاً برحلته على الإطلاق وقد كتب: "كان بحثي عن صحن صيني لاستبدال وعاء الشاي المكسور دون جدوى". برغم النقص بأدوات المطبخ، فقد كان فريزر مندهشاً بحجم التجارة المارة عبر الفرات خلال سوق الشيوخ قائلاً: "رغم المخاطر العديدة والضرائب فإن البضائع كانت تصل دمشق". لاحظ الرحالة كذلك أن العرب يمرون خفافاً بزوارق مصنوعة من القصب ومطلية بالقار، وكانت تلك من أنواع المشاحيف الرخيصة آنذاك وتسمى الزيمة.

أمسك فريزر بعد مدة قصيرة بالعناصر الأساسية من تاريخ العراق، بدءاً من العصور السحيقة حتى الوقت الحاضر فكتب: "تظهر آثار سكن وزراعة كثيفتين على امتداد نهر الفرات وعلى ضفتيه... أي بلد مدهش يمكن أن يكون هذا في ظل سلطة حكيمة ومستقرة!".

في العام ١٨٣٠ حدث فيضان مدمر آخر جرف معه السدود وغمر الأراضي المنخفضة حتى البصرة. ويذكر فريزر أن عصّاد، شيخ المنتفك، كان يعمل قرب القرنة مع رجاله في محاولة لترميم أحد السدود، لكن الأضرار التي لحقت بالسد كانت كبيرة. تمكنت بعض القبائل المحلية و بصعوبة من إعادة تشغيل أنظمة الري ولكن الحاجة لدعم المؤسسات المختصة في بغداد كانت ماسة، ولم تكن حكومة الأتراك

حكيمة ولا مستقرة.

كيف كان مظهر عرب الأهوار؟

أثناء مرور القائد العسكري جورج كبيل عبر دجلة في العام ١٨٢٤، وجد نفسه بين أناس يشبهون أبطال الإغريق والرومان القدامى فكتب: "لم أرَ مثل قوة وصلابة أصحاب الزوارق العرب. لباسهم الوحيد هو دشاديش سمراء فضفاضة بخشونة الخيش. وحين يتطلب العمل خلعها، تنكشف عن أجسام مهيأة للمهن الشاقة. وللحقيقة فإن أي واحد منهم يصلح أن يكون أنموذجا ممتازاً لهرقل، وخصوصاً ذا اللحية الكثة والشعر المشعث الشخص الذي كان موضع دهشتنا جميعاً كأنه تمثال أسطوري". أما فريزر، الذي مازال يعاني من اضطراب معدته منذ وليمة الشيخ عصاد حين أكل عيني الخروف أثناء إحدى الاحتفالات، فقد اعترف بتميزهم قائلاً: "إن سكان الأهوار أقوى وأشجع وأكثر وسامة من العرب الآخرين".

كان العرب آنذاك مسلحين بالفالات الطويلة أو الهراوى فقط. يعتمرون ما يشبه العمامة أو اليشماغ على رؤوسهم، لونها أحمر في الغالب مع شراشيب صفراء طويلة. وفي بعض المناطق، وخاصة في منطقة الملوم، كانوا يدهنون شعرهم ويضفرونه على شكل جدائل.

إن نساء الأهوار جميلات بشكل مدهش. وقد وصف كبيل بعض تفاصيلهن. فهن يرتدين ملابس فضفاضة ويضعن الحلي الفضية والخزامات ويضفرن شعرهن على شكل جدائل طويلة تُرصع بالفضة وكنّ: "على الأغلب يشمن الوجه واليدين والرجلين والكواحل برسوم تشبه رسوم التطريز في الجوارب... بعضهن يصطحبن جيشاً من الأطفال ويلاحقن الزوارق لبيع الحليب والزبدة والبيض... وقد جئن إلى مركبنا ببراءة جلية. يبدو على سلوكهن الكثير من التحرر ولهن ملامح رقيقة واستدارة شفاه طبيعية رائعة الجمال قد لا تدانيها محاولات التجميل الحديثة".

كتب فريزر عنهن مندهشاً، برغم ازعاج وليمة الشيخ، وقال: "مشرقات وجميلات". كانت تلك في الحقيقة وجهة نظر جميع من رآهن.

في العام ١٨٤٠ عندما اقترب هنري لايارد من شط العرب (أصبح فيما بعد السير لايارد مستكشف نينوى ونمرود) قادماً من الحويزة؛ وفيما كان يصارع شدة الحرارة ومهاجمة الوحوش من الأدغال، وصل إلى أكواخ قصبية عائدة إلى عوائل من رعاة الجواميس ممن لم يكن لديهم ما يطعم به خيله من الحشيش أو

الشعير. ثم جاء إلى قرية أهوار كبيرة فنزل في مضيف شيخ كريم وتناول عنده السمك والزبدة واللبن. وقد قال عن نساء الأهوار: "إنهن نموذج رائع للجمال العربي".

كتب لايارد قبل ذلك أن أفضل طريق للوصول إلى بغداد خلال مناطق العشائر الخطرة هو عبر دجلة وبواسطة إحدى سفينتين بخاريتين مسلحتين تابعتين لشركة الهند الشرقية وهما اسيريا ونيتوكريس. البديل الآخر الوحيد هو أخذ طريق الخدمات البريدية الذي يمر: "قرب الحدود الخطرة لقبائل الأهوار والبدو حتى السماوة" ـ يقصد إلى الشمال من الزبير ـ وقد سبق له أن سلك الطريقين. مرة مع ضابط البحرية الهندية سيلبي الذي قاد سفينة اسيريا في دجلة، وتوقف أثناء الليل في المعسكر الكبير لشيخ بني لام مذكور الذي صعد بنفسه إلى السفينة وفتشها. كان والي الحويزة قد حذر لايارد من أن بني لام "غدارون وقساة وذوو سمعة سيئة". لم تكن المنطقة سهلة بالطبع، فبنو لام كانوا في حرب دائمة، غالباً ضد باشا بغداد، أو في نزاعات داخلية. وبالرغم من أن لايارد واجه بعض الصعوبات مع الشيخ مذكور، إلا أنه هوجم من قبل عشائر شمر البدوية بالقرب من بغداد الذين سلبوا منه كل شيء، وليس على يد عرب الأهوار.

لم تكن المتاعب حتمية إلا أن بعض الناس يؤججون العداوات بسبب حماقاتهم. فعلى سبيل المثال لم يلق جون جاكسون أية مشكلة أثناء تجواله عام ١٧٩٧ ويبدو أنه كان شخصاً مرحاً أيضاً. أما العقيد جيسني فقد واجه بعد أربعين عاماً من ذلك مظاهر عدائية من قبل سكان سوق الشيوخ، ضد سفينته البخارية المسماة "الفرات" وسفينة الخدمات البريدية ليندزي حيث تعرضت السفينتان للرشق بالحجارة والعصي من قبل النساء حتى أصبح الرسو معها مستحيلاً. وما إن أمر العقيد المفزوع بالتحقيق العاجل بالحادث حتى تبين أن سبب ذلك يعود إلى توزيع كراسات دينية من قبل مبشر ألماني يدعى صموئيل. فكتب قائلاً: "وقعت بعض الكراسات بأيدي شيخ المنتفك فثار ذلك سخطه والناس جميعاً ضد محاولة تحويلهم إلى المسيحية". لكن العقيد، ولحسن حظه، أقنع الشيخ أنه لا يتمكن أحياناً من السيطرة على بعض عناصره وأن لا علاقة له بالدعوات الدينية إطلاقاً. في منطقة للوم إلى الأعلى في الفرات حدث سوء تفاهم أخطر. كان العقيد جيسني كتب تواً: "إن عدداً كبيراً من السكان أقام بيوتاً متحركة من القصب..." ولاحظ ظهور بعوض "من حجم غير عادي"؛ ثارت حفيظة بني حجام على حين غرة وبدت مجموعة مسلحة

منهم على وشك الدخول في معركة. الأسوأ من ذلك: "وفيما كان السيد اينزوورث حينذاك على الشاطئ يجمع عينات نباتية، سمعنا أن العرب يخططون لاختطافه". لم يهدأ الوضع إلا بعد أن أطلق المركب صاروخاً من نوع كونجريف واضطر العقيد للتحقيق مرة أخرى وظهر، كما في المرة السابقة، إن البعثة الإنجليزية كانت على خطأ حيث قام أحدهم بدون إذن مسبق بقطع بعض الأشجار العائدة لبني حجيم. كان الوضع خطراً جداً وأنقذ السيد اينزوورث بأعجوبة. مع ذلك وبالرغم من إمكانية حدوث ما لا تحمد عقباه، كتب العقيد (أصبح فيما بعد جنرالاً) أن تلك كانت الحوادث الوحيدة خلال بعثة استمرت طويلاً.

لابد بالطبع من أن الأوروبيين، بملابسهم القرمزية ووجوههم الثقيلة وقبعاتهم وبساطيلهم، قد ظهروا شاذين للعرب فأثاروا استغرابهم بالدرجة نفسها التي أثارت مظاهر رجال القبائل استغراب الأوروبيين. ولا غرابة في أن المعدان ظلوا يتلصصون من خلال فتحات الأكواخ القصبية على الافرنجيين الذين يمرون بمراكبهم، كما حاولوا الاقتراب من ديلافاله فتجنبهم حين رآهم، لقد حدقوا بالأوربيين في الأسواق. كان سكان الأهوار يزورون، من حين لآخر، البصرة والزبير والقرنة وسوق الشيوخ والمنصورية والسماوة وكوت المعامر لغرض التسوق أو المتعة. بعد كل الذي حصل وفي عام ١٦٩٤ تمكن اتحاد عشائر المنتفك بقيادة ماني بن مغيمس من احتلال ميناء البصرة فعلاً. لكن الأوربيين الذين اعتادوا التجوال في شوارع البصرة لم يكونوا على بينة من أن أولئك الأشخاص المتسكعين ذوي العباءات الرثة هم عرب الأهوار، لذا كانت رؤيتهم في محيطهم الأصلي مثار إعجاب لبعضهم ومصدر خوف للبعض الآخر.

سكان المدن العراقية كذلك لم يكونوا على بينة من أمرهم حتى وقت قريب. وقد حذر قائد الحرس العربي لقوات كيبل من زيارة عرب الأهوار، لكن شجاعة كيبل أبت ذلك وقام فعلاً بزيارتهم، وكتب في تقريره: "كانت القرية عبارة عن تجمع لحوالي ٥٠ سقيفة من الحصران، يتراوح طولها بين الخمسين والستين قدماً، يشبه هيكلها سفينة مقلوبة". وكتب فريزر أن ضفة الفرات الشرقية مغطاة لأميال وأميال: "بأكواخ صغيرة مصنوعة من القصب تبدو كأنها كنائس قوطية".

قام لايارد برسم مضيف أعجب ببنائه. كان المضيف بطول أربعين قدماً وعرض عشرين قدماً وارتفاع أربعة عشر قدماً، ولم يكن ذلك بالتأكيد أكبر مضايف

الأهوار التي قد يصل طولها إلى مائة قدم. لكنه أدهشه كثيراً، فمدخله مبني من حزم القصب مثبتة في الأرض ومربوطة مع بعضها في الأعلى لتشكل أقواساً حادة، وكتب: "تبعد تلك الأعمدة المتماسكة عن بعضها مسافة ستة أقدام، توضع بينها حصران من أعواد قصب متشابكة تتماسك بنسجها وفتلها، ذوات تصاميم جميلة. الحصران المعلقة رائعة هي الأخرى ويمكن رفعها أو خفضها حسب الطلب للسماح بدخول النسيم أو الاحتماء من أشعة الشمس. يوضع إلى جانب كل عمود جذع شجرة ينتصب عليه وعاء فخاري نضّاح يبرد فيه الماء. تملأ هذه الأوعية الأنيقة بالماء من النهر فيصبح منعشاً بعد مدة. تغطى أرضية المضيف بالحصران والسجاد.... كما يقوم الخدم من حين لآخر برش الماء على الحصران المعلقة بمثابة الجدران لغرض خفض حرارة المضيف... يعود الفضل في الأناقة الرائعة للبناء أساساً إلى المهارات العالية والذوق الرفيع لبناتها، وهم دون شك معماريون حقيقيون وبكل ما تعنيه الكلمة من معنى".

شاهد فريزر أثناء تجواله "بعض الأوساخ" لكنه أقام مع العوائل العربية وأدهشهم إشعاله لعيدان الثقاب بحكها بالسكين أو عقب المسدس. كما أسعدهم حين استل ورقة وقلماً ورسم ملامحهم الجميلة التي أعجب بها. لم يشاهد عرب الأهوار من قبل مواد للرسم لكنهم وكما قال عنهم: "أدركوا بسرعة فائقة أهميتها، وكم كان ممتعاً أن يتقدموا لرسم صورهم، ثم وببراءة الأطفال يخفضون وجوههم ويغادرون، أو يدفعون أصحابهم لما اعتقدوه ورطة". في الحقيقة يمكن تلمس الجمال الأليف لسكان الأهوار وحبهم للهو جلياً في هذه الفقرة القصيرة التي كتبت قبل مائة وخمسين عاماً.

إن مذكرات أولئك الرحالة وملاحظاتهم الدقيقة علامات مضيئة كأنها شموع في كهف. وصف كيبل، مثلاً، الكيفية التي يتناول بها شخص من عرب الأهوار وجبة الأكل قائلاً: "يجلس القرفصاء ويعدل من وضع عباءته برزانة عربية خالصة، ويبدأ العمل برفع الكم حتى المرفق أولاً، ثم يأخذ قبضة من الرز، ويشكلها على شكل كرة التنس، ثم يقذفها في فمه، فتجد تلك المضغة اللذيذة، رغم حجمها الكبير، طريقها إلى المعدة بمساعدة قطعة زبد، تقدم دائماً مع الأكل". إن هذا الوصف مازال نافذاً حتى اليوم. كما كتب جون جاكسون في العام ١٧٩٧، واصفاً كيف تصنع إمرأة الأهوار الخبز: "تنور صغير، بارتفاع قدمين إلى ثلاثة، له فتحة من

الأسفل، لإزالة الرماد، عرضه من الأعلى حوالي ١٥ إنجاً، ويتسع تدريجياً حتى القعر. يسخن التنور بالحطب حتى يصل إلى درجة حرارة مناسبة، ويخلو من الدخان ولا يتبقى في قعره سوى الجمر فقط (الذي يستمر يعكس حرارة عالية). يحضر العجين بوعاء كبير، ويقطع إلى الحجم المطلوب على لوح أو قطعة حجرية إلى جانب التنور. بعد أن يعجن تماماً، يقلب بضربات خفيفة وبمهارة عالية، ويدور بيد واحدة إلى أن يصل السمك المطلوب، يبلل أحد جانبي العجينة بالماء وتبلل كذلك اليد التي تدخل في التنور لإلصاق الخبز. يلتصق الطرف المبلل من العجينة بسرعة على السطح الداخلي للتنور فيتحمص جيداً، إلا أنه قد يسقط في الجمر إذا لم يوضع بمهارة مناسبة، كذلك يمكن للتنور أن يحرق يد المرأة إذا لم تعمل بالسرعة المطلوبة، مع ذلك تراهن، وببراعة مدهشة، يخبزن ثلاثة أو أربعة أقراص في الوقت نفسه. يمكنني أن أضيف إن هذه الطريقة لا تحتاج إلى نصف الوقود المستعمل في أوروبا". لقد أغفل جاكسون هنا شيئاً واحداً فقط وهو عدم ذكره كم كان ذلك الخبز لذيذاً. مع ذلك فهو رحالة ممتاز وجاء وصفه هذا بطريقة غير متوقعة. من بين الأشياء كلها أطرى كثيراً على الماء وقال: "لا يمكن ذكر الفرات دون أن أتذكر ألذ شيء تذوقته على الإطلاق، ألا وهو مياهه العذبة. فعلى الرغم من أنها قد تبدو عكرة للوهلة الأولى إلا أنها سرعان ما تصفى تماماً، وعندما أشرب منها تنعشني إلى الحد الذي لم تعد عندي فيه أدنى رغبة بالنبيذ أو المشروبات الروحية الأخرى". لا يسعني إلا الاتفاق مع السيد جاكسون في رأيه، فعرب الأهوار يشربونه منذ البدء وبطريقة مثيرة إذ يخفضون رؤوسهم إلى الأسفل قليلاً ويغطسون أيديهم، وبدون عناء يقذفون الماء إلى أفواههم المفتوحة. مع ذلك تجد من الأوروبيين، والعراقيين من سكان المدن، من يعتبر أن مياه دجلة والفرات، فضلاً عن مياه الأهوار، مضرة. وسكان البصرة من البريطانيين يوصون دائماً بغلي الماء قبل تناوله. أما بالنسبة إلي، فقد شربت، عبر السنين، غالونات من تلك المياه دون أن أعاني من أية أعراض جانبية.

قرر فريزر استكشاف أحد فروع دجلة الأقل شهرة، وهو نهر الغراف، وقد أهمل في مذكراته التعليق على خصائص الماء، بالرغم من حرمانه لنفسه من تناول المشروبات في العراق، مثل العديد من الرحالة العقلانيين؛ إلا أنه امتدح الشاي والقهوة كثيراً فكتب: "كان الخدم يوزعون عصير الزنجبيل الكثيف، الذي غالباً ما يطعّم بقليل من الهيل والقرنفل"، كما ذكر أنه تناول الشاي في مضيف أحد شيوخ

المنتفك، وتناول بعدها القهوة العربية فقال عنها: "كانت داكنة بلون الذي قدمها، قوية مثل البراندي، ومرة مثل الحنظل، لكنها رائعة ومنعشة". وكتب أيضاً كيف أمطره الشيخ بوابل من الأسئلة عن العالم الخارجي: "كم ملكاً عند الأفرنجة؟" و "من هو الأقوى منهم؟" و "من الأقوى الروس أم الإنجليز؟" إلخ. في نهاية الزيارة، فرض الشيخ على فريزر هدية وهي عبارة عن حصانين عجوزين (كان منح الهدايا للضيوف ضرورياً بحكم التقاليد)، فانزعج فريزر ودمدم قائلاً: "إن هذه الخيول الهرمة لا تساوي عشرة شلنات" لكنه لم يستطع إرجاعهما، ووصف هذا الشيخ بالذات بكونه بخيلاً. من جانب آخر كتب العقيد وليام هود قائلاً: "يعجز القلم عن وصف اللطف الطبيعي والضيافة الكريمة لحرامية الصحراء أولئك"، وهو قصد مدحهم دون شك بالرغم من استعماله كلمة "حرامية". وحدث بالقرب من الغراف أن قام أحد أفراد مجموعته، وهو مترجم تركي بليد وثرثار، بارتكاب حماقة حقيقية بإقدامه، في فورة غبية للغطرسة العثمانية، على إهانة مجموعة من رجال القبائل العرب في مضيف شيخ منتفكي شاب. أوشك ذلك أن ينفجر إلى معركة أصبح معها مصير هيود "النصراني" في منتهى الخطورة، فأنقذه الشيخ، الذي رغم صغر سنه، كان يعرف ما معنى الشرف العشائري فأسرع إلى الحشد وأوقف الشجار حين صرخ بهم: "الجميع هنا، عدواً كان أم صديقاً، مؤمناً أم كافراً هو تحت حمايتنا".

مازال بالطبع عدد من المعدان الفقراء يعيشون في زرائب قذرة من البردي بعيداً في أعماق الأهوار، وبحكم انعدام أي شكل من أشكال النظام - خارج سيطرة الحكومة والشيوخ - فهم مخيفون ومتهورون. لكن في مساحات شاسعة من الأهوار والأراضي الواقعة بين السماوة والحويزة حيث كان الشيوخ مصدر فرض النظام، فإن هيود ولايارد وغيرهما وجدوا أصول معاملة الضيوف متناسبة مع التقاليد القبلية السحيقة لعرب الصحارى.

مجيء البريطانيين

في البدء جاء صوت إطلاق نار، وأي صوت؟ سمع عرب الأهوار من قبل هدير المدافع، لكن هذا الهدير الخرافي الزاحف من إتجاه البصرة كان شيئاً مختلفاً ـ وهو يقترب شيئاً فشيئاً. كان حلول عام ١٩١٥ إيذاناً بقدوم البريطانيين ونهاية أربعمائة عام من الحكم التركي للعراق. تمكن عرب الأهوار، بواسطة نظام اتصالاتهم الخاص عبر أحواض القصب، من إدراك أن شيئاً ما وشيك الحدوث. فالسلطات التركية تحولت على نحو مفاجئ إلى سلطات سخية توزع العطايا على الشيوخ ودفعت الأموال المطلوبة لسنوات عديدة على حين غرة وبدون توقع. كما ازدحم نهر دجلة بمراكب محملة بجنود أتراك متجهة جنوباً وتتصاعد فيها هوسات العشائر وتعرقل زحمتها مشاحيف عرب الأهوار. ثم جاءت دعوة السلطان من إسطنبول بإعلان "الجهاد"، وهي حرب المسلمين المقدسة ضد النصارى البريطانيين. كان أمل الأتراك، وهم من المسلمين السنة، تجنيد مسلمي العراق. بدأت القوات البريطانية والهندية إنزالها في البصرة تحت قيادة الجنرال باريت.

تم احتلال البصرة التي أحرقت فيها دائرة الجمارك بسهولة. وكذلك الأمر مع الزبير والشعيبة على مبعدة خمسة أميال إلى الشمال. حدثت في القرنة معركة كبيرة نسبياً، وقد وصل خبر سقوطها بأيدي البريطانيين إلى قلعة صالح عن طريق كاطع بن شمخي، وهو حامل راية الشيخ فالح من البو محمد الذي أرسل رجاله للقتال إلى جانب الأتراك، ومن هناك انتشر الخبر بين عشائر الأهوار كالنار في الهشيم. تم أسر ألف جندي تركي وبضمنهم والي البصرة صبحي بيك ودمرت القوات البريطانية سفينتي الحرب التركيتين، مارماريس وبلبل، وأشعلت فيهما النيران إلى الشمال من العزير. تراجعت القبائل العربية إلى خيامها وقطعانها بعد مشاهدة هزيمة حلفائهم

الأتراك. كما انسحب عرب الأهوار إلى مقاصبهم. بعث شيوخ عشائر الأهوار رسلهم إلى القرنة لمعرفة الحكام الفعليين، فاستقبلهم بحرارة ضباط بريطانيون يتحدثون العربية. لكنهم وجدوا صعوبة في تلفظ اسم ضابط الاتصال البريطاني الجديد المسمى كروسثوايت .CROSTHWAITE

لم يسارع جميع الشيوخ للترحيب بالبريطانيين بالطبع. فالأتراك قاموا بمنح ميداليات وأموال لبعض الشيوخ الأقوياء. وقد أفاد الأتراك من ذلك في بعض الأوقات، خاصة شرقي دجلة وشمالي سوق الشيوخ. واجه الجنرال باريت مواقف صعبة في أهوار الحويزة وبني طرف وآل باوي. هوجمت أفواج الخيالة التي بإمرته، من قبل قوات الشيخ فالح بن صيهود آل منشد، وعبد الكريم بن زبون آل فيصل بين بني لام، وغضبان بن خلف من آل عيسى؛ وحوصرت في مسارب الخنازير الضيقة في المستنقعات. حدثت في تلك المنطقة مصادمات كبيرة من العرب والبريطانيين راحت ضحيتها أعداد كبيرة من الطرفين، خاصة بعد أن دفع الشيخ غضبان جوائز ثمينة لمن يأتي له برأس شخص من الأعداء. لكن البريطانيين الذين عانوا من شحة الإمدادات، وجدوا في الشيخ خزعل من عشيرة آلبو محيسن على شط العرب، حليفاً مهما ساعدهم في حل تلك المشكلة، حيث كان يزودهم بمشاحيف مليئة بالتمر والسمك (لم تأكله القوات البنجابية) والبط والدجاج والبيض؛ وقوارب محملة بالأغنام والجواميس، فتحسنت تغذية الجيش الذي كان معتمداً على لحم البقر المعلب والبسكويت.

جوبه البريطانيون على الجبهة الشرقية بقبائل المنتفك وبعض القبائل الفراتية الأخرى. ففي معركة الشعيبة إلتحق حوالي ١٨٠٠٠ رجل من القبائل العربية بالقوات التركية؛ وعندما هزمتهم قوات الجنرال نيكسون، تراجعت عشائر المنتفك بسرعة تاركة حوالي ٢٠٠٠ قتيل وجريح في ساحة المعركة. أخفق آنذاك أمل الأتراك بحملة "جهاد" كبرى يشترك بها جميع المسلمين. فقبائل المنتفك لم تعد كما كانت في السابق كأنها دولة عربية مستقلة على الفرات. كانت قبيلة السعدون لم تزل ظاهرياً تقود القبائل الموحدة. إلا أن الأتراك منحوا ألقاباً عديدة لقبائل أقل شأناً في مناطق الأهوار. كما تحول آل سعدون إلى إقطاعيين ملاك أراض وليسوا شيوخاً. وعيّن الأتراك أحد عناصرهم متصرفاً في منطقته وهو ناصر باشا الذي أنشأ في عام ١٨٧٠ مدينة الناصرية. عارض بعض أعضاء عشيرته تعاونه مع العثمانيين فحدثت

بينهم خصومات أدت إلى تفكيك اتحاد قبائل المنتفك. مع ذلك كان الاتحاد قوياً عند دخول البريطانيين إلى الحد الذي أفزع جنرالاتهم.

أصعب الظروف التي واجهت الجنرال غورينج، أفضل القادة البريطانيين، أثناء تقدمه لاحتلال الناصرية في عام ١٩١٥، هي المعارك التي خاضها ضد القبائل العربية التي ساندت الأتراك. كان زحف في عزّ الصيف على القرنة بقواته المعززة بقاذفات الصواريخ، ثم تقدم إلى أعلى الفرات بإتجاه الجبايش وكتب آنذاك: "شاهدت عرباً يظهرون ويختفون بمشاحيفهم الرشيقة في البحيرة (هور الحمار) ومن الواضح أنهم غير راغبين بمقاتلتنا". غير أن هذا الوضع انتهى جزئياً بسبب المقاومة التركية إضافة إلى انتشار الأوبئة وشدة الحرارة. كما تزايدت عدائية العشائر المحلية فأوقف زحفه. لقد أجبر على ذلك في الواقع من قبل عشائر الغرّاف التي أبدت مقاومة شديدة منعته من التقدم.

على أية حال فإن أهم مدينة على نهر دجلة: مدينة العمارة، سقطت بأيدي البريطانيين. أنشئت العمارة في عام ١٨٦٦، وكانت في العام ١٩١٥ مدينة ذات شوارع فسيحة يقطنها ١٠٠٠٠ نسمة. وقد سقطت بيد الجنرال تاوسند دون مقاومة تذكر؛ ومن هناك استمر سقوط المهيلات (المراكب البخارية) المحملة بالجنود الأتراك الواحدة تلو الأخرى بعد أن انهار جيش محمد باشا الداغستاني. شاهد عرب الأهوار المأخوذون بتطورات الأحداث وللمرة الأولى طائرات استطلاع بريطانية، حيث حلقت فوق رؤوسهم اثنتان منها من البصرة وعلى ارتفاع منخفض. كانت تلك أوقاتاً مفيدة وصعبة في آن واحد بالنسبة إلى عرب الأهوار. ففي الأحيان التي لا يهربون فيها من الطائرات أو يطلقون النار عليها، يقومون بعمليات سطو عجيبة. وعندما علقت بعد مرور سنوات عديدة على كميات الأسلحة المسروقة من الأتراك والبريطانيين، وكان إلى جانبي رجل مسن، قال: "كنا نملأ زوارقنا بالبنادق المسروقة كما نملؤها اليوم بالحَلْفاء. الحرب التركية! أيام زمان".

في الثلاثين أو الأربعين عاماً التي سبقت مجيء البريطانيين، إنشغل بنو لام والبو محمد، وهما اتحادان كبيران للقبائل على دجلة شمالي العزر، بمقاتلة بعضهما. وبسبب معارك العشائر تلك أغلق المرور عبر دجلة لبعض الوقت في عام ١٨٨٠، كما هوجمت السفينة البخارية المسماة "خليفة" التي كانت تملكها شركة بريطانية، فقام الأتراك نتيجة لذلك ببناء معسكر للجيش في العمارة. كما هزم

الجيش التركي شيخ البو محمد صيهود وتغززت السيطرة التركية آنذاك بعد اختراع وسائل الاتصال التلغرافي وتطوير السفن البخارية.

من الأسباب الرئيسية التي قللت من شأن مقاومة عشائر دجلة للبريطانيين هي أن قوة الشيوخ كانت متوقفة أساساً على مقدرة السلطة المسيطرة في تأمين عقود إيجار الأراضي الزراعية الشاسعة عليهم. وكان الشيوخ يزدادون حيرة كلما اتجهت الحرب شمالاً، لأنهم غير عارفين إن كانت تركيا قد هزمت أو أنها ألقت بالبريطانيين في البحر. فمثلاً ساند عريبي باشا آل منشد من البو محمد وابن أخيه مجيد آل خليفة الأتراك في بداية الحرب. غير أنهما، وما أن سقطت مدينة العمارة للجنرال تاوسند، حتى سارعا لتقديم الولاء للملحق السياسي البريطاني المعين حديثاً هناك. وقد كافأتهم السلطة البريطانية بتجديد عقود تأجير الأراضي مقابل مبالغ أقل من المعتاد. في عام ١٩١٦ أجبر الأتراك الجنرال تاوسند على الانسحاب من المدائن كما أسروا جميع قواته المتواجدة في كوت العمارة. بلغت خسائر البريطانيين من الحرب والأوبئة والحرارة والغرق في الأهوار حدوداً مرعبة، وقد أدين في لندن أسلوب إدارة الحرب باعتباره عاراً وطنياً. من الجانب العربي فإن الطبيعة المراوغة لهذه الحرب الفظيعة أربكت الشيوخ الانتهازيين. فمن أين لهم معرفة من هو المنتصر؟. شبيب آل مزبان من بني لام مثلاً، ساند البريطانيين على طول الخط. أما الآخرون ممن تذبذبت مواقفهم بين الطرفين وأساؤوا تقدير الموقف فانتهوا إلى مساندة الأتراك، أجبروا أخيراً على التعاطي مع النصر البريطاني النهائي.

أثرت هزيمة البريطانيين في المدائن على العشائر في الأماكن الأخرى. فالجنرال غورنج الذي كان يتقدم على الغراف أجبر على التراجع إلى الناصرية بعد أن هوجم بقوة بلغ تعداد أفرادها ٣٠٠٠ رجل من العشائر التي اعتقدت أن البريطانيين قد هزموا نهائياً. وفي البطينية بالقرب من الناصرية هاجمت عشائر آل ازيرج وخفاجة بقيادة الشيخ خيّون آل عبيد البريطانيين والهنود بالسلاح الأبيض وقتلوا منهم ١٨٠ شخصاً. بعد ذلك لم يحاول البريطانيون التقدم على طول الغراف لمدة ثلاثة أعوام.

من جانب آخر قام البريطانيون بإزاحة شيخ لبني أسد المعادي لهم في الجبايش سالم الخيون، ونصبوا محله أخاه مجيد.

الشخصيات المتنفذة جداً، من أمثال خيّون آل عبيد من عشيرة العبودة في الشطرة وبدر الرميض من البوصالح الشيخ العظيم لني مالك، وهي العشائر التي

مثلت ثلث اتحاد المنتفك، واجهوا الأمر الواقع وقبلوا البريطانيين ـ لكن فقط بعد أن باءت بالفشل جميع المحاولات المضنية للبريطانيين لاعتقالهم أو قتلهم.

كان بدر الرميّض "طويل القامة وقوي البنية. شخصية جذابة في الخامسة والستين من العمر. ذا وجه صارم وعينين غائرتين. كان أكثر من مجرد داهية". وقد أحدث "انطباعاً لا ينسى" على براترام ثوماس الملحق السياسي البريطاني في الشطرة، والذي سماه "شيخ الأهوار"، وكذلك على رئيسه الرائد هارولد ديكسون قائد منطقة الناصرية (المركز الإداري لإقليم المنتفك) وهو رجل صعب المراس. لقد حشدت لملاحقة بدر الرميض ورجاله في الأهوار قوة من ٤٠٠ مجند من قوات المشاة و ٢٠٠ من الخيالة و ١٠٠ من قوات الاستطلاع في سوق الشيوخ وثلاث طائرات وقاذفتان، وكانت تلك القوة مسنودة من عشائر آلبو سعيد وآل بزون وآل عيسى. وبالرغم من ذلك تمكن بدر الرميض من الإفلات وفقط عندما استبدل ديكسون بالرائد ديتشبورن، قرر بدر تسليم نفسه، لكن بالوقت الذي أراده هو بالقرب من هور الحمار وقد وصف ذلك ثوماس قائلاً: "عندما اقترب بدر الرميض من ديتشبورن، انحنى قليلاً وخلع يشماغه، وبطريقة ريفية ربطه ببطء إلى رجل الكرسي أمام أولئك الذين سلم نفسه لهم". أسفر ذلك عن علاقة ودية بين الرجلين ـ مبينة على احترام متبادل قبل كل شيء ـ فكلاهما من الرجال الشجعان.

من الضروري قول بعض الكلمات بحق الملحقين السياسيين البريطانيين ـ وهي قضية مهمة طالما يجري الحديث عن المشهد السياسي العراقي آنذاك. بكل المقاييس فإن أولئك الشباب المشتتين في الأماكن القصية الذين كانوا يتعلمون من التجربة، يستحقون كل احترام. كانوا يتحدثون العربية بطلاقة، على العكس من سابقيهم الأتراك، ويعملون بحماسة على الرغم من متاعب الحرارة والحشرات والأوحال، محاطين بعشائر مسلحة دون أن يكون تحت إمرتهم أي عساكر بريطانيين بغرض الحماية الشخصية. في أفضل الأحوال كان لديهم مجندون عراقيون. لم يكونوا معصومين من الخطأ بالطبع. لكنهم لم يكونوا جائرين أيضاً. أحبوا قبائل المنطقة وطبيعتها. كان أغلبهم من المهتمين بعلم الأنثروبولوجيا وعلوم الآثار والطيور. اعتمد نجاحهم أساساً على قوة الشخصية لأنهم كانوا يواجهون رؤساء قبائل على قدر كبير من الحزم والسطوة.

ثوماس، الذي مرّ ذكره سابقاً، أصبح فيما بعد أول شخص غير عربي يقطع

صحراء الربع الخالي على الجمال أو سيراً على الأقدام. ديكسون أصبح المندوب البريطاني في الكويت وألف فيها كتابه القيّم "عرب الصحراء". جون فيلبي، وهو الرجل الثاني الذي قطع صحراء الربع الخالي، أصبح فيما بعد صديق ومستشار الملك عبد العزيز بن سعود، مؤسس العربية السعودية الذي وحدّ الحجاز وصحراء العربيا، وقد قام برسم خارطة المملكة وألف كتباً عديدة عن رحلاته في شبه الجزيرة، (وبالمناسبة فهو والد الدبلوماسي البريطاني الشهير كيم الذي هرب إلى الروس).

يعتبر فيلبي اليوم صديقاً حميماً للعرب برغم قساوته حين كان ضابطاً سياسياً في العمارة. وقد حل محله هيدجكوك، الذي كتب مع زوجته الشابة كتاباً رائعاً عن سكان المنطقة بعنوان "الحاج ركان عربي من الأهوار" باسم مستعار هو "فولانين" (لم يكن تأليف الكتب مسموحاً للرسميين أثناء فترة الخدمة). من الأشخاص الجديرين بالذكر هو ستيفن لونكاريك (الآن عميد في الجيش) الذي ألف كتابين مهمين عن العراق لايمكن الاستغناء عنهما، وجيرالد ليجمان الرحالة الخبير الذي أجاد العربية وبقي اسمه السهل على اللسان العربي يتردد في قرى الأهوار حتى نهاية ,١٩٥٢ أما الموظفون الكبار في الإدارة البريطانية ببغداد فلم يكونوا عاديين أيضاً: جيرترود بيل مسؤولة قسم الشرق والمفوض السامي السير بيرسي كوكس والسير ارنولد ويلسون عالم الآثار والكاتب والمستكشف أيضاً. إن هؤلاء ومهما كانت ردود الأفعال على أعمالهم لم يكونوا من شخصيات الدرجة الثانية.

لقد ترك عرب الأهوار آثارهم على ذاكرة سكان بلاد الرافدين العابرين أولئك. فقد أخبرتني السيدة هيدجكوك، التي قمت بزيارتها أثناء تحضيري لهذا الكتاب: "آه كم أحبهم، كلانا في الحقيقة، أنا وزوجي" ثم قامت بوقار وجلبت صوراً التقطتها في عام ١٩٢١، للمشاحيف الأليفة وبيوت القصب على ضفتي قناة الشهلة. كانت تعلق المرحوم زوجها بعرب الأهوار جلياً في كتابهما المشترك "الحاج ركان..." الذي يحكي عن تجربته مع قبائل الأهوار الشرقية، وجاء فيه: "هنا وسط الأوبئة والأوحال من السهل أن يسود الموت، مع ذلك فالحياة هي المنتصرة".

في رحلته لتفتيش سكة الحديد الجديدة التي ربطت تواً الخميسية بالبصرة، ركب فيلبي عبر هور الحمار في: "مركبة ذات سقيفة تشبه سفينة نوح... كانت الرحلة مبهجة ومريحة بصحبة عرب الأهوار الظرفاء". وحين اضطرته عاصفة مفاجئة للمبيت على جزيرة وسط البحيرة، احتفى به السكان ونحروا لعشائه خروفاً: "كان

عشاءً سائغاً وهو ألذ ما ذقته على الإطلاق". في موضع آخر إسترجع توماس ذكرى زميل سبقه بمائة عام كتب عن صبايا الأهوار: "وجوههن القمرية الباسمة وضفائرهن المرصعة بالحلي وعيونهن الواسعة المضيئة وأسنانهن الناصعة البياض". هيدجكوك سجل أن "الرجال يضفرون شعرهم على شكل جدائل ويرتدون ملابس خشنة الحياكة"، وحين حلّق بطائرة صديقه من نوع D.H.9، قال عن الأهوار: "إنها أقرب للبحر منها إلى البحيرة".

كان فيلبي وزملاؤه أناساً بسطاء يحبون الأجواء الطليقة ويفضلون التجوال في البرية بين العرب على البقاء في مكاتب البصرة (عمل فيليبي كمفوض لدائرة الضرائب لبعض الوقت)، وفي إحدى المناسبات أرعب السيدة كوكس عندما شرب الماء مباشرة من شط العرب وسخر من أوامر الجيش بمنع أكل التمر من عذوق النخل مباشرة لأسباب صحية. كانت تزعجه ألعاب التنس والهوكي والنزهات التي تنظمها زوجات الضباط البريطانيين. أحب لقاءاته مع عريبي باشا من البو محمد: "شيخ مسن لكنه ممتلئ حيوية". في إحدى المرات، عندما كان مسافراً في قناة الشهلة، التقى بجيرالد لجيمان، الذي وصفه بـ "العبقري الغريب الأطوار" ؛وهو يحاول أن يشتري بعض الأغنام للقوات البريطانية من شيخ بني لام غضبان. لم يكن ليجمان شخصاً سهلاً، وكذلك الشيخ غضبان الذي ساق شياهه بعيداً إلى تلال بلاد فارس. وقد اختلف فيلبي وليجمان حول الكيفية التي يمكن بها الحصول على الأغنام، وهو خلاف عكس الطبيعة المختلفة للرجلين. فليجمان قال غاضباً:

- "أرسل بعض القوات لتلقين غضبان درساً".

فاعترض فيلبي قائلاً:

- "أنت تحاول أن تبدو صارماً على الدوام".

ثم طلب فرساً وغادر للتحدث مع الشيخ بصيغة رجل لرجل. بدا الشيخ مسالماً، لكن الأيام التي تلت كانت صعبة حتى لفيلبي فقال:

- "يا شيخ غضبان! إن هذا لا يليق بنا، فأنت شيخ عربي كبير، وأنا الملحق السياسي البريطاني، وترانا نتفاوض على الغنم مثل التجار، بدل تبادل الهدايا الثمينة".

بعد يومين ساق رعاة الشيخ غضبان ١٠٠٠٠ رأس من الغنم إلى الجيش البريطاني المرابط في مدينة علي الغربي، دون إراقة قطرة دم واحدة من الدماء، ودفع

للشيخ سعراً مناسباً وحلّت المشكلة دون جرح كبرياء أحد، ما عدا ستة من الخرفان التي غرقت في مياه دجلة.

كان ذلك عهداً طويلاً يقترب من نهايته. فبحلول عام ١٩١٥ كان ثمانية وعشرون جيلاً عربياً أمضى حياته تحت السيطرة التركية. عرب الأهوار المحبون للحرية، والذين نجحوا خلال تلك المدة في إبعاد الجلاوزة الأتراك عنهم، أخذوا يلمحون بحذر الأوربيين الجدد. ويعطي هنا برترام ثوماس فكرة جيدة عن حياة الملحق السياسي البريطاني في الأهوار. فصيف الشطرة قاسٍ، تصل حرارته إلى ١١٠-١٢٠ درجة فهرنهايت في الظل، ووباء الكوليرا يلوح في الأفق حيث تسبب بوفاة ثلاثة جنود أتراك ترقد جثثهم في المقبرة كإشارة تحذير، وكان ثوماس الشخص الإنجليزي الوحيد بين ١٣٠٠٠٠ رجل من القبائل. أقرب موقع لزملائه كان في الناصرية على مبعدة أربعة وعشرين ميلاً:

- "بالطبع، لا بد من إتقان اللهجة العراقية" طالما يكرر غضاباً.

كان يجد متعة بالغة بالتجوال في المنطقة، بالرغم من حرارة الجو أو البرودة اللاسعة المفاجئة بعد غروب الشمس؛ واكتشاف أمجادها، ومشاهدة مهيلاتها التي تنتشر عليها أعلام خضراء وعلى متونها زوار كربلاء والنجف (فاتيكان العراق) من العرب والفرس، وفي مخازنها جنائز الموتى لدفنها في النجف. قام بقياس أبعاد مضيف الشيخ محمد من البو سعيد، ووجده أن طوله يبلغ ١٠٠ قدم. هيد جكوك وجد مضيفاً أطول من هذا بثمانية أقدام يقع على قناة الشهلة. كان يقضي وقته بصيد الأوز وركوب الخيل، كأنه في الجنة السابعة. ولكن، وعلى حين غرة، انتهت هذه الأنشودة البريطانية الرومانسية التي دارت أحداثها في "جنة عدن السومرية".

فالإدارة البريطانية في بغداد وجدت نفسها، بعد دخول الجنرال مود إلى العاصمة، غارقة في وحل التآمر السياسي. وتخيل حكام الهند البريطانية أن إنزال قوات الجنرال باريت في البصرة هو عملية ضم للواء البصرة. وسرعان ما تبرعمت فكرة الالحاق كما تتبرعم الزهور. فالمؤتمر الدولي لدول الحلفاء المنتصرة الذي عقد بعيد الحرب قسّم الشرق الأوسط بصورة عشوائية بين بريطانيا وفرنسا. وكنتيجة للصفقات غير الشريفة ضمن البريطانيون الانتداب على العراق من خلال عصبة الأمم. (بعض الساسة البريطانيين فكّر بضم العراق كله للامبراطورية البريطانية، لكن الفكرة تلاشت). الفئات المثقفة في بغداد والموصل والبصرة كانت تفكر أنه طالما

تم طرد الأتراك، فالعراق يجب أن يصبح حالاً دولة مستقلة ذات نظام جمهوري. والعراقيون الذين حملوا هذا الحلم ـ السياسيون منهم والطلبة والضباط والقادة الروحيون في النجف وكربلاء ـ كانوا موضع تشجيع رجال الدولة البريطانيين وكبار الرسميين في بلاد ما بين النهرين، في إطار لعبة إدارة الحرب، وتطويرها إلى صيغة "حق تقرير المصير" المغرية. لكن الانتداب البريطاني لم يكن سوى قناع فاضح لاستمرار الاحتلال الأجنبي. فشعر العراقيون أن الوعود قد نقضت، وتصاعد الاستياء الشعبي إلى آفاق انفجار بركاني، سرعان ما تعزز في عام ١٩٢٠، مباشرة بعيد أيام الزهو بالانتصار البريطاني، والآمال الكبرى التي علقت على إقامة علاقات عربية ـ بريطانية جديدة. وتزايدت حدة مشاعر العراقيين بخيانة البريطانيين لهم، مما مهد الوضع للانفجار إلى ثورة عنيفة نجحت، لبعض الوقت، في تجريد الإدارة البريطانية ببغداد من سيطرتها على ثلاثة أرباع العراق.

كتبت جيرترود بيل في عام ١٩٢٠: "تتصاعد نبرة الشعارات الوطنية، وتستمر الاجتماعات في المساجد، ويطالب المتطرفون بالاستقلال التام بدلاً من الانتداب... وقد خلق وضع إرهابي، تغلق فيه الأسواق مع أية إشاعة. من الناحية العلمية، فالبلد في إضراب شامل خلال الأسبوعين الماضيين".

كانت تلك علائم التراجيديا المقبلة. فالآنسة بيل كتبت تلك الكلمات عشية الانتفاضة العشائرية ضد البريطانيين، التي استمرت من تموز إلى تشرين الأول ١٩٢٠، وراح ضحيتها ٢٢٠٩ من البريطانيين والهنود، بين قتيل وجريح ومفقود؛ فيما سقط من العرب ما يقرب من ٨٠٠٠ قتيل. انطلقت الانتفاضة أساساً في منطقة الفرات الأوسط. فسيطر بنو حجيم على السماوة، وأفرغت مدينة الديوانية ودمرت سكك الحديد وقتل موظفوها، كذلك أسقطت طائرة بريطانية كانت تحاول إيصال إمدادات إلى حامية السماوة، وقتل طيارها ومساعده. وأغرقت السفينة الحربية "كرين فلاي" وتم أسر طاقمها من البريطانيين والهنود. كما قتل العديد من الملحقين البريطانيين عبر البلاد، وبضمنهم جيرالد ليجمان، فيما سحب آخرون من مراكزهم (من سوق الشيوخ مثلاً) لإنقاذهم من مصير مماثل.

إلى الشمال قليلاً، تلقى البريطانيون ضربات مميتة. فقد قام رجال القبائل بتدمير رتل من الكتيبة الثانية من فوج مانشستر، وسريتين من الخيالة، وبطاريات المدافع الميدانية، وسرايا الهنود السيخ، أسفر عن قتل ٢٠٠ مجند من الرتل فيما

جرح ستون آخرون وسقط ١٦٠ أسرا بأيدي رجال القبائل واعتبر العرب ذلك قمة العصيان.

في الفرات الأوسط، انسحبت القوات الحكومية انسحاباً كاملاً وعاشت العشائر العربية نشوة الانتصار. ودعا رجال الدين في النجف وكربلاء إلى الجهاد ضد البريطانيين. وقد استجابت عشائر الشمال للنداء وقتلت عدداً من الضباط البريطانيين. كان الجنرال إيلمر هالدين، قائد القوات البريطانية، يعرف جيداً أن الخطر الأكبر يتمثل بالتحاق المنتفك وإتحادات قبائل دجلة بالقتال. فالمنتفك، كما قدر توماس، بإمكانهم المساهمة بعشرين ألف مقاتل ضد البريطانيين. توماس نفسه بقي في مقره في الشطرة حتى النهاية بالرغم من احتمال ثورة عشائر الغراف ضده و "حيث أصبح من المعتاد أن يتظاهر يومياً حوالي ٢٠٠ شاب أمام بيتي ويتزايد تسلح العشائر ودعوات الجهاد من قبل القادة الروحيين ويتردد صوت إطلاق النار عبر الليالي". في ذلك الوقت، وبعد أن فقد سلطاته فعلياً انسحب. تمت مساعدته على الانسحاب بأمان، ومن المهم هنا الإشارة إلى أن الذي ساعده هو أحد الشيوخ المتنفذين الذين خلقوا متاعب عديدة للأتراك، وهو الشيخ خيون العبيد.

انتهت الأحداث بحلول شهر تشرين الأول. وصلت التعزيزات البريطانية من الهند، فزاد عدد البريطانيين والهنود من ٦٠٠٠٠ إلى ١٠١٠٠٠ مجند. من جانب آخر فإن قبائل المنتفك لم تشترك بجدية في الثورة بالرغم من أن بعض قبائل الأهوار نفذ عدة عمليات ضد خطوط الملاحة في نهر الفرات. جميع عشائر دجلة بقيت سلبية ولم ينفع نداء الجهاد حتى في منطقة الغراف فنجا البريطانيون بذلك بأعجوبة.

إن أسباب قيام ثورة العشرين ضد البريطانيين وانتكاستها معقدة. أحد أسبابها هو النشاط السياسي للوطنيين العراقيين في المدن من أجل الاستقلال عن بريطانيا. إضافة إلى كون بعض شيوخ القبائل صدقوا فعلاً وعود الجنرال مود عندما دخل بغداد، بأن بلاد الرافدين ستكون للعرب، ثم شاهدوا بأم أعينهم أن البريطانيين يعملون من أجل البقاء كمحتلين لفترة طويلة. ثم هناك العامل الديني المعادي لتواجد "النصارى" البريطانيين في المدن المقدسة: النجف وكربلاء. أما العامل الرابع فهو سخط العشائر من الأنظمة الإدارية الصارمة والضرائب الجديدة التي فرضها البريطانيون.

إن بقاء عشائر دجلة هادئة يعود جزئياً إلى رضى الشيوخ الكبار عن تسوية

عقود الأراضي الزراعية، والبعد الجغرافي عن القيادة الدينية التي دعت للجهاد، وكذلك ـ على الأقل من وجهة نظر كبار الساسة البريطانيين في بغداد ـ إلى دور الكابتن هيدجكوك، الملحق السياسي البريطاني، الذي كان على علاقة طيبة مع العرب الذين تعامل معهم. لم تثر عشائر المنتفك، لربما بسبب الهيبة الكبيرة لخيون العبيد، الذي رد على دعوات القيادة الدينية في النجف وغيرهم من قادة العشائر الثائرة، بأن عشائر المنتفك ضعفت كثيراً بسبب الخلافات الداخلية والحرب ضد الأتراك، وأن أية حرب أخرى ستكون بمثابة الكارثة. وهذه هي الحجة نفسها التي استعملها شيوخ آخرون معروفون بعدائهم للبريطانيين مثل الشيخ علي آل فاضل والشيخ بدر الرميض من البوصالح.

وأخيراً سلم ثوماس السلطات للشيخ خيون قبل أن يخلي مركزه المعزول خلال الثورة. لكنه عاد بعد ستة أشهر وبقي ملحقاً سياسياً لستة أشهر أخرى؛ مقسماً وقته بين الصيد ودراسة الآثار. وقد نظم شيوخ المنطقة حفلاً توديعياً على شرفه، بمناسبة مغادرته الشطرة، وقدموا له سيفاً تذكارياً قائلين: "هذا السيف الذي قادنا في معركة البطينية".

أظهر القتال مدى الشجاعة التي يتحلى بها العرب. فخلال الانتفاضة، أصدرت القيادة العسكرية البريطانية من مقرها في بغداد بعض البيانات حول القدرات العسكرية الحديثة للعرب، ومما جاء فيها: "يتكون جيش العصيان ـ حسب ما جاء في البيان ـ من حوالي ١٠٠٠٠ مقاتل. ربعهم من الخيالة وثلثهم مسلحون بالبنادق، أما الباقون فيقومون بمهمات الإسناد والتطبيب ونقل الجرحى والقتلى... وهم يحتشدون حول راية شيخهم، ثم ينطلقون على هدير الرصاص بخفة عجيبة. ذخيرتهم محدودة لذلك يستعملونها بحذر شديد. قدراتهم في التصويب ممتازة... ولكنهم غير قادرين على تغيير خططهم الحربية بسبب النقص التنظيمي".

بالنسبة إلى "سرعتهم في الحركة" فقد لاحظ أحد ضباط سلاح الفرسان خلال العمليات العسكرية التي جرت قرب القرنة في العام ١٩١٥، أن خيالة القبائل كانوا دائماً أسرع من الفرسان البريطانيين. كان هو نفسه خيالاً يمتطي فرساً اشتركت في سباق دولي للعبة البولو ضد الولايات المتحدة، وقد وجد قدرة العرب على العدو في مناطقهم أسرع منه. في ما يخص قدراتهم في التصويب، فإن ملاحظاتي الشخصية تؤكد إلى أنهم لم يكونوا على الدوام الأبرع في العالم، لكنهم أجبروا

الطيارين الانجليز على التحليق على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم في الجو. وبالفعل فإن أحد رجال قبائل المنتفك أطلق النار في العام ١٩٢٦ على طائرة السير الان كوبهام عندما حلق في رحلته التاريخية إلى أستراليا وقتل مساعده المسكين الذي كان إلى جانبه.

كان عام ١٩٢٠ عاماً مرعباً. فالثورة كلفت الحكومة البريطانية عشرين مليون جنيه إسترليني. وقد اعترف بعض الساسة البريطانيين، كما أخبرني العميد ستيفن لونكرك، أنه بعد الثورة وإراقة الدماء "لم يعد الوضع بالمطاق كما كان سابقاً". فقد بقيت مرارة الآمال المحبطة رغم عودة القانون والنظام. وبدلاً من الاستقلال والجمهورية، قدمت للعراقيين مملكة هاشمية بقيادة الملك فيصل (الذي كانت تفضله الآنسة بيل) وإدارة تعتمد أساساً على المستشارين البريطانيين. كان فيصل أكثر القادة العرب شعبية أثناء الثورة العربية التي كتب عنها لورنس "أعمدة الحكمة السبعة". و كابن للشريف حسين في الحجاز، فهو ابن بارٌ لعرب الصحارى. كان رجلاً وديعاً وحساساً وشريفاً. لكنه نصب في بغداد من قبل البريطانيين، وكان من الصعب نسيان هذه الوصاية الأجنبية أو التسامح معها. وفي حفل تتويجه أصبح العراق، كما قال كاتب إنجليزي "مملكة أنجلو - عربية" في منتصف الطريق بين المستعمرة والدولة. وبالرغم من أن العراق انتزع استقلاله تدريجياً وأصبح عضواً في عصبة الأمم وجاء الانتداب إلى نهايته المحتومة، إلا أن لطخة العلاقة مع بريطانيا، التي وصم بها الملك فيصل وابنه وحفيده والعديد من العراقيين الكبار من المساهمين بالثورة العربية، بقيت حتى النهاية. وكانت سبباً أساسياً لإسقاط الملكية في ثورة ١٩٥٨ العنيفة.

في العام ١٩٢٠ عاد الهدوء والسلام للأهوار لفترة قصيرة وتولد، لربما بسبب الثورة، إحترام متبادل أفضل بين المسؤولين البريطانيين ورجال القبائل. وكم كان برترام ثوماس سعيداً بعودته لفضاءات الشطرة الخضراء الشاسعة بعد ذلك الكابوس الجماعي، حيث دوّن في مذكراته الفكرة الحقيقية التالية: "رجل القبائل الذي يتأبط بندقيته ويعيش في الأماكن القصية يمكن حكمه فقط عن طريق إقناعه بقوة الحاكم وإرادته في الحكم ورغبته الحقيقية في السهر على رعايته".

أحلام موظف صغير

لم تكن البصرة في العام ١٩٥١ توحي أنها كانت مركز تجهيز لعمليات عسكرية كبرى في حربين عالميتين. فأرصفتها ومطاراتها استخدمت في دعم العمليات البريطانية ضد رضا شاه في إيران وكذلك ضد الانتفاضة الوطنية العراقية في بغداد. ورغم أن الأفواج والكتائب البريطانية غادرت المدينة منذ زمن، إلا أن ميناءها ظل مزدهراً.

دارت الطائرة حول المطار قبل الهبوط، ومنها شاهدت طوابير البواخر التجارية راسية وسط شط العرب، كما هي اليوم، ومصفوفة على مسافات متساوية عن بعضها كأنها على خط جبهة عسكرية في وضع إستعداد للانقضاض على مدينة صغيرة. كانت البصرة آنذاك هي الميناء العراقي الوحيد القادر على استقبال بواخر شحن القمح والشعير، الآتية من حقول الغراف والعمارة وينقل عمال الميناء المرهقون الحمولة إليها على طوافات معدنية صغيرة. ترسو بينها باخرة خطوط بريتيش ـ انديا الضخمة التي تتسع لحمولة ١٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ طن، وتظهر على برجها الأسود علامة مالطية، كما هو الحال مع العديد من الشركات الأخرى. كنت أحسب أن ضجيجها وأصوات احتكاك حبال رافعاتها، وقرقعة محركاتها وارتطام الطوافات مع بعضها، لابد من أن يكون مسموعاً لدى عرب الأهوار في مقاصبهم الهادئة إلى الشمال قليلاً.

تمثلت مهمتي في الإشراف على حمولات شركة رالي برذرز التي أعمل فيها. لذا كانت أوقاتي مقسمة بين البواخر ومقر الشركة الواقع في بناية رطبة آيلة للسقوط في السوق القديم. متون البواخر المعدينة غالباً ما تكون عرضة للريح القوية، زلقة في الشتاء الممطر وساخنة كالفرن في صيف البصرة القاسي لذلك فمن

الأفضل البقاء في النهر مهما كان الطقس. كنت أستعين في الانتقال إلى البواخر بمركب طويل يشبه الجندول يسمى باللهجة العراقية "بلم"، عائد لرجل مسن وابنه، وقد اعتاد الشيخ على السؤال يومياً وهو يعدل وضع المجذاف: "صباح الخير، يا باخرة اليوم الألمانية لو الهولندية؟".

مجرى شط العرب عند ملتقى دجلة والفرات عميق ومياهه البنية اللون ذات التيار الجارف، تجري بعنف في المجرى العريض حتى المصب. لكنك لا تشعر بقرب البحر، فالمياه المالحة لم تنفذ إلى أعلى النهر. يقع المرفأ عميقاً داخل المدينة مما يزيده جمالاً. تمتد على ضفتي الشط ولمسافة أميال خطوط خضراء لأشجار النخيل الشهيرة في جنوب العراق، ويتمايل سعفها مع هبوب النسيم كأنها خصلات شعر، وتنتشر ايكات كثيفة يقطنها عمال شركات التمور وتملؤها طيور من مختلف الأنواع. يكتظ الحي القديم للبصرة بالبيوت العربية، ذات الأبواب الخشبية والشناشيل المائلة بشكل خطير فوق رؤوس المارة، الممتدة من شط العرب، والتي ترتبط به عن طريق نهير طويل يجري مجتازاً مبنى الحاكم، ثم يمر بأسواق منطقة سكنية تسمى العشّار. إلى الجنوب من نهر العشّار يمتد كورنيش شط العرب. تقع هناك بناية تركية فجة يقطنها البريطانيون العاملون في شركات شحن أو تعبئة التمور، حيث يمكنهم، أثناء تناولهم المشروبات على شرفات الطابق الأول للبناية، مراقبة بواخرهم وهي تشحن حمولتها، والتمتع بالحركة الدائمة للمراكب البخارية والزوارق. تجري أحياناً على ظهور المراكب حفلات زواج مصحوبة بالغناء ودق الطبول والدفوف. في أوقات الصيف يرسو الملاحون القادمون من الخليج، بل حتى من زنجبار، ويتسكعون على جانب النهر تحت الأشجار. بالقرب من الحي القديم وعلى أطراف الصحراء التي تمتد بدون انقطاع حتى البحر الأحمر، تقع مدينة الزبير الصغيرة حيث وقعت حرب الجمل التي خاضها الإمام علي. إلى الشمال قليلاً تقع قاعدة الشعيبة التي انطلقت منها القوات البريطانية ضد الأتراك وبعض العشائر العربية في عام ١٩١٥. بعد ذلك تأتي المنخفضات المائية وأحواض القصب التي يقطنها المعدان وتمتد إلى الشمال.

البنايات التجارية في العشار ذوات سقوف عالية تتدلى منها مراوح قديمة مزينة ما إن تدور لتحريك الهواء المشبع بالرطوبة، حتى يبدأ زئيرها كأنها مروحة هليكوبتر، فتطير مع دورانها الأوراق الرسمية بكل الاتجاهات في الغرف. لم توجد مكيفات الهواء في كافة الدوائر الرسمية. فتوضع على شبابيك الكثير منها حزم من

العاقول المضغوط، يقطر عليها الماء من أنابيب مثقبة، وقد يساهم في خفض الحرارة بدرجة أو اثنتين لا أكثر. تتميز البصرة بكثرة قنواتها، مما يزيد في رطوبة الجو إلى حد يلتصق فيه القميص بالجسد كورق السيلوفان.

بسبب تلك القنوات سمى أحدهم البصرة بـ "فينيسيا الشرق". لا تشبه البصرة فينيسيا بشيء، رغم قنواتها العديدة، لكني أظن أن معظم زوارها وجدوا فيها فتنة وجمالاً ساحرين. بالأخص في كورنيشها، ونكهة أسواقها وغموضها وطراوة روائحها، وبساتين النخيل الممتدة على ضفتي شط العرب والمشرئبة كأنها تشير باتجاه الأهوار. كانت البصرة ـ وما زالت ـ مركزاً تجارياً مهماً وبالرغم من أني لم أعرف عدد رجال الأعمال الأجانب آنذاك، لكنه بالتأكيد كان عدداً كبيراً.

عندما وصلت العراق في العام ١٩٥١، وجدت أولئك البريطانيين ممن اختاروا المجيء إلى العراق بأنفسهم وامتهنوا العمل الشاق وأتقنوا العربية، قد غادروا المكان. فيلبي الذي عرف كمستكشف وكاتب ورسام خرائط، أضحى شيخاً طاعناً في السن يقيم في العربية السعودية. برترام ثوماس، الأوروبي الأول الذي قطع الربع الخالي مشياً على الأقدام (فيلبي هو الثاني وثسيغر الثالث)، غادر لتأسيس مركز الدراسات العربية في لبنان، الذي وصف فيما بعد بأنه "مدرسة الجاسوسية". ديكسون أقام في الكويت منكباً على تأليف رائعته "عرب الصحارى". الآخرون ممن أمضوا وطراً من شبابهم في عراق الانتداب، نقلوا إلى وظائف أخرى أو تقاعدوا وبعضهم فارق الحياة، وحلّ محلهم رسميون عراقيون. على المستوى الاجتماعي، فالبريطانيون "الرواد" في بلاد ما بين النهرين، استبدلوا بموجات جشعة من تجار بريطانيين وملاحين وخبراء نفط ومدراء بنوك وأخصائيي ضرائب ومن شابه، وقد التحقت بهم عوائلهم بعد أن تبين لهم استقرار الوضع السياسي. سكن معظم القادمين الجدد هؤلاء في المدن بالطبع قريباً من دوائرهم، فأدى ذلك إلى إنشاء البيوت الفاخرة والأندية البريطانية الخاصة لأطفالهم وأزواجهم، حيث يتم التعاطي وفق طقوس رسمية وبطاقات بزنس وقبعات وكفوف طويلة خاصة بحفلات السفارة وألعاب البريدج ولجان التنظيم إلخ. كل شيء كانوا يفعلونه لـ "تطوير" حياتهم، كان يعزلهم عن حياة العراقيين، وكأن الأمر مخطط لقطع وشائج التعاطف بين الجالية البريطانية وأفراد المجتمع العراقي الذين أحبّ غالبيتهم البريطانيين الأوائل في الأزمنة التي تميزت بانفتاح اجتماعي نسبي. في عام ١٩٣٢ أصبح العراق دولة

مستقلة وعضواً في عصبة الأمم. صحيح أنه مملكة عربية تحت تأثير بريطاني كبير، لكنه على الأقل بلد مستقل.

كانت الفترة الممتدة بين ١٩٣٢ إلى ١٩٥٨ فترة من التباعد المحزن في تأريخ العلاقة البريطانية ـ العراقية، غطت فترة نهاية عهد الملك فيصل الأول في عام ١٩٣٦ والملك غازي الذي مات في حادث سيارة في عام ١٩٣٩ وعهد ابنه فيصل الثاني الذي حكم من خلال خاله الوصي الأمير عبد الإله و السياسي البارع، رئيس الوزراء نوري السعيد. عاش السفراء البريطانيون المتعاقبون حياة الأباطرة في السفارة البريطانية عالية الأسوار الواقعة على دجلة. كانت فترة صعبة استمرت حتى جرفتها ثورة ,١٩٥٨ واليوم بالرغم من تواجد البريطانيين وغيرهم من الأجانب للعمل في العراق، وبالرغم من وجود النادي البريطاني في بغداد، إلا أن العنجهية الكريهة لبعض البريطانيين التي كانت سائدة في بصرة الخمسينيات قد انتهت. لقد جئت البصرة متأخراً، مع ذلك شاهدت ملامح حياة بعض البريطانيين من أرستقراطي الهند، وعلى الرغم من أن العراق لم يكن جزءاً من الامبراطورية البريطانية إلا أن كبلنك، بل وحتى كونراد كانا عام ١٩٥١ يتصرفان كأنهما من أصحاب الدار في البصرة.

أتذكر كيف كان العرق يرشح من شدة حرارة الأرضية الإسمنتية وأنا أصعد سلّم دائرتنا الواقعة وسط أحد الأسواق، حيث رحب بي فراش الدائرة الشاب سلمان، والسيد هايك محاسبنا البدين الأرمني الأصل، والذي يتصبب منه العرق صيفاً وشتاءً، وكاتبة الطابعة الآشورية، التي أود أني ما زالت أتذكر اسمها. قدمت نفسي إلى رئيسي في العمل، وهو شاب لطيف في متوسط العمر من مواليد ليفربول، فتقدم نحوي باسطاً يده لمصافحتي وكان وجهه متعرقاً، زميل بريطاني آخر أعلى درجة وظيفية يرتدي شورتاً وقبعة شمسية اصطحبني وقت الغداء بسيارته، التي قادها سائقه ذو الأسنان الذهبية علي، إلى النادي البريطاني. كان النادي عبارة عن بناية قديمة تطل على شط العرب، وهو بمثابة بيت الجالية البريطانية في البصرة. قال لي زميلي ونحن نجتاز صالة النادي، حيث لمحت سحلية مفلطحة الأقدام:

ـ "عليك أن تصبح عضواً في النادي، يا شيخ، فذلك أفضل من البقاء وحدك".

بقدر تعلق الأمر بقادة الجالية البريطانية، فمن الواضح أنه لا يمكنهم العيش

وحدهم. اكتشفت ذلك فيما بعد عندما تلبستني فكرة السفر واكتشاف الأماكن النائية، وبدأت بالابتعاد عن الأماكن المريحة، لكن المنعزلة والرتيبة لبريطانيي البصرة؛ أولاً بقضاء الأماسي بتعلم اللغة العربية، ثم في الاختفاء وقضاء عطل نهاية الأسبوع، وفيما بعد كامل إجازتي اللاحقة، في الأهوار. بدأت النظرات المتجهمة العابسة تصوب باتجاهي، ويحدث أن بعضهم ينصحني، عادة بعد احتساء عدد من كؤوس الويسكي بالصودا، كأن يكون مراقب شحن شيبته خدمة خمسة عشر عاماً في الخليج، أو مدير بنك بريطاني قضى ربع قرن في التنقل بين حلب وعبادان، فيربت برفق على كتفي قائلاً:

- "يا رجل، كن واقعياً، حاول البعض قبلك أن يصبحوا بدائيين".

وفي الحقيقة فإن مثل تلك التحذيرات وإن قيلت بحسن نية فهي مقلقة. كانت تلك على العموم مجاميع من سعداء الحظ ذوي قلوب طيبة مستمتعين بحياتهم في ظروف مناخية غير مريحة، ويعملون بجدية من أجل تقاعد مريح. أغلبهم كان يسكن في بيوت فخمة ولديهم سيارات وخدم لكن البصرة مكان قاس للعيش فيه لمدة ستة أشهر من السنة حتى في زمن مكيفات الهواء. أعتقد أن بريطانيي البصرة أحبّوا العراقيين الذين احتكوا بهم - كان ذلك سهلاً - بالرغم من أن مشاعر التفوق أو التنازل تمنع انبثاق علاقات حميمية بين الطرفين. بعض القدامى حاول تعلم اللغة العربية مستفيدين من تشجيع شركاتهم والمنح السنوية التي تمنحها لإجادة اللهجة العراقية، بغرض تسهيل التعامل التجاري في الدوائر الرسمية. مع ذلك فإن قضاء وقت أطول مع السكان "المحليين"، فضلاً عن رجال العشائر، كان يعتبر غير ضروري إطلاقاً، ولربما غير صحي، بل دليلاً واضحاً على الخيانة من قبل أولئك المزيفين، مدخني السيكار رؤساء شركات شحن وتصدير التمور ومدراء البنوك وعملاء شركات التأمين. كانوا رجالاً كرماء مرحين واجتماعيين، لكنهم شعروا بالإهانة من قادم جديد أظهر أنه قادر على العيش بعيداً عنهم وعن برامج أنديتهم المتقنة التنظيم كحفلات العزاب ورأس السنة والأعياد وحفلات الأقنعة وغيرها.

كان لدى زوجاتهم وقت أكبر لصرفه على إعتبرات المنزلة الاجتماعية وعضوية اللجان، وهن أكثر إصراراً على الالتزام بقوانين الأندية والجالية البريطانية. أما من يجدون أنفسهم خارج ذلك القانون السائد، فهم أقل شأناً أو يعتبرون ثلة مريبة من الرجال. لذا فـ "العقد الاجتماعي" البريطاني مع العراقيين من غير

المتعاملين معهم، باستثناء الخدم معدوم تماماً ومازلت أتذكر شجاراً وقع في النادي البريطاني في عام ١٩٥٤، قبل أربع سنوات من الثورة التي أطاحت بالحكم الملكي في بغداد، شق الجالية البريطانية إلى زمر غاضبة، أثر مقترح من عضو شاب في لجنة إدارة النادي لم يسبق له مثيل من قبل. فكدليل على حسن النية رأى أن تتم دعوة متصرف البصرة ورئيس الشرطة ـ وهما رجلان مهمان لتوفير الحماية للبريطانيين المقيمين في البلد ـ لحضور حفلة رأس السنة في النادي. أحدث المقترح زوبعة في النادي في ليلة مخصصة للعبة البريدج:

ـ "كل عقلك؟".

ـ "يا له من أحمق".

وبينما استمرت المراوح السقفية القديمة تدوّر الهواء الرطب الثقيل، عقد الأعضاء جمعية عمومية استثنائية في البار، حيث كان النادل المسن كوبال يخلط الويسكي والصودا بإهمال، وحيث وصف المقترح، وبحسن نية من طراز عالمي بأنه "مناف للمنطق"، وأضافت سيدة أخرى "أنه بداية المصيبة".

وهكذا ترك الأمر ـ حتى جاءت ثورة ١٩٥٨ بعد أربع سنوات وحولت السؤال فجأة من هل يسمح للعراقيين بدخول النادي البريطاني لعدة ساعات؟ إلى هل يمكن لأي بريطاني أو بريطانية البقاء في العراق؟.

كانت نزعة الجالية البريطانية لعزل نفسها عن المجتمع العراقي أمراً مخجلاً. وهو عصي على الفهم لدى أولئك الذين أحبوا العراق من ضباط ومسؤولين سياسيين بريطانيين من الذين شقوا في الأكواخ والخيام والدوائر الرديئة التجهيز، وسهروا على إدراته بعد طرد الأتراك. كما وصفت سابقاً سواء كان الإداريون أولئك طيبين أم لا (أغلبهم كانوا إداريين أكفاء) ومعظمهم ينحدرون من الطبقات الوسطى أو العليا، فقد إنغمروا في الحياة اليومية والتقاليد العراقية في المدن والقرى والجبال و أطراف المستنقعات المليئة بالبعوض. كل ذلك جرى باختيارهم وبحماسة ذاتية. فرسائل جيرترود بيل المرسلة من العراق، مفعمة بدفء خاص عن علاقاتها الشخصية مع المجتمع العراقي.

ولكن تغيرت الأحوال في الخمسينيات. كنت من المحظوظين جداً بلقاء شخص مميز عن جميع الأجانب آنذاك في البصرة ـ لم يكن معروفاً قبل ثلاثين عاماً على ذلك التاريخ.

كما رويت سابقاً، فإن ويلفرد ثسيغر مجبول من الطينة الرائعة نفسها لريتشارد بيرتونوجيرترود بيل وتشارلس دوتي. وصفت باختصار حياته الجوالة قبل لقائي به. كان أمضى، قبل مجيئه إلى البصرة، موسماً أو موسمين مع الأكراد، ثم ارتحل جنوباً. ولو أنه لم يفعل ذلك، ما كنت سأتعرف على أصدقائي عرب الأهوار وفتنة فردوسهم.

كان متنفذو الجالية البريطانية ينظرون شزراً إلى بنية ثسيغر الهزيلة (ولي كذلك من بعد) وهو يتجول في أسواق البصرة في المناسبات النادرة التي زارها خلالها، للتسوق أو شراء الأدوية. وكم تثير دهشتهم فيقعون في حيرة حقيقية عند رؤيته برفقة اثنين أو ثلاثة أشخاص من عرب الأهوار بدشاديشهم الطويلة ينتعلون نعالاً تحدث صوتاً أثناء المشي. كان ثسيغر بنظرهم رجلاً غريب الأطوار، غير أنهم مجبرون على احترامه بسبب سجله الحربي المشرف مع الجنرال أورد وينكايت في الحبشة وفي القوات الجوية الخاصة التي عملت خلف الخطوط الألمانية في الصحراء الليبية، وحيازته على ميدالية شرفية. في إحدى المناسبات ألقى ثسيغر في النادي البريطاني محاضرة عن عرب الأهوار، وقد استمع الحضور لما قاله بقلق. وبدلاً من التقليل من مصاعب الحياة في الأهوار فإنه وضعها بشكل مباشر - المياه الآسنة، الحياة الاجتماعية المكشوفة، الكدح، البراغيث -ويمكنك تخيل مدى اشمئزازهم من طريقة حياتنا!.

- "ولماذا لا تفعلون شيئاً مفيداً؟" سألني مدير بنك دمث، وهو رجل على درجة من الغرابة، بغض النظر عن كونه أحد أعمدة النادي المرحين وعضواً في جمعية الفنانين الهواة، ومحباً لأدب الرحلات ومعجباً بغريبي الأطوار من أمثال وينكايت (الذي كان عسكرياً لذلك فغرابته مقبولة!).

- "تقصد مدير بنك مثلاً؟" أجبته بانفعال فقال:

- "ولم لا".

عندما اعتدت زيارة الأهوار، بدأ بعض أصدقائي من عرب الأهوار زيارتي في بيتي بالبصرة. كانوا يأتون من المجر الكبير محشورين بباصات مهترئة، أسلاك مقاعدها بارزة ومؤذية، يواجهون مدينة غريبة وسكانها الغلاظ، وهم يحملون أكياساً من الهدايا محملة بالبيض وسلالاً صغيرة مضفورة من سعف النخيل، وأحياناً دجاجة أو اثنتين؛ عيونهم متعبة من الجلوس لساعات عديدة في الحر الشديد. مرة ظهروا

فجأة على مدخل دائرتي في البصرة: شخصيات بائسة ومحزنة مقتلعين من بيئتهم الخاصة - أين يفترضون كبرياءً وكياسة طبيعية - فبدا الأمر مضحكاً لزملائي في العمل.

رئيسي في العمل، وهو رجل خشن من اليونان لكنه إنساني وحساس، نهض لهم مرة ودعاهم إلى حجرة الشاي وأمر الفراش سلمان بتقديم الشاي لهم. في أوقات أخرى خارج الدوام الرسمي، أسمع طرقاً على شباك بيتي الصغير، فأنظر لأرى اثنين أو ثلاثة بدشاديش بيضاء وعكّل وعباءات مهلهلة سوداء أو بنية، يتطلعون بقلق للتأكد من وجودي. حين أكون خارج البيت، وتشاء الصدف أن يذهب الطباخ، الذي أوصيته أن يدخلهم في أي وقت يأتون، إلى السوق، يجلسون أمام البيت ينتظرون عودتي بصبر. لم تكن عندي أسرة لهم، فيتمددون على السجادات فرحين، وينطلق مساعدي الطباخ جاسم حالما يراهم، دون سؤال، إلى السوق للتبضع إن لم يكن لدينا احتياطي كاف.

يحصل بين الفينة والأخرى بالطبع أن يزورني أحدهم - من معارفي العاملين في الشركات التجارية البريطانية أو شركات تعليب التمور، أو الأسوأ من ذلك سيدة بريطانية - وتجد الأصدقاء العرب الأبرياء هؤلاء فيصبحون موضع تندرهم. بعد كل مصادفة من هذا النوع تتضاعف النظرات الماكرة تجاهي في الأندية الليلية باعتباري أصبحت "بدائياً" دون ريب.

من حسن حظي فإن الوضع في القنصلية البريطانية العامة كان مختلفاً. فقد تمتعنا بتعاطف القنصل المرحوم مارك كير - بيرس، الذي بفضل دعوة الغداء التي نظمها سمعت تصريح ثسيغر، العادي بالنسبة إليه لكن المصيري بالنسبة إلي، الذي قال فيه: "سأعود بعد ستة أسابيع للاستحمام..."، ومن ثم نزولي من الزورق الحربي العظيم في يوم مشمس من عام ١٩٥٢، في ظل مضيف الشيخ فالح. ذلك المدخل المقوس للمضيف، كان البوابة التي دخل منها ثسيغر إلى عالم الهور ومن ثم بوابتي أنا أيضاً. وحدث أن تلك البوابة بالذات اختفت من الوجود بعد زمن قصير.

آخر الشيوخ

شهدت أوائل الخمسينيات نهاية التقاليد الأرستقراطية البريطانية في العراق، كما شهدت أفول الشيوخ العظام في الجنوب. أول شيخ قابلته، كما ذكرت سابقاً، هو الشيخ فالح بن مجيد آل خليفة. كان صديقاً لثسيغر منذ أكثر من عام. وبالرغم من حيرة الشيخ فالح إزاء رغبة ثسيغر للعيش مع عرب الأهوار، وتحمل متاعب الذباب والبعوض والحرارة، فقد أعاره بلطف زورقه ومجذفيه، للمساعدة على تحقيق رغبته. لذلك فإن العرب الأوائل الذين تعامل معهم ثسيغر، ومن بعده أنا، كانوا من قبيلة الشيخ فالح. كان فالح يخرج، بين الحين والآخر، لصيد الخنازير أو الطيور البرية التي تعج بها الأهوار. لكنه لم يقض في الأهوار أي وقت أكثر مما يجب على الإطلاق، وهو يرتعب من فكرة قضاء ليلة واحدة في كوخ أحد سكان الأهوار.

لقد عرفت فالحاً لفترة قصيرة فقط. فقد قتل على يد إبن أخيه الطائش في حادث إطلاق نار. أثناء زيارتي الأولى، بقيت في مضيفه مع ثسيغر، وجربت حسن ضيافته، كما رافقته في رحلة صيد. أما بعد وفاته فقد استقبلني ابنه عبد الواحد في المضيف نفسه. بالرغم من قساوة فالح في التعامل مع أية حالة عصيان، إلا أنه كان رجلاً يستحق الاحترام، وفق اعتبارات عديدة. وقد بكى عليه بعد وفاته مساعد ثسيغر، عمارة وسبيتي، و أشاع خبر موته حزناً عميقاً في المنطقة الممتدة من الناصرية حتى الأهوار الشرقية. وهذه الحادثة تقودني إلى قول شيء عن شويخ جنوب العراق عامة. فالعديد منهم لا يستحقون الاحترام على الإطلاق، فهم مجرد طغاة صغار، يريدون أراضي تعاني الأمرين من جفاف وفياضانات منتظمة، وهي بحد ذاتها مهمة شاقة. كانت عشائر جنوب العراق، ومازالت، وبضمنها عشائر المعدان،

متعلقة بقوة بتقاليد العشائر البدوية من ذوي الخيام السود شرقي الفرات. وهم من أتباع تقاليد عرب الصحارى. لذا فالشيخ هو واحد منهم يجري اختياره بالإجماع، وهو مقبول ومحترم طالما كان قادراً على تحمل مسؤولياته في السهر على مصلحة العشيرة في أوقات السلم، وقيادتها أثناء المعارك، بإمكان رجال العشيرة نقل لقب "الشيخ" من شيخ ضعيف لصالح رجل آخر من عائلته. إن هؤلاء الأرستقراطيين بالفطرة ـ وهم في الحقيقة من أنقى السلالات العربية ـ كانوا يتبعون تقاليد ديمقراطية. وقد قاد تدفق رجال القبائل االأصيلة إلى جنوب العراق عبر القرون، وإختلاطهم بالمزارعين المقيمين قبلهم، إلى تجذر تلك التقاليد كاملة في المنطقة ليتشربها سكان الأهوار وما جاورها بالكامل. فقادة حروب القرن العشرين، كالشيخ صيهود من البومحمد، وابن مذكور من بني لام، مثالان لقادة العشائر في منطقة العمارة، وهما أنموذجان للتقاليد العربية الخالدة.

وصف برترام ثوماس الكيفية التي خاطب بها، في اليوم الأول، شيخاً مهماً بالأسلوب الشرقي المميز:

ـ "يا شيخ محمد، أتعرف أن لدى الحكومة القوة الكافية لمعاقبة المناوئين لها، ومكافأة المتعاونين معها؟".

ـ "الحكومة مثل الأب. طاعةالله أولاً ومن ثم الحكومة".

ـ "حسناً يا شيخ، ولكن الأب غاضب من ابنه العاق".

ـ "الله يلعن أبو العاق".

ـ "المهم، جئتك اليوم باسم الحكومة، وهي بحاجة عاجلة إلى ٢٠٠ رجل من بني سعيد".

ـ "ولكن يامحفوظ...".

يستمر هكذا الحوار لساعة أو ساعتين.

الزوارق الحربية ـ الطرادات ـ كتلك التي وصلت بها إلى مضيف فالح، ترمز لأيام المعارك البطولية للعشائر في جنوب العراق، أيام المشيخة الصعبة ولكنها الشعبية بشكل ما. أيام سفكت فيها دماء غزيرة، قلّت كثيراً بعد الحرب العالمية الأولى. تعلمت العشائر درساً بليغاً من المعارك الطويلة التي دارت بين البو محمد وبني لام، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كانت تشبه حرب المائة عام بين انجلترا وألمانيا، لكنها أصغر حجماً. فسنة بعد أخرى، كان الشيوخ يرفعون

أعلامهم الحربية على بوابات المضايف. ويبعثون الرسل لدعوة رجال القبيلة للقتال. يقال إن ١٠٠٠٠ رجل قتل في تلك المعارك. قد يكون هذا الرقم مبالغاً فيه، إلا أن المئات قتلوا دون شك، قبل أن يضع صيهود ونظيره ابن مذكور بحكمتهما، حداً للمذبحة المتبادلة للعشائر.

لايزال قتل الثارات يحدث في الأهوار، كما سنرى لاحقاً، ولكن بدرجة أقل كما أعتقد مقارنة بنسبة الجرائم في مدينة نيويورك أو لندن. في كل الأحوال فهي ليست ذات قيمة مقارنة بالمعارك الكبرى التي دارت في الماضي، حيث يشتبك مئات بل آلاف الرجال. أحد رجال البو محمد المسنين، من الذين اشتركوا في معاركهم السابقة، قال محقاً وبشيء من السخرية عن رجال عشيرته اليوم: سيوفهم من الرصاص، تلمع لكنها لا تقطع. وبالطبع يظهر القادة الفعليون في أوقات الحروب لا في أوقات السلم.

مع ذلك فقد وجدت العديد من الشيوخ البسطاء في الخمسينيات. وهم يعملون بجد بين المعدان. اختيروا لخصالهم السامية، ولم يحصل أولئك الكادحون على امتيازات مادية، بل يعيشون، في غالب الأحيان، حياة الفقر. أحفاد الشيخ العظيم صيهود غالباً ما تحولوا إلى إقطاعيين مالكين للأرض، أثروا ثراءً فاحشاً من الأراضي الزراعية الشاسعة، اختاروا السكن في حصون كونكريتية، شيدت على الأراضي الجافة، ولربما امتلكوا سيارات الليموزين الأمريكية الفارهة، وشيدوا قصوراً فخمة في بغداد. كان نفوذهم القوي يلقي بظلاله على سكانها، كأنهم الحكومة بالذات. وفي الحقيقة، فهم غالباً ما احتقروا موظفي الحكومة. لكن رجال العشائر، وهذا واقع، يفضلون حكم الشيوخ الطغاة أبناء منطقتهم، على سجون المدن المرعبة المليئة بالغرباء - من يلومهم؟. في أوقات ما قبل ١٩٥٨، كان رجال العشائر يرزحون تحت رحمة عدد كبير من المستغلين المستأسدين، ممن يعتمرون العباءات المذهبة،و يمدون أيديهم لتقبيلها. وقد كان هؤلاء وراء الهجرة الكبيرة للفلاحين من منطقة العمارة إلى مناطق "الشراء" في بغداد والبصرة. مما أدى إلى تهديد خطير للانتاج الزراعي في بلد يعتمد أساساً على الزراعة.

تعود ملكية جميع الأراضي، نظرياً، للدولة العراقية. لكن ذلك نظرياً فقط. أما الحقيقة فإن شيوخ جنوب العراق كانوا يستأجرون مساحات شاسعة من الحكومة، ويستثمرونها كأنها أراضيهم بالفعل. أغلب تلك الأراضي كانت صالحة

للزراعة، لكن بعضها إقطاعيات غطتها المياه فأصبحت أهوراً دائمة، محاطه بقرى يقطنها المعدان فقط. الشيخ مجيد، والد فالح، وهو أحد شيخين قويين لعشائر البو محمد قرب العمارة، كان يملك واحدة من تلك الاقطاعيات الشاسعة. التقيت بهذا الرجل مرة واحدة فقط، حين حلّ بمضيف فالح في أحد الأيام. شيخ طاعن في السن، ذو عينين صغيرتين، وجسد خشن متعرق، يوزع الأوامر لمجموعة خائفة من الخدم والحاشية. جلس بصعوبة، كأنه يعاني من الروماتيزم، مثل العديد من سكان المنطقة، بسبب الرطوبة والمياه. سألني عن إمكانية تدبير مركب حديث له للسفر به عبر دجلة، ولما أجبت بالنفي، لم يعد مهتماً بي. عج المضيف بعد وقت قصير بالناس داخلين وخارجين، لمناقشة الحسابات والمحصول أو مشكلات الري والحاجة إلى المزيد من المضخات، وعرائض أخرى مختلفة. فلم يكن مجيد غائباً عن إقطاعيته كما هو حال الإقطاعيين الآخرين.

كان مجيد مليونيراً يمكن وصف أعضاء عشيرته بالعمال الزراعيين، الذي يكدحون من أجل حصة غير ثابتة، وبالتأكيد قليلة، من محصول الشيخ من الرز والقمح والشعير. فهو لم يعد شيخاً تقليدياً، بل إقطاعياً. ومن دون شك فإن من مصلحته إدارة الأرض بكفاءة، والتأكد أن كل دونم بحاجة للإرواء يحصل على الحصة المناسبة من الماء - ليس الإقطاعيون كلهم يعملون ذلك، فأغلبهم بعيدون عن الأرض تماماً. وبالطبع فإن حياة الفلاحين وزوجاتهم وأطفالهم تعتمد أساساً على نزوات هذا الشيخ البخيل، المصاب بالروماتيزم، الذي لا يعنيه مصيرهم.

أورد ثسيغر، في كتابه عن الأهوار، ما قاله مجيد عند تأبين ولده القتيل فالح: "أرضي، ما الذي سيحصل لأرضي عندما أموت؟". وقد علق ثسيغر غاضباً: "إنه لمن المحزن أنه يفضل أرضه على مصلحه ناسه".

من المحتمل أن وزراء الملك فيصل في بغداد اعتبروا الشيوخ ضمانة للحكم - الملك نفسه كان شخصاً عصرياً، تعلم في كلية هارو Harrow في إنجلترا، ومن المؤكد أنه لا يستسيغ أناساً من نوعية مجيد. كان تعداد عشيرته يبلغ حوالي ١٢٠٠٠٠ شخص، مما يعني أن بإمكانه تجنيد ٢٥٠٠٠ رجل مسلح في أية لحظة، وتلك قوة ضاربة دون شك. أضف إلى ذلك فمدينة العمارة نفسها لم تكن مستقرة سياسياً آنذاك، بل ذات ميول يسارية كرد فعل على المحيط الإقطاعي. من هنا فلربما فكرت الحكومة أن جيشا بهذا العدد سيكون مفيداً بالقرب من منطقة مضطربة

سياسياً. مهما كان من أمر مجيد، فمن المؤكد أنه كان سيعمل كل ما في وسعه للحفاظ على نظام الحكم الملكي.

كانت عشائر البومحمد موزعة على الأراضي المروية أو السيحية على ضفتي دجلة وفروعه التي تتغذى منها الأهوار. أغلبية سكان تلك القرى هم من الفلاحين وليسوا من المعدان. لكن فالحاً وأباه يدعون المشيخة على قرى المعدان كذلك، فيمنحهم ذلك حقوقاً يجبر السكان وفقها على استقطاع حصص من محاصيلهم لهم، وتجهيزهم باحتياجاتهم من القصب والعمال وغيرها تجنباً للعقاب. ويقوم رؤساء القرى بإيصال المواد بالسرعة المبتغاة.

أحد رؤساء القرى، شخص دمث ومجدّ يسمى صحين "مصغر صحن" أصبح صديقاً عزيزاً لي، وبقي كذلك إلى اليوم، تتكون قريته البائسة من مجموعة من أكواخ القصب، تقع في قلب الأهوار. وقد أصبحت بالنسبة إلينا، ثسيغر وأنا، بمثابة بيتنا الحقيقي. كان أخوه الأصغر حفاظ يتنقل معي في الأهوار أينما حللت، وقد سبق لي أن استضفته في مكان إقامتي في البصرة لعدة مرات، عندما كان يأتي للتسوق أو العلاج.

أناس مثل صحين وحفاظ لم يكترثوا كثيراً بطبيعة العلاقة بين الشيخ ورجال قبيلته - فالاحترام والشعور بالاعتماد المتبادل على بعضهم البعض الآخر، وهي خصال من صلب التقاليد العربية العظيمة، وجدت حتى بين أقوى الشيوخ ورجال قبيلته. تروى في بيوت الأهوار قصص لا نهاية لها عن ظلم الشيوخ وأعوانهم، وعن قسوة السراكيل في ضرب الفلاحين ومعاقبتهم. ولازلت أتذكر إحدى القصص، التي رويت لي في دار صحين، عن شيخ في قرية مجاورة كان معروفاً بوحشيته، ومدمناً على معاقبة من يزعجه من الناس بوضعه في صندوق خشبي يشبه التابوت، مليء بالمسامير؛ ويأمر خدمه بتقليب الصندوق لتنغرس المسامير في جسد الضحية. هذا الشيخ السادي قد يكون هو الشخص البشع الذي يسترجع المعدان، محبو الرقص والموسيقى، ذكراه الشريرة، وهم متحلقون حول مواقد المساء فيغنون عن الظلم الذي ألحقه بهم منذ صغره.

عندما عدت في السبعينيات، بعد اندثار الشيوخ، رددت كلمات تلك الأغنية المنسية في دار صحين، وكانت مزدحمة بالناس، فانفجر الحشد بالضحك، وتساءلوا كيف يمكنني تذكر ذلك لكنهم ما لبثوا أن رددوا الأغنية من جديد، وحاول

بعض الرجال تفسير مضمونها للصغار. لم يتصرف جميع الشيوخ مثل جنكيز خان صغير بالطبع. ففالح، على سبيل المثال، وبالرغم من أنه ابن الشيخ الظالم مجيد، كانت عشيرته تنظر إليه بشكل مختلف. كان قاسياً بالفعل ومدركاً لمركزه وسلطته، وهو يتوقع الولاء الدائم، وبعكسه يكون عنيفاً. الأهم من ذلك أنه ليس مغروراً أو مهادناً. كان مضيافاً قوي الحضور ومستمعاً كذلك. يتبادل المزاح مع أبناء القرى والعشائر ويزور المعدان، الذين يحتقرهم بعض من هم من طبقته، كما يساهم أحياناً في الأعمال اليدوية. كانت له سمعة ممتازة كفارس وصياد ومجذف.

كان هناك شيوخ أكثر نبلاً، وهم قادة بالفطرة. عرفت أحدهم، مزْيد بن حمدان من آل عيسى - من القبائل الرعوية على أطراف الأهوار الشمالية - وكان يدفع من جيبه الخاص لتحسين وضع قبيلته، ومن علامات تغير الزمن فإنه يقضي نصف وقته في إدارة فندق يملكه في البصرة. الشيخ الآخر كأنه قديس مسن: جاسم بن فارس من آل فرطوس، في عمق الأهوار. يبدو كأنه حطام رجل لم يلبث ينفث دخان مشربه. كان يعمل مع أبناء عشيرته، يقودهم ويوجههم بصوته الخافت القريب من الهمس. بقي شيخاً لعشيرته بعد الثورة، وموضع رضى الجميع، حتى وفاته في عام ١٩٧٦ عن عمر لا يعلمه إلا الله.

بالقضاء على النظام الملكي انقضى عهد آخر في عالم الأهوار. ومثلما اختفت الأرستقراطية البريطانية - الهندية اختفى الشيوخ ملاكو الأراضي في العراق. فمنذ إخفاق ثورة العشرين، والخدع المتتالية التي دبرها البريطانيون للنظام الملكي، حتى نهاية الخمسينيات، تصاعد الحس الوطني العراقي في المملكة بقوة كما يعرش النبت المتسلق على الجدران. وبحلول عام ١٩٥٨ كان الجدار آيلاً للسقوط، وقد سقط بالفعل. لم يقبر ذلك الانهيار العائلة المالكة وحاشية القصر فحسب، بل التجار من أصحاب المهن الحرة، والسياسيين، وملاك الأراضي الإقطاعيين. كما جرد الشيوخ المتنفذين من أراضيهم فانتقلت غالبيتهم للإقامة ببغداد حيث لم تزل حياتهم رغيدة لكنهم دون سلطات.

إن أراضي الإقطاعية التي حزن عليها مجيد عند وفاة ابنه فالح، إنتقلت بالفعل إلى أياد أخرى - أيادي أبناء عشيرته بالذات، وهم الآن يملكون حقوقهم الخاصة، على الأقل. لربما جاءت وفاة فالح في الوقت المناسب قبل رؤية عالمه المألوف ينهار. فقد انتهى المضيف الكبير ذو الأقواس الأحد عشر وبطول ستين قدماً. ولم يبق

من بيته، الذي كان يضم خدماً وحراساً، حجر واحد، فانتقلت عائلته للعيش في بغداد، وتشتت الآخرون في المدن حيث التجؤوا للعمل في سلكي الشرطة والجيش. الأرض التي كان يملكها فالح في الماضي، تمتد اليوم، دون أي أثر للتجمعات السكانية، من قناة الوادي حتى فناء السيد صروط. وهكذا فالمكان الذي شهد خطواتي الأولى على أطراف الأهوار، قبل أربعة وعشرين عاماً، هو الآن امتداد مخضر، فارغ وصامت.

عالم الأهوار

ـ "هذا الهور".

صاح حفاظ من مؤخرة الطرادة. اتكأ على مجذافه وضغط على كتفي كأني به يقول:

ـ "هذا هو عالمنا، اتفهم، إنك الآن بين أيدينا!".

كان ثسيغر يعبئ بندقيته بالبارود أثناء ذلك فنظر إلى الأعلى قائلاً:

ـ "نعم هذا هو الهور".

كان النسيم خفيفاً ومنعشاً. غيمات بيض طرية تتحرك عبر السماء الزرقاء. كان يوماً شتوياً جميلاً في الأهوار وواحداً من الأيام التي لا يمكن احصاؤها التي عشتها في الأهوار في السنوات اللاحقة. الفرق هو أنه كان يومي الأول. منذ لحظات ارتفع خلفنا سياج عال من القصب فصلنا عن آخر مظهر من مظاهر العالم الخارجي، بما فيها مضيف الشيخ فالح وصوت السيد صروط الهادر بالترحيب. مجذفونا الأربعة، بعد أن اطمأنوا إلى محيطهم، بدؤوا بالثرثرة مع بعضهم باسترخاء. مجاذيفهم تغطس وترتفع بفتور أكثر، تتبعها القطرات السائلة التي ترن وهي تتساقط ثانية في الماء.

مجذفو الزورق هؤلاء هم معدان نموذجيون: حفاظ، وعجرم، وحسن، وياسين. ولو كنت متمكناً من الرسم الآن، فأظن بأني قادر على الامساك بأشكالهم بالضبط بعد مرور عشرين عاماً. لقد دونت آنذاك باختصار بعض الملاحظات عن مظهرهم:

عجرم: محدب الوجه، نحيفة ـ عظام الصدغين و الوجنتين بارزة ـ ذو فم واسع وبشرة صافية. يدان كبيرتان ذوات عظام ناتئة. شعر خفف. لا شوارب. تجاعيد

جانبية معقوفة بزوايا على فمه، آخذة بالتعمق. ليس جميلاً، لكنه ذو قلب طيب. لا يتذمر يبتسم بسهولة وبصدق.

حسن بن محيسن: وجه مربع وأنف مستقيم قصير. عينان غائصتان متباعدتان، بحاجبين أسودين. أسنان مرصوفة ناصعة البياض. سيماء وقورة. ابتسامة خجولة. بطيء الكلام. عنيد.

ياسين: وجه منغولي واضح. عظام الخدين بارزة. عينان مائلتان إلى الأعلى. شفتان حساستان مقوستان. بشرة أكثر دكنة، شعر أسود، كثيف الشعر على المرفقين والرجلين. شاربان صغيران. صوت عميق ورنان بشكل مدهش طالما يصدح عالياً. قوي جداً وبدين.

حفّاظ: حيوي، فم ممتلئ وأنف طويل منحرف باتجاهه. شعر بني، وعينان عسليتان واسعتان وزائغتان. أسنان جميلة ولسان دائم الحركة بينها. يشبه إلهاً رومانياً، أسمر ومرح.

كانوا شباباً، ممتعين ويقظين، مليئين مرحين حد السفاهة. مليئين بالطاقة المكبوتة برباطة جأش طبيعية، وإحساس ابن العشيرة بما هو مقبول. كانوا فقراء - أقل فقراً من آبائهم وأجدادهم أثناء العهد التركي، ولكن أكثر فقراً مما هم عليه اليوم. لم يملكوا أكثر من دشاديشهم (من القطن أو الخيش الرديء)، وأغطية الرأس (الكوفيات) والعكّل (١)، والأحزمة والخناجر التي يتقلدونها دائماً. رغم ذلك، فالمظهر كان مهماً لديهم.

فعندما نقترب من قرية، بعد هرج ومرج وغناء وتعب ومخاطر الترحال ليوم كامل، يترك الأولاد مجاذيفهم، ويغرفون ماءً لغسل أيديهم ووجوههم، ينزلون أكمامهم، ويعدلون كوفياتهم وعكّلهم بعناية، ويمعنون النظرة بمرآة صغيرة مدورة للتأكد من أن مظهرهم على أحسن ما يرام. أحياناً يقحم أحدهم مشطاً بيدي ويشير إلى شعري المهمل - وهي إشارة لطيفة إلى أنه لو كان أحدنا رثاً، فسيخجلنا جميعاً. وإذا ما صادف أن مكان مبيتنا متواضع، فإنهم يهبون تلقائياً، مثل الأولاد المؤدبين في أوروبا وأمريكا، لمساعدة مضيفنا المحتاج، في إعداد المائدة أو القهوة.

جنُّ الأهوار هؤلاء، وهم في قعر السلم الاجتماعي، يأخذون عادة، في مضيف شيخ ما، مكاناً متواضعاً في المجلس، لكن بكبرياء لا تقل عن كبرياء أبناء الشيوخ أنفسهم. في مثل تلك الأوقات فكرت: هل يمكن أن يكون هؤلاء حقيقة

سليلي أولئك اللصوص أصحاب الشعور المشعثة الذين أخافوا ديلافاله فغيّر مكان معسكراته لتجنبهم؟ لربما - بل من المؤكد. وهم أحفاد الصقور العنيفة لأفواج الجند الانجليزية والهندية، الرجال والنساء الذين قهقهوا بفرح غامر حين رسمهم مستر فريزر عام ١٨٣٤؛ أولئك العصيون على الترويض الذين FADFFFFFنهبوا القوافل الغنية لليونانيين القدامى، والفرس، والأتراك. هؤلاء الصبية فخورون بنسبهم وعشائرهم - وبالرغم من كونهم موضع سخرية عراقيي المدن - فهم فخورون بكونهم معداناً.

إنه لشيء غريب - لم يسمع به من قبل في الحقيقة - بالنسبة إلى غرباء من أمثالنا، أن يقضوا مدداً طوالاً في قلب الأهوار، ويعيشون كما يفعل المعدان. لم يفعل ذلك أحد من قبل. لهذا فليس مستغرباً عندما رأى سكان الأهوار ثسيغر للمرة الأولى، ألقوا عليه نظرة متفحصة طويلة قبل أن يقتنعوا بأنه شخص غير مؤذ. وحالما اقتنعوا به، وكما فعلوا لاحقاً معي، غمروه بحب صادق.

توانينا بين طرقات القصب في ذلك اليوم؛ ثم انطلقنا عبر الديمة، وهي أكبر بحيرات المنطقة. شاهدنا عدة زوارق تطفو قريبة من بعضها، وسط البحيرة، ومجموعة من الأولاد شبه عراة أو عراة، غاطسين بالماء حتى نصفهم ومنشغلين بما يشبه شباكاً كبيرة لصيد السمك. قال عجرم:

- "هؤلاء نسميهم بربرة وهم يقضون حياتهم بصيد السمك وبيعه. يستعملون الشباك التي لا نستعملها نحن مطلقاً. هل نشتري سمكاً؟".

- "ولماذا لا تستعملون الشباك؟... إن ذلك أسهل".

- "نحن نستعمل الفالات لصيد السمك وليس الشباك" أجاب حسن.

- "نعم، لكن لماذا؟".

- "لا ندري، إننا نفعل ذلك فقط. هل تشتري سمكاً؟".

في الحقيقة إن صيد السمك بالشباك محرم لدى رجال القبائل في تلك الأيام، مثله مثل التجارة. ببساطة، إنها أشياء "لا يفعلونها". لذا، فالمعدان يصيدون السمك ببراعة، بفالة خيزران طويلة، رأسها له خمسة أطراف معدنية مستدقة. يستعملون، كذلك، طعماً يُشرب بمادة مخدرة (١) يشل قدرة السمك على الحركة، فيطفو على سطح الماء مخدراً، ويقومون من ثم بالتقاطه بسهولة.

انطلق فجأة صوت أحدهم صادحاً بالغناء في السماء اللانهائية:

"بشرتك رقيقة
بيضاء كبياض القطن
عيناك واسعتان كعيني غزال
أسنانك مشرقة كالنجوم
كيف لك أن تعرفي بأني أتعذب من الحب
كما يتعذب مقاتل أصيب بالرصاص" (١).

استغل حفّاظ الفرصة للتمخط، ثنى راحة يده ومد إصبعه الصغير، كأنه يحمل كوب شاي، وضغط منخريه بعناية، مستعملاً الإبهام والسبابة، وأطلق شخيراً عالياً. غطس بعدها يده بالماء لغسلها، وواصل التجذيف.

تعلق صدى الأغنية في الهواء. لكن مرافقينا لم يكونوا بمزاج رومانسي، فصاح به عجرم:

- "كيف لا تعرف أنك هناك؟ الجميع سيعرف من هذا الصاروخ الذي أطلقته قبل قليل!".

- "تعال هنا، وسأعطيك رفسة في عجيزتك تتعذب فعلاً" نادى ياسين.

بعد توقف مؤقت جاء صوت خجول من بين القصب:

- "هيا، اذهبوا من هنا".

في نهاية اليوم وصلنا إلى آل مغيفط، قرية صحين الصغيرة. كانت تقع عميقاً في الأهوار. وصحين هو الأخ الأكبر لحفاظ، يكبره على الأقل بسبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً. وهو رئيس الفريكات بالوراثة "كليط" في تلك البقاع. كان قصيراً وقوياً، هادئاً وواعياً. رجل طيب، لربما سيقول عنه كاتب من القرن التاسع عشر "إنه إنسان منضبط". عندما رأيته يضحك على عتبة بيته - الجزيرة، كان ذلك أول مشهد لرجل بقي صديقي إلى اليوم. كان سعيداً بالطبع، لرؤية حفاظ مرة أخرى. وكان سعيداً أيضاً في كل مرة يغادر حفاظ البيت، كما يفعل باستمرار ليرافقني في رحلاتي حول الأهوار لأسابيع، أو ليجيء إلى البصرة. إذا كان حفاظ سعيداً، فصحين كان راضياً وكلانا يعرف بأن حفاظ يحب الترحال.

كان حفاظ مجذفاً بارعاً، وسيم الشكل، مرحاً ومسؤولاً، ينسجم جيداً مع الآخرين - وهذه قضية مهمة. عندما نعود إلى دار صحين، يشعرانني هو وحفاظ كأني عائد إلى بيتي. كانت دار صحين متواضعة، القرية كلها متواضعة - قرية أهوار

نموذجية - تدخل الدار من فتحة تبدو كأنها شق في جدار القصب - لا شيء يشبه المدخل المقوس لمضيف الشيخ فالح. تمسح الأقدام الحافية في حصيرة الأسل والبردي الملقاة على القاع. هناك ستارة من القصب ترتفع إلى منتصف علو الجدار باتجاه النهاية البعيدة، لتفصل طرف النساء والمطبخ؛ حيث يتسرب الدخان ويتعلق كأنه الضباب، في تقوس السقف. أكياس رز وحبوب، مجاذيف وفالات، وسائد ممزقة، مطارح تطرح ما بداخلها، صندوق خشبي عتيق قاتم بمفاصل مكسرة. هذه، فضلاً عن الدجاج والقطط التي تتقافز بيننا، وصندوق خشبي صغير آخر، هي كل الأشياء المرئية في البيت.

حالما نصل، يلتقط حفاظ أكواب شاي، وهي أكواب خاصة ضيقة من الوسط لا يتجاوز ارتفاعها الانجين، ويضعها على طبق معدني رديء. يغطس غلاية شاي سوداء قديمة في الماء، من على الدكة المخصصة للجواميس، غير آبه بالسخام المتراكم على سطحها، ويضعها في نار من القصب والمطال (١)، يكون صحين قد أوقدها أثناء ذلك في منتصف الدار. يكسر قطعاً صغيرة من السكر، من قالب صلد كبير، ويسقط واحدة في كل كوب. يسكب الماء المغلي على الشاي الموضوع في القوري (٢). ثم يضعه في النار كي يجهز إلى أن يقتنع بدرجة إعداده، فيسكبه في الأكواب. في بيت شيخ ما، تقدم ملاعق صغيرة مع الشاي، ولكن عند صحين، عليك الاستعانة بشظية قصب تكسرها من الحصير الذي تجلس عليه لتحريك الشاي. تستبدل بالشاي أحياناً قطع الليمون المجفف فيصنع منه شراب لذيذ. في الأوقات الحارة والرطبة قد تقدم أقداح شربت طويلة، تبدو شهية وباردة، لكنها دافئة بالطبع، بسبب انعدام وجود الثلج.

في الصيف أيضاً هناك نعمة إلهية أخرى للتخلص من حرارة الجو: السباحة. كما ترفع الحصيرة الجانبية للبيت قليلاً للسماح للنسيم بالدخول: ولكن غالباً ما لا تكون هناك أية نسمة. فتجلس وتدع العرق يتسرب أسفل الصدر والظهر. وتعمل جهدك لتنفس الهواء الذي يشبه بخاراً متصاعداً من حمام حار. وبينما أنت تسخن هكذا، يهاجمك الذباب والبعوض من الأعلى، ويزحف عليك البرغوث والحشرات الأخرى من الأسفل. آنذاك، إن كنت قادراً على البقاء ليوم آخر، فذلك يعني أنك أحببت الأهوار حقيقة.

من حسن الحظ أن مياه الأهوار تبقى منعشة وعميقة. لربما يحذرك الأطباء

من البلهارزيا، وهو مرض يفقس في القواقع التي تنمو في المياه الراكدة. لكن حرارة الجو تنسيك البهارزيا أحياناً. عرب الأهوار كلهم يجيدون السباحة كالضفادع، ومنذ سن مبكرة. فتراهم يخلعون الدشاديش البالية ويتقافزون إلى الماء كأنه جزء حقيقي من تكوينهم. عندما رأيتهم تذكرت قصص الحرب العالمية الأولى عن عرب الأهوار، وكيفية أنهم تعروا ودهنوا أجسادهم بالزيت لمنع الإمساك بهم، قبل أن يتسللوا في دجلة لمهاجمة قطار البضائع التابع للجيش البريطاني، تحت عيون حراسه المجندين الهنود. تذكرت كذلك وصف معالي جورج كبل في العام ١٨٢٤، لرجل مجذف كان يصلح أن يكون "أنموذجاً رائعاً لهرقل".

وفيات الأطفال بين المعدان عالية في تلك الأيام. الأقوياء فقط يمكنهم البقاء على قيد الحياة. لهذا، فرجال عشيرة الفريكات، وبالرغم من نحافتهم، فهم أقوياء جداً. وكيف لا يكونون كذلك؟ إن كل يوم من حياتهم عبارة عن عمل شاق في التجذيف أو الغطس خلف الجواميس أو السمك أو البط؛ أو قضاء الساعات باستعمال المناجل في قطع الحشيش أو الأسل و البردي للعلف أو للبناء أو البيع. لست متأكداً من أنني قابلت رجالا بهذه القوة بأصابعهم ومعاصمهم. وأعتقد أن بإمكانهم أن يقطعوا بها رقبة رجل بلمح البصر. أيديهم واسعة، وقوية، والغريب أنها غالباً ما تكون ملساء، وداكنة بلون الدبس بسبب حروق الشمس. أذرعهم وأجسادهم مختلفة الهزال، لكن البشرة ناعمة بشكل غريب. الرحالة الأوائل استعملوا كلمة "أشعث" لوصف الرجل من عرب الأهوار، كأن أجسادهم مغطاة بالشعر تماماً كالقردة. على العكس، فأجسادهم ملساء بشكل جلي، ما عدا الساعدين والساقين. أقدامهم ضخمة، عريضة بشكل غير عادي، وسميكة كأقدام البدو، لكنها ذات شقوق عميقة من الاحتكاك المستمر بمتن المشحوف، والجروح اليومية التي يسببها القصب والأسل ذو النهايات الحادة كأنها الحراب. كانت قصات شعرهم قصيرة أيضاً كما هي الآن. أغلبهم ينمون الشوارب آنذاك كما هم اليوم والبعض، مثل صحين، يميل لتنمية لحية قصيرة. لقد ولّت أيام الجدائل. الشعر الأشقر مألوف في الأهوار، كما تمكن رؤية عيون خضراء وزرقاء فاقعة بين العيون السود والبنفسجية.

في أيام الصيف، متصايحين في بهجة الحيوان، يسارع فتيان القرية بقذف أجسادهم النحيفة العارية إلى الماء، فيتطاير الرذاذ من ضربات أذرعهم وسيقانهم

التي لوحتها الشمس. تحل إذ ذاك أوقات مهرجانية ضاجة بالزعيق والضحك فتستثار الجواميس وتنغمس بخوارها بإفراط. الكلاب تتهستر وتقفز هي الأخرى إلى الماء. النساء والصبايا، المتأنقات بملابس براقة ذات ألوان قرمزية خضراء وزرقاء، يقهقهن ويتظاهرن بالحياء؛ وهن يتطلعن من الأبواب على هذا العري الجذل كأنهن لم يشاهدنه من قبل.

تنتصب القرية في بقعة قطع منها القصب. لكنها لم تزل مسيجة عن قرب بجدران منه. فلو قررت عشيرتك، مثلاً وعلى حين غرة، مهاجمة القرية بفريق بارع من المجذفين، فقد يمكنكم اقتحام البيت الأول قبل أن يكون هناك وقت لسكانه للرد بإطلاق النار. لكن من الممكن أيضاً أن الريح قد نقلت بعض الأصوات الخافتة وأوصلت إشارة تحذير لهم قبل وصولكم.

الأولاد الصغار أنفسهم يتنقلون بثقة بين البيوت على عوارض خشبية مصنعة محلياً، أو بزوارق صغيرة تدعى الجلابية. تمكنك من رؤية الجواميس وهي قابعة تمضغ على أبواب البيوت؛ تحرك قرونها الثقيلة لتفادي أسراب الذباب المثابرة. الطيور الداجنة جاثمة على السطوح القصبية المحنية، طيور الرفراف المرقطة تحوم بحثاً عن فرائسها ثم تنقض كالحجر إلى الماء لاصطيادها. تسمع كورس الضفادع، وتشم رائحة نيران المساء اللذيذة، والعبق الغني الذي يُسيل له اللعاب؛ قهوة تحت الإعداد. تربط الزورق وتثب على اليابسة. تخلع حذاءك وتنزلق عبر المدخل الضيق للكوخ. تأخذ مكاناً مقابلاً لأحد الجدارين العريضين، فيحييك الجالسون الواحد بعد الآخر: "الله بالخير"، وعليك أن ترد التحية بالمثل لكل واحد منهم.

رجل يعد القهوة ـ المرأة مشغولة بإعداد الطعام خلف الحاجز ـ و أنت تسمع الحوار، وصوت ارتطام القدور، وبكاء الأطفال. يجلس الرجال القرفصاء بجوار النار، في الوسط قريباً من الباب. يشعل النار بإشعال حزمة من العشب الجاف بقداحة سكائر أولاً، ويكوّم صفائح المطال الرقيقة، المصنوعة من روث الجاموس، حول القصب المحترق. يضيف أحياناً قطرة أو قطرتين من الكيروسين للمساعدة على الاحتراق. يضع مقلاة صغيرة على النار ويرمي فيها قبضة من البن ويبدأ بتحريكها وتقليب حبوب البن حتى التحميص. يفرغ الحبوب في هاون معدني ويطحنها بمدق نحاسي. تسكب القهوة من وعائها الخاص خلال فتحة طويلة مقوسة تشبه منقاراً. في ديار البومغيفط الفقيرة، من المتوقع أن تجد وعاءً صغيراً واحداً من هذا النوع. أما في

مضيف شيخ ما لربما كانت هناك دزينة منها، تتراوح أحجامها من وعاء مهيب وضخم بارتفاع ثلاثة أقدام، يسمى كمكم، إلى أوعية أصغر حجماً بارتفاع تسعة إنجات تسمى الدلال.

حانوت القرية عبارة عن هيكل صغير من القصب يرتفع عليه علم أبيض مربوط بحزمة طافية من القصب. يمكنك العثور فيه على شاي، قهوة، بهارات، تبغ بعلب معدنية، بصل، أبر، خيار، تمر، لربما فتائل لمصابيح الضغط، أمشاط، مرايا، سكر في قوالب كبيرة، ملح وفلفل. إن لم تتوافر هذه البضائع في الحانوت فإن سكان القرية يتبضعونها من الأسواق خارج الأهوار خلال زياراتهم المتباعدة لها، أو من بائع متجول يجيء بين الحين والآخر إلى القرية بمشحوف صغير هو حانوته الطافي. أما حاجاتهم الأخرى فتجهز ذاتياً: القصب لبناء البيوت والحصران، إضافة لاستعماله كوقود أو لصناعة الحبال والسلال؛ والأسل للعلف. أما الأغذية الرئيسية: الحليب واللبن من الجاموس؛ السمك من الهور، الرز والقمح من الفلاحين المحليين.

من غير الواقعي، حتى في الخمسينيات، تصنيف المعدان باعتبارهم مربي جواميس وصائدي سمك فقط لا يتقنون أي عمل آخر. القبائل المجاورة لهم، قبيلة البو محمد، على سبيل المثال، كانوا يفلحون الأرض إضافة إلى تربية الجواميس. قبيلة الفريكات، وهم معدان بدون شك، يملكون بعض حقول الرز إضافة إلى تربية الجواميس. ما عدا هاتين الفئتين، كان هناك من لا يملك زرعاً على الإطلاق بل عدة جواميس فقط: هؤلاء الناس البؤساء هم معدان أيضاً.

جميع نساء الأهوار يرتدين الحلي، وغالباً من النوع الراقي المصنوع ببراعة. بعض الأساور والخلاخيل والحلقات وزينة الرأس تصنع من الفضة، وقد برع بصنعها الصابئة أو الصبة، وهي ديانة أقرب شيء إلى المانوية (رغم أنهم يسمون على نحو خاطئ مسيحي يحيى المعمدان). لقد كتب عنهم لايارد وصفاً مشوقاً خلال رحلته في العام ١٨٤٠ قائلاً: "قابلت صابئياً (أو مندائياً) أو مسيحياً من أتباع يحيى المعمدان - طائفة قديمة. يتنقلون من مخيم إلى آخر لصناعة أو تصليح الحلي الذهبية والفضية التي ترتديها النساء. أناس مفيدون، يعاملون معاملة جيدة من قبل العرب، لكنهم مقموعون على نحو مخجل، من قبل السلطات التركية والفارسية، إما لإجبارهم على اعتناق الديانة المحمدية، أو لابتزاز أموالهم". كانت الطائفة، في زمن لايارد، مقتصرة على ثلاثمائة أو أربعمائة عائلة يتكلمون العربية، يكتبون

المندائية أو الآرامية، ويحتفظون بعقيدتهم. يعيشون في البصرة على جانبي شط العرب، وكذلك في القرنة والعمارة وسوق الشيوخ. يتميزون بالوسامة وتقليدياً يطلقون لحى كبيرة. يمتنع المسلمون في تلك الأيام عن مشاركتهم الأكل فضلاً عن التزاوج معهم. في السنة الماضية سمعت أن شاباً مسلماً خطب فتاة صابئية في بغداد، وهما من طلبة جامعة بغداد.

لقد حصلت لنفسي على طرادة، بحجم طرادة ثسيغر، مرصعة بالعدد نفسه من المسامير الحديدية الكبيرة لتثبيت الجوانب - هذه المسامير هي التي تميز الطرادة عن أي مشحوف كبير. وقد اشتركت مع ثسيغر أحياناً في التنقل. اصطحبت حسن ابن محيسن وعجرم وحفاظ كمجذفين، وأضفت لهم شاباً من الفريكات يدعى جثير، لأن ياسين غادر كي يتزوج. فيما شغّل ويلفرد ثسيغر طاقماً جديداً بضمنهم شابان مرحان واثقان من نفسيهما هما عمارة وسبيتي: الأول ذو مظهر كلاسيكي تماماً، والثاني كبير العينين ممتلئ البنية، ظريف بشكل غير معقول - سومري جديد.

كانت هناك أيام للتطواف، وساعات قضاها ثسيغر في التطبيب. لم يشاهد المعدان في تلك الأيام طبيباً إلا في حالات نادرة. كان ثسيغر يعمل ما بوسعه، بمساعدة صندوق كبير للأدوية، وبعض الحقن وتدريب قليل وصبر غير محدود. في كل قرية كنا نحاط، بل نغمر، بما يبدو أنهم السكان المحليون جميعاً؛ يتدافعون، يصرخون، يقحمون الأطفال والرضع نحو ثسيغر كلما انحنى داخلاً سقيفة في عتمة وحرارة المساء، أو على دكة الجواميس المشمسة، وهو يكش الذباب، يحقن إبر البنسلين، يوزع الأسبرين ودواء الدزنتري والإمساك والأكزيما والمطهرات والمراهم واللفافات الطبية للجروح الشنيعة التي سببتها الخنازير. أو يختن الأولاد، وينهر أولئك الذين يبالغون بالإلحاح.

هنا برع عمارة فهو يجلب ويوزع البلاستر والمقصات دون إعياء، وبكفاءة وحنو يحضر الماء الحار، وبعناية يحسب الحبوب وهي داخل العلب، ويراقب ضد السرقة. أحياناً، وفي حمى العمليات الصغيرة، يرتفع صوت ثسيغر أعلى من الصخب البشري: "عمارة.. أين المعقم يا ولد؟ اللعنة عليك يا أثول" ولكن لا تتخلف بعدها مشاعر غير ودية، لأن عمارة كان يحب ثسيغر.

كان مرض الدزنتيري مألوفاً في الأهوار آنذاك. كذلك البلهارزيا، فهذه تنفذ طفيلياتها إلى مجرى الدم ومن ثم إلى الجسم كله وخاصة إلى منطقة الحوض،

وتسبب خراباً وألماً شديدين. أتذكر أني شاهدت رجالاً بجروح حارقة، تسبب فيها نوع من السفلس غير التناسلي يسمى *YAWS، ووجدت أنه من المرعب مجرد النظر إليها، لكنها استجابت بأعجوبة لحقن البنسيلين فشفيت. كانت هناك أيضاً أمراض الدود، وعدد هائل من التهابات العيون، والتدرن الرئوي، وجروح إطلاق رصاص، وشقوق بالقصب وأشياء مرعبة أخرى.

كذلك أنا ابتدأت بأخذ أدوية معي. لم يكن باستطاعتي القيام بما قام به تسيغر، ولكن حتى الأشياء البسيطة تلك كانت موضع ترحيب، وصار بإمكاني أن أرد أفضال الناس عن طريق معالجتهم إضافة إلى قتل الخنازير الحقيرة.

مرت الأيام مع تسيغر، وانتهت زيارتي الأولى. بعد عدة أسابيع أعدت الكرة ثانية وحدي.

زواجان وقرار

كان عجرم متزوجاً من البومغيفط لكن ذلك لم يمنعه من الترحال معي، وعندما ولد له ابنه البكر اصطحبني معه إلى بيته الصغير ورفع الرضيع بقماطة القرنفلي من أمه ووضعه بين يدي قائلاً:

- "هذا هو ابن أخيك".

- "وماذا تسميه؟".

-"نسميه خريبط. مستر خريبط مثلك".

- "يبدو من صراخه أنه سيكون مطرباً جيداً".

غير أن مستر خريبط توفي مبكراً. ولم يتوقف عجرم وبالرغم من ذلك عن الإنجاب فأنجب آخرين مات بعضهم وعاش البعض الآخر. كان مدقع الفقر لا يملك إلا جاموسة واحدة تجثو قبالة الباب، ليس بسبب ضخامتها لكنها أكبر من أن تدخل الكوخ الصغير.

شاركته زوجته السراء والضراء مثل غيرها من نساء الأهوار؛ فهن في العادة يعشن بعزلة عن الرجال لكن حياتهن في الوقت نفسه متحررة بشكل ملفت للنظر. ففي حجرة الضيوف تبقى النساء في طرف يفصله حاجز من الحصران. ولا يدخلن طرف الرجال إلا لتقديم الطعام أو أثناء معالجة طفل مريض. يمكنهم، بالطبع، التحرك داخل البيت كمايبغين، فهو بيتهن كما هو بيت أزواجهن.

من المؤكد أنهن لسن الخادمات المسحوقات المحتقرات المهملات المستغلات كما يتخيلهن، باعتقادي، بعض الأوروبيين. إنهن يشتغلن أجل لكن الرجال يشتغلون كذلك، فالعمل قدر كل سكان المنطقة، فتراهن ذاهبات بالمشاحيف إلى السوق، أو جالسات على الدكة أمام البيوت يتسامرن بسعادة ويتبادلن المزاح

والضحك مع الرجال العابرين. أم وريّد، زوجة صحين، وابنها الكبير وريد يتحدثان معي دون تحفظ حديث أي أم لندنية. وحين يخلو المكان من الغرباء تأتي للجلوس معنا للدردشة والمزاح. وجهها رقيق ومعبر بشكل غريب، لم يعد جميلاً وأنا أكتب الآن (أتذكر جمالها لسنين خلت حين أشار إليها أخو زوجها حفاظ بلكزة فخورة من مرفقه) لكن وجهها ينم عن قوة، بفم مكتنز، وعينين صافيتين صادقتين، لا سيما في حضور زوجها صحين، فذلك جزء من التقاليد، مع أني أعتقد أنه نابع من حب واحترام حقيقيين. فهي راضية بدوره القيادي في البيت، ومن الصعب تصور غير ذلك. وهو بدوره يمنحها حق إبداء الرأي، الذي تمارسه بجد وتبدي دائماً آراءً سليمة، وتوبخ عادة رجال العشيرة من ذوي الآراء السخيفة والفظة وتقطع حديثهم بالقول: "يالله صار العشا".

أحياناً أذهب للجلوس معها وهي تعجن العجين مع بناتها أو تنتف الريش قرب الباب الخلفي للمنزل. ونتحدث عن مستقبل وريّد، عن الأماكن التي رأيتها، أو عن طريقة طبخ طائر الغاق (١) أو مالك الحزين (يجب سلقه لمدة ٤٨ ساعة). وهي تدرك أن لا علاقة لي بذلك.

عندما يصحبني أحدهم في المشي في القرية أشعر كأنني أتمشى متمهلاً في شوارع قرية إنجليزية. النساء خارج البيوت يعالجن البردي لصناعة الحصران، يطحنّ القهوة، يغسلن الأطفال، يزجرن الكلاب عن مستودع الطعام، يوجهن الأطفال الذاهبين إلى الهور فترن أصواتهن بوضوح على صفحة الماء الفسيحة.

- "صباح الخير".
- "صباح الخير، شلونك؟".
- "صباح الخير أم شبل شلون ظهر الحجي اليوم؟".
- "عرّافة، هل رجع خنجر للمدرسة؟".
- "ما طاب صدام من الإسهال؟... سأجلب له دواءً بعد قليل".
- "أم حسن، خبري ابنك واوي بأننا ذاهبون للصيد قبل الغروب وعليه أن يأتي إلى بيت صحين قبل وقت وإلا سنتركه".

ليس من السهل تعميم حياة امرأة ما على الجميع، فهي مختلفة ومتناقضة بمضامينها الاجتماعية. فالنساء يعتنين بالمطبخ ويعلفن الماشية، لكن لا يحلبنهن، ويعنين بتربية الصغار الذين تراهم أحياناً يترنحون قرب حافة الهور ثم يسقطون في

الماء فينطلق صراخ النسوة حالاً وتسرع الأم أو البنات الكبريات للإنقاذ.

منذ السنة السادسة من العمر يؤتمن الأولاد والبنات على قيادة المشاحيف بأنفسهم والانطلاق للهور مثل الكبار لرعي الجواميس كي لا تتيه بعيداً، أو لقطع البردي. يغنون تحت القصب، وهناك يمارسون حين يكبرون، أولى تجاربهم الجنسية الأكيدة (فالحياة الجنسية لشباب قرى الأهوار هذه لا تختلف عن حياة غيرهم، فهي تبدأ مع ممارسة العادة السرية ثم تستمر بلعبة الغميضة وسط البردي بسرية تامة، بسبب الضريبة العشائرية الرهيبة إذا زاد الأمر عن حده) لتتوج بالزواج المبكر، غالباً في سن الثالثة والعشرين للرجال وما بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة للفتيات. ما عدا ذلك ففي المناسبات يمارس الرقص فيرتدي الراقص ثياب امرأة، ولكن لا يوجد شذوذ صريح.

لقد تحدث رحالة بعد آخر عن جمال نساء الأهوار. فهن رائعات كما كنّ دائماً، ولا يخفين جمالهن على الدوام وراء الحجاب، غير أنهن حذرات وخجولات أمام الغرباء، فيعرضن عنهن بهدوء ويسحبن طرف "الشيلة" على أفواههن. لهن تأثير بالغ في إدارة البيت وفي أوقات المعارك، فهن اللاتي يشددن همم الرجال ويدفعنهم للقتال بالزغاريد وصيحات الحرب. كما يقمن باستشارة بعضهن عن أي زواج وشيك:

- هل العروس مناسبة، عفيفة، مسؤولة وربة بيت جيدة؟
- هل العريس معافى، شغول أو كسول أم حرامي؟

تلك هي القضايا التي تبحثها الأمهات في لقاءاتهن السرية.

يسعى الرجال للاستماع لنصيحة المسنات وينصتون لهن باحترام شديد ويعملون غالباً وفق مشورتهن. إن النساء هنا لا يحضرن الطعام ويخلفن الورثة والمقاتلين والشغيلة فحسب، إنهن القوة الخفية في مجتمع الأهوار.

لا تغتسل الأهوار بضوء الشمس على الدوام، فهناك الصباحات المكفهرة القارسة كبداية العالم السومري. الريح الباردة تثني أعواد البردي وتشوه المسالك المائية المليئة بالورود الصغيرة فتصبح عدائية. عواصف المطر تحدث هسيساً عند ارتطامها بسطح الماء فيصبح كل شيء تحت رحمة الهور الرهيب الذي يغدو، على حين غرة، في منتهى الخطورة. فقد تكون في منفسح مائي تداعب مويجاته الصغيرة حافة المشحوف لتجد نفسك، بعد هنيهة، تصارع من أجل البقاء هيجان الريح التي

تقذف إلى طرادتك أمواجها السود. ففي كل عام يغرق في هذه الأهوار عدد من الناس وابتلعت في بعض الأحيان حفلات زفاف بكاملها.

لقد تورطت شخصياً في عاصفة مرعبة في إحدى المناسبات. كنت انفصلت مع أصحابي عن ثسيغر محاولاً زيارة طبيب في البصرة ليعالج حنجرة جثير الذي اشتكى من ألم فيها، وكنت شاهدت بقعتين أو ثلاثاً ضاربة إلى البياض في بلعومه، وبالرغم من كونه قوي اليدين والقائمتين، إلا أنه كان رقيقاً ولم أرغب في ترك حالته للقدر. بعد أن أخذ حقنة أو اثنتين تحسنت حالته فرجعنا إلى طرادتنا التي تركناها عند الحاج حميد، صانع المراكب الشهير، في الهوير حيث صنعت كل المشاحيف المستعملة في الأهوار. وبينما كنا هناك جاءنا رسول من العوادية، قرية جاسم بن فارس شيخ آل فرطوس، وهم من المعدان المعروفين بزراعة الرز. قالت رسالة جاسم:

- "أحضر حالاً نصيف سيتزوج غداً".

كان ثسيغر هو الذي قدمني إلى صديقه الحميم جاسم، وهو شخص محبوب جداً من قبل قبيلته ومحترم عبر الأهوار كلها، طويل القامة، نحيفها، ذو وجه ودود ومنسجم، ولا بد أنه تجاوز الستين من العمر آنذاك. أقمت مرات عدة في مضيفه المتواضع المتداعي، وخرجنا معاً لصيد الطيور والخنازير، فالبقاء مع جاسم كان ممتعاً على الدوام، فإلى جانب رحلات الصيد هناك أماسي اللهو والضحك والغناء والرقص. كان مقاتلاً شجاعاً قاتل ضد الجنود البريطانيين و أخفى عنهم مقاتلين آخرين. فقد اختفى عنده رجل الأهوار الكبير بدر الرميّض لمدة عام كامل. له ولدان هما نصيف وفالح: الأول بطيء، قوي وشغول، والثاني: دونكيشوتي ويحب المرح. لقد أخبرني نصيف في فترة سابقة بأنه مقبل على الزواج وطلب مني أن أكون حاضراً إلى جانب والده.

عندما بلغتنا رسالة جاسم فرحنا بها وأسرعنا بمصافحة الحاج وانطلق حفّاظ وحسن بخفة إلى عمق الهور. كان يجب علينا الإسراع، فلا يمكن إطالة الرحلة لأن الوقت يقترب من الغروب ومسكن جاسم بعيد. بعد حوالي الساعة داهمتنا الريح الهائجة القادمة من جبال كردستان كأنها كتل ثلجية، فاختفى الغروب حالاً وحل ظلام دامس، غطتنا الغيوم الداكنة وظهرت فجأة طيور غامضة تخاطفها الريح مثل أوراق متساقطة فما كان منا إلا اللجوء للبردي الكثيف طلباً للحماية. كان البردي يتمايل وصفير الريح وهي تضربه كأنه أصوات شيطانية، لكننا على الأقل سنسلم

من الغرق. كان البرد لاسعاً فاستعملنا يشاميغنا لتغطية الوجه كاملاً عدا العيون. أرجعت مسدسي إلى قرابه، وأخفى رفاقي فوهات بنادقهم، وغطوا بعباءاتهم خراطيش البارود والخناجر التي يحتزمونها خوفاً من أن تأخذها الريح. كان عليهم أن يتوقفوا عن التجذيف من وقت إلى آخر لنفخ أيديهم أو دسّها تحت الإبطين طلباً للدفء. لقد جمدت تلك الريح أرواحنا وسحقت الرغبة بالغناء بل حتى بالكلام. بعد مدة لاحت لنا مجموعة من البيوت فصرخ حفّاظ بأذني:

ـ "هنا يسكن صديق أخي صحين".

فرحنا ننادي على أصحابها طلباً للإذن بالنزول، فتردد الريح صدى صرخاتنا المبحوحة. غير أنهم سمعوا وخرجوا، وبعد معانقة حفّاظ زودونا بمنقلة مليئة بالفحم وضعناها وسط الطرادة ورحنا نتدفأ بها بالتتابع طيلة تلك الليلة.

بعد أن هدأت الريح وصحت السماء ورأينا النجوم المضيئة الباردة، كنا مانزال نرتجف لكن الرؤية أصبحت ممكنة في الأقل. فهناك في قلب الأهوار يتعلم الإنسان بسرعة أن حياة العشيرة ليست في ظاهرها الرومانسي، فمنذ مغادرتنا الهوير فتح الأولاد آذانهم لالتقاط أخفت الأصوات، فإذا ما سمعنا صوتاً داخل غابة البردي:

ـ "خنزير" سيهمس عجرم، لربما كانت مويجات مائية...

ـ "كلب الماء" سيهمس بأذني جثير.

وعندما يأتي صوت مختلف، كأن يكون ناعماً كصوت التجذيف، فإن طرادتنا ستتوتر، سيتوقف التجذيف، تدفع العباءات للخلف ليتحرر الجسد للفعل، وسيخرج اثنان منا بنادقهما المشحونة بالبارود مسبقاً، ثم ننحدر بصمت وبمنتهى الحذر نحو الظلمة ليصرخ عجرم:

ـ "يا هو هاذ؟"

ـ "صديج".

يأتيه صوت عميق:

ـ "منين؟".

ـ "من البو فلان رايحين إلى فلان مكان، وأنت؟".

ـ "جايين مع الإنجليزي ورايحين عند جاسم بن فارس".

ـ "أي نعم، ابنه نصيف راح يتزوج.. وياكم الإنجليزي؟ سلم على والدك

الحاج حسين يا عجرم".

- "الله يحفظك" يرد عجرم.

فتهدأ حالتهم وتوضع البنادق جانباً ويواصلون التجديف لنتحرك مجدداً. قد يكون هؤلاء الغرباء من عشيرة تطلب الثأر من الفريكات، وهو أمر مألوف، سيكون علينا حينذاك أن نطلق النار أولاً كي نضمن البقاء على قيد الحياة. فالتقاليد مازالت تحتم "الفصل" سواء بالنقود أو النساء أو الجواميس. أما "العطوة" أي المبلغ الذي يؤمن هدنة مؤقتة بين الأطراف المتنازعة، التي يضمنها أناس محترمون من أمثال السيد صروط، فلا تزال ممارسة مألوفة وذلك لتجنب معركة مفتوحة والحد من انتشار قتل الثأر والانتقام، مع ذلك تجري أحياناً بعض المعارك الدموية وسط البردي. إضافة إلى ذلك فاللصوص المسلحون يتجولون في الطرقات المائية تلك، وكأي شخص آخر، يتبع مرافقاي انضباطاً صارماً تطور عبر القرون وهو الحذر الدائم.

حين وصلنا العوادية قرية جاسم كانت البيوت تحمل آثار العاصفة وضياء القمر الأبيض ينعكس على السطوح المنحنية مثل غطاء ثلجي. استقبلنا جاسم في مضيفه الصغير فرمينا أنفسنا على الفراش بعد أن رفضنا تناول الشاي ونمنا كالموتى. عند الفجر استعادت القرية حياتها بسرعة وانطلقت طقوس الزواج، فتجمع آل فرطوس فرحين حول شيخهم، وابتدأ الناس يظهرون بمشاحيفهم من كل جانب من الهور وهم يثرثرون ويمرحون. الرجال يضعون خراطيش العتاد حول صدورهم وبنادقهم بأيديهم منتطقين الخناجر، والنساء بخلاخيلهن وأساورهنَ وزينة الرأس التي تحدث رنيناً عندما يتحركن. أما جاسم بصوته الواطئ المعتدل وقامته الفارعة فيلقي بظلاله على كل شيء، كالاستقبال والتنظيم، ويحرك مشربه (١) كأنه عصا قائد الأوكسترا. وحين حضر الجميع، وتبعاً لأمر جاسم أسرعنا بالتدافع والجري باتجاه مشاحيفنا وتحرك الموكب خلل البردي إلى قرية الكبيبة حيث العروس وأهلها بانتظارنا. فالاحتفالات هناك مستمرة طيلة اليوم، وأعلام القبيلة قد رفعت على "الايشان" وابتدأت الهوسات ودبكات الحرب العشائرية، وهي عادة تسبق الأعراس أو المعارك، وراح الرجال يثبون ويضربون الأرض بأخمص القدم وبإيقاع واحد مشكلين دائرة حول علم كبير يخفق باللونين الأخضر والأسود، وهم حاسرو الرؤوس يطلقون رصاصهم في الهواء ويلوحون بيشاميغهم بحماسة هستيرية على زغاريد النسوة

اللاتي رصعن شعرهن واكتافهن بالفضة. ومع ارتفاع حرارة المناسبة توجهت العشيرة إلى المراكب ثانية وتزايد الصراخ والغناء وإطلاق النار في طريق العودة إلى قرية العوادية.

رافقت في طريق العودة الشيخ جاسم بطرادته وكان معنا ابنه العريس نصيف الذي كان متوهجاً من القلق والارتباك. أما العروس الشابة، بشخصيتها المحتشمة وجفنيها المسدلين وابتسامتها التي تشبه ابتسامة الموناليزا فكانت أمامنا مع والدها يرافقها مشحوف كبير مليء بالعطايا وأفرشة ذات ألوان براقة ومقاعد وقلادات وخزانة برجل مفقودة.

كان جاسم يصرخ مع إسراعنا المضطرب، وهو المقاتل المحنك في المعارك ضد الأتراك والبريطانيين، "فوقهم... فوقهم" وهو نداء الحرب حين يطلب الشيخ من رجاله القتال، فيتضاعف إطلاق الرصاص.

كان الليل بالنسبة إلى آل فرطوس طويلاً، فمضيفهم المزدحم يهدر بلعلعة الرصاص والغناء والمرح، عدد كبير من الناس بقوا خارجه، أما في الداخل فبالرغم من ضيق المساحة ظل الشباب يرقصون ويطقون الاصبعتين فيما جلس جاسم يدخن سيجارته بهدوء إلى أن نهض نصيف، حسب التقاليد، وغادر المضيف مضطرباً محمر الوجنتين متبوعاً بتعليقات سفيهة، كي يدخل على عروسه ومن ثم ليعلن إنجاز مهمته بإطلاق رصاصة منفردة من داخل بيته، أما في المضيف حيث ننتظر، فاستمرت أحاديث متقطعة في جو من الترقب خيم على القرية كلها لبعض الوقت إلى أن جاء صوت الإطلاقة المنتظرة من غرفة نصيف فسمع صداها عبر الهور. سألني جاسم خلال الصخب:

- "هل بندقيتك محشوة؟... أفرغ بعضها في السقف هنا".
- "لكنها ستحدث ثقوباً يدخل منها المطر!".
- "لا يهم ليدخل المطر والثقوب ستكون ذكرى لزواج نصيف ولزيارتك".

فأفرغت بندقيتي وسط استحسان الجميع، وقد بقيت الثقوب هناك خلال السنوات الأربع التي قضيتها قبل مغادرتي الأهوار.

تلك كانت أوقاتاً رائعة، وهناك أوقات أخرى ـ لا يمكن إحصاؤها ـ جميلة حتى بدون مناسبات خاصة كالعرس. كل تلك الأماسي العادية التي قضيتها جالساً مع أصدقائي العرب في المضايف والبيوت الصغيرة، وأنا أنصت هاجعاً للأحاديث

المستمرة حول الشؤون المحلية والمحاصيل والأسعار وآخر حادثة قتل والمطالبة بثأر جديد، أو الانصات إلى القصص المرحة والأغاني الصافية التي لا تشبه الغناء الحزين (الأبوذية) الذي اعتادت عليه الأهوار، والتي غالباً ما تتضمن لازمة تسمح للآخرين بالاشتراك بترديدها.

كان هناك مغن شهير في قرية الكباب يسمى جحيش (مصغر جحش):

- "ني نعم، نعم حلو، زيد، زيد" يصرخ المستمعون ببهجة.
- "هل تجيد الغناء يا حفّاظ؟".
- "لا تسأله فصوته يشبه نقيق الضفدع".
- "والغناء الانجليزي؟" لابد أن يسأل أحدهم.
- "لا أجيد الغناء".
- "ولم لا ألا يغني الانجليز؟ غن، غن لنا".
- "غن، غن، غن" سيصرخ عشرة على الأقل وفي مقدمتهم الشباب الذين يقودون الطرادة، ولا يمكن رفض طلبهم فنعقت بأغنية "الفئران الثلاثة العمي THREE BLIND MICE" التي كانوا سمعوها من ثسيغر، وبدا أنها أغنية محبوبة؛ ولم يكن غريباً خلال الشهور التي أعقبت ذلك أن تسمع صوتاً عربياً يترنم بالفئران الثلاثة مع تحريف بفقرة الأغنية المتعلقة بزوجة الفلاح.

أمضينا تلك الأمسية في المضيف حيث النار الخافتة والفوانيس تلقي ظلالاً شبيهة بأجنحة غريبة على السقف والجدران، وحين لفّنا الظلام بعباءة المودة والألفة، وبدأت الخفافيش بالتحليق والتعلق بشكل مقلوب في السقف كأنها فاكهة ذابلة، هجعت للنوم. كنا نطحن القهوة ونحتسيها ويخدر الشاي المرة تلو الأخرى، وفي الخارج يمكن سماع الريح ونباح الكلاب وضربات التجذيف أو صيحة "منو هاذ". أما حول الموقد فتسمع القسم الإسلامي يقطع الحديث:

- "بالعباس أقول الصدق.. بالحسين.. بالله العظيم... بالشرف".

والويل لمن يكسر اليمين إذا أقسم "بالعباس أبو راس الحار" وهو إبن الإمام علي ابن عم الرسول، وقد قُتل بشكل مروع في كربلاء.

يبدأ الناس بعد ذلك بالانسحاب الواحد تلو الآخر، أما الباقون فيلفون عباءاتهم لاستعمالها كوسادات، ويمدون الأفرشة، إن كان ثمة أفرشة، ويتمددون تحت غطاء واحد. يضعون بنادقهم، إن كانت معهم بنادق، إلى جانبهم ويلفون أذرعهم

حولها كي لا يمكن للصوص سرقتها، ثم تطفأ النار، فيتطاير منها الرماد، ويوضع حاجز بسيط على الباب لمنع الجواميس من الدخول وأخيراً يتم إطفاء الفوانيس. وبعد همهمات قليلة قبل النوم وبعض الحك من لسعات البرغوث يبدأ سماع طنين البعوض الطائر فتسحب كوفيتك آنذاك على الرأس والوجنتين ثم تغطي الرأس بالبطانية وتنام.

كنت لا أزال أعمل في شركة شحن في البصرة، لكن زياراتي للأهوار تزداد مع الوقت. لم أكن مقصّراً في عملي بالطبع، لكنني كنت سائراً بهذا الاتجاه، فقبلي كان مع المعدان ولم أستطع التفكير بغيرهم إلى أن جاء اليوم المشؤوم الذي كان منتظراً. فقد التحق بي ثسيغر لغرض الراحة وقضينا معاً أوقاتاً ممتعة في صيد الخنازير رجعنا بعدها إلى القرية حيث الضيافة الرائعة. لم تكن ضيافة مهيبة لكنها مصحوبة بمحبة من أرقى ما يمكن.

في ذلك المساء جلسنا ندردش على سجادة ذات لون برتقالي تمتد عبر المضيف الصغير وتمدد حولنا مرافقونا يتحدثون بهدوء مع زوار آخرين من القرية. كان يوماً ساخناً والنسيم كأنه الرحمة، غير أني لم أكن سعيداً، فعلي أن أعود إلى البصرة في صباح الغد وسيرافقني حفّاظ وعجرم لشراء بعض الأدوية إضافة إلى عباءة جديدة وخرطوش رصاص لصحين ويرجعان. أما أنا فلم أكن متأكداً من موعد زيارتي المقبلة للأهوار. التفت إلى ثسيغر:

- "هل قررت شيئاً؟... هل ستحاول أن تصبح مديراً في شركة شحن بعد خمس وعشرين سنة أم ستستقيل وتأخذ فرصتك لتبقى هنا ثم لترحل إلى العربيا كما كنت ترغب؟".

كان مصيباً، فلا بد من اتخاذ القرار ومن الأفضل أن أتخذه اليوم.

عرب الأهوار، الذين أعرفهم الآن جيداً، نظروا إلينا مبتسمين دون أن يفقهوا معنى الحديث، الطرادتان راسيتان في الماء على مقربة منا، وسرب متأخر من الطيور مرق فوق رؤوسنا. ولعدم وجود أي مورد مالي لي إذا ما استقلت من الوظيفة، فلم يعد ممكناً إلا اتخاذ قرار واحد فقط.

- "حسناً... هل ستبقى مع العرب؟".

سأل ثسيغر.

- "نعم".

أجبته وفي هذه الأثناء جاء مضيفنا مبتسماً وأشار بتناول القهوة.

-"نعم بالطبع".

أعدت الإجابة.

بعد عدة شهور التقيت حفاظ وعجرم والباقين في دار صحين وكنت حائراً، كيف يمكنني أن أقول وداعاً. كان علي أن أغادر العراق لبعض الوقت للسفر في الوديان الجنوبية لجبال الحجاز. فالبقاء في الأهوار إلى الأبد أمر غير ممكن. لم يكن الوداع سهلاً وكنت أحاول أن أبقي حزني تحت نوع من السيطرة:

- "وداعاً صحين... لابد من عودتي مرة أخرى".

- "بسرعة إن شاء الله، لا تنسنا".

قال صحين وضغط يدي بكلتا يديه.

-"بل لا تنسوني أنتم".

وقفنا لبعض الوقت خارج البوابة الأمامية حيث كان حشد من الناس.

- "هل تعتني بهذه يا حفاظ؟ إنها لك".

وسلمته بندقيتي التي كنا نصيد بها الخنازير إضافة إلى حزام الكتف الذي توضع فيه الذخيرة وما تبقى منها.

فرح حفاظ فرحاً عظيماً وذرف بعض الدموع.

- "إذا لم يهتم بها فسأضربه أنا".

قال صحين مبتسماً ثم غادرتهم متجهاً بالطرادة نحو مضيف السيد صروط في طريقي إلى البصرة ومن هناك إلى العالم الخارجي، ولم تكن تلك لحظات سعيدة بالنسبة إلي.

أوابد وأنعامٌ وزواحف

غِنى الحياة في الأهوار، وحيوية عرب الأهوار نفسهم، كفيلان بجعل المنطقة بقعة آسرة غير منعزلة عن العالم. فهي عدا عن طيورها وحيواناتهاالمتميزة، تقع على طريق مهم لهجرة الطيور، مما يضيف أبعاداً أخّاذة على مشهد رائع الجمال أصلاً. حصل في السنين الأخيرة واحد من حيواناتها على شهرة عالمية، وأصبح مالكه أشهر رجل في العالم. لذا فإن هذا الحيوان اللبني الصغير والمتواضع يستحق السبق على الأنواع العظيمة، كالأسود والحيوانات الوحشية التي لاحقها ملوك بلاد آشور في جنوب العراق، أو الخنازير البرية الضخمة، التي مازالت تزخر بها المنطقة.

شاهدت هذا الحيوان مصادفة. ففي شباط من عام ١٩٥٦، رجعت إلى البصرة في زيارة قصيرة بعد سنتين من الترحال في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية. وقمت في اليوم الأول بزيارة القنصل البريطاني العام. هناك وحالما اجتزت بوابة حجرة الانتظار قابلت، ويا لدهشتي وسروري، رجلين من عرب الأهوار عرفتهما حالاً: عجرم وحسن بن مناتي. وقد هبا باتجاهي مبتسمين مرحبين. لمحت خلفهما شاباً إنجليزياً نحيفاً ذا شعر أشقر، منكباً على الاهتمام بكيس يبدو أنه يحوي كائناً حياً، فنظر إلى الأعلى مبتسماً وقال معرفاً بنفسه ومرحباً:

ـ "أنا كافن ماكسويل. أرى أنك تعرف الرجلين اللذين جلبا لي هذا لتوهما من الأهوار. ابتعد قليلاً ففي هذه الحقيبة شيء مهم، وسأريك إياه حالاً".

فجأة ظهر من الكيس كليب ماء صغير محدق بما حوله، فرفعه وتحدث معه بلطف ومسده ملاطفاً، فيما رحنا نحن الثلاثة نمعن فيه النظر. كان عمر كليب الماء الرضيع هذا ستة أسابيع فقط، وقد طار مع ماكسويل إلى لندن في اليوم التالي بعد أن سماه "مجبل"، وسرعان ما اكتسب شهرة عالمية بفضل كتاب ماكسويل، الذي

تصدر مبيعات العام، والمعنون "حلقة مياه رائقة". ولكن ويا للحسرة فقد مات مجبل على يد عامل طرق اسكتلندي.

كان مجبل كليب الماء الثاني الذي امتلكه كافن ماكسويل في الأهوار. الأولى، وكانت أنثى، عثرعليها ويلفرد ثسيغر في الأهوار الشرقية، واشتراها ماكسويل بخمسة دنانير عراقية، سمّاها "شهلة" نسبة إلى النهر الذي وجدت فيه، وهو فرع من فروع دجلة. أقدامها عريضة تشبه أقدام الإوز، وحجمها بحجم قط صغير أو سنجاب. مظهرها متيبس، وذنبها مستدق وبطول قلم رصاص. لكن شهلة ماتت فجأة في الأهوار نتيجة إصابتها بحمى غريبة، وشهد ماكسويل بحزن جثتها وهي تطفو على سطح الماء المغطى بأزهار ملونة. لذا فإن مجبل جاء ليحل محلها، وهو بفرائه الداكن، وذنبه الأجمل، يوحي أنه "كليب ماء مهم جداً" كما قال ماكسويل. وفي الحقيقة، وكما اكتشفت لاحقاً، فإن مجبل من صنف لم يعرفه العلم من قبل، (كانت شهله كليب ماء من النوع المألوف في أوروبا)، وعندما فحص علماء الحيوان في لندن "مجبل"، منح اسماً علمياً جديداً هو LUTROGALE PERSPICILLATA MAXWELLI.مازالت الأهوار تزخر بكلاب الماء من النوع الأوروبي، وهي مألوفة تماماً في الأهوار الزكري والديمة وبركة بغداد. تتكاثر في شهري شباط وآذار ويصيدها عرب الأهوار حيثما أمكن لبيع جلودها في المدن. الأسود ظلت تطوف أطراف الأهوار حتى وقت متأخر نسبياً، ولم يعرف بالضبط إن كان اصطياد آخر أسد في المنطقة قد تم خلال الحرب العالمية الأولى أو قبلها بقليل. تظهر المنحوتات السومرية، وبمنتهى الوضوح، الأسود وهي تهاجم الماشية، أو تصور أبطالاً، وبضمنهم جلجامش العظيم، وهم ممسكون بها. كما يبدو أن ملوك الآشوريين كانوا مدمنين على قتل الأسود والقضاء على صنفها، وقد نظموا لذلك حملات صيد للأسود، وزخرفوا جدران نينوى بمنحوتات تصور أسوداً مطعونة بالسهام الملكية. فالملك الآشوري آشوربانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م)، الذي لاحق الأسود دون كلل راجلاً أو راكباً؛ أعلن أن كثرة الأسود في الأهوار بمثابة الوباء، وبما أن الآلهة آشور ونرجال ونينورتا و عشتار أضحت آلهة صيد الأسود، فإن قتلها في عهده أصبح واجباً دينياً.

السير هنري لايارد (مستكشف نينوى ونمرود) الذي كتب في العام ١٨٤٣ عن الجمال الأصيل للأهوار، وفن عمارة القصب في جنوب ما بين النهرين، قال إن

السكان المحليين نظموا "حملات صيد منتظمة للأسود في أطراف المقاصب والأنهار".
وفي أحد الأيام وبينما كان يخلد للراحة مع بعض العرب القادمين من الحويزة إلى شط العرب، بالقرب من هور كبير مياهه مالحة وكثيف القصب؛ أيقظه صراخ عال وصوت اطلاق نار فكتب عن ذلك في مذكراته: "قفزت من مكاني ظناً أننا قد هوجمنا من قبل اللصوص، لكنني سرعان ما رأيت أسداً ضخماً يهرب متباطئاً، بعد أن لاحقه سكان المخيم الذين كانوا يبحثون عن مياه عذبة.. ولحسن الحظ لم يصب بالطلقات النارية، لأنه لو أصيب لهاجمنا. لكنه اختفى ولم نر له أثراً".

وصف لايارد أسود خوزستان وبلاد الرافدين على أنها حيوانات خارقة، قادرة على حمل جاموسة كاملة، وأضاف: "إن الجواميس تغلبت مرة على الأسد حين أدارت ظهورها لبعضها وواجهته بقرونها الضخمة". وقد وصف لبوة قتلت بالرصاص (ربما كان أسداً) قائلاً إن طولها يبلغ عشرة أقدام ونصفاً، لونها أسمر مائل إلى الصفرة، ولبدتُها صفراء فاقعة وسوداء. لم تكن الأسود تتواجد على ضفاف شط العرب ونهر دجلة فقط. فحين سافر شمالاً من الزبير، قرب هور الحمار، قال لايارد لمرافقيه العرب: "يبدو أن هناك أسداً في كل أجمة". تتواجد الأسود في المنطقة منذ زمن طويل. وقد أخبرنا بعض أتباع شيخ البو محمد، وصديق ثسيغر، فالح بن مجيد أنهم يتذكرون سماع زئير الأسود وضوضائها في منطقة العمارة في عام ١٩٥٠. لكنني حين سألت في عام ١٩٧٦ السيد صروط، الذي نشأ في قلعة صالح، والبالغ آنذاك من العمر ما يقرب من التسعين، إن كان سمع هو الآخر زئير الأسود، فأجاب:

- "كلا، لم أسمع قط لكن والدي تحدث كثيراً عن أنه رأى وسمع الأسود في هذه البقاع". الأهوار نفسها، ونظراً لانعدام اليابسة، لا تعتبر مكاناً مغرياً للعديد من الحيوانات. لكن عواء الذئاب مازال يسمع في الأراضي اليابسة لأرياف بني لام، شمال العمارة، وقد شاهد ثسيغر بنفسه بعضها، كما شوهدت حيوانات أخرى كالضباع والقطط الوحشية وغيرها. يقسم عجرم أن ضباعاً من أنواع مخططة كانت تهاجم الأطفال النيام، بل حتى البالغين، بالقرب من مدينة المجر ألكبير. وروى عمارة عن ضبع مزق وجه رجل كان نائماً، ولم يمكن التعرف على جثته إلى من الملابس التي كان يرتديها. إذا ما تركنا جانباً الحيوانات المنزلية كالجواميس والمواشي والكلاب، فإن أكثر الحيوانات المألوفة في المنطقة هي الخنازير البرية، والتي يمثل عددها الهائل كارثة حقيقية. فالخنازير حيوانات ضخمة جداً. بحجم الحمير، وبعرض ثلاثة أو أربعة

أقدام عند الكتف، ويزيد وزنها على ٣٠٠ باوند. عثر الرحالة الإنجليزي المدعو جون جاكسون على بعضها شمالي القرنة في عام ١٧٩٧، وكتب مندهشاً: "الريف هنا غير مأهول إلا قليلاً، كثير الرطوبة والمستنقعات التي يكثر فيها البردي والصفصاف. وحين أطلقت النار على طائر كركي في أجمة من الصفصاف، فرّ قطيع من الخنازير ذوات لون أحمر وضخمة بشكل لا يصدق".

تعيش الخنازير في الأهوار منذ فجر التاريخ كالفئران في الحقول. وهي شبيهة بالخنازير الأوروبية والهندية لكنها أكبر حجماً. فالمنقوشات السومرية تظهر رجالاً يصطادون الخنازير بالفالات، وهذه مجازفة خطرة إذا أخذ بالاعتبار وزن وقوة تلك الحيوانات، وقدرتها في الاستدارة والمباغتة. فالصياد الذي لا يملك غير الفالة. يضع نفسه في وضع بالغ الخطورة في أية مواجهة مع خنزير هائج. فبدون بندقية سريعة الاطلاق، على الرجل أن يكون محظوظاً كي يتجنب إصابة قاتلة تلقيه أرضاً ليتعرض للسحق بوحشية، إن هاجمته أنثى، أو تمزيق بطنه بالأنياب الحادة إن هاجمه ذكر. لقد حدث أيضاً أن الخنازير هاجمت المشاحيف في المياه الضحلة وحطمت جوانبها الخشبية وألقت بركابها جانباً. إن أكثر سكان الأهوار والفلاحين عرضة للمخاطر هم الذين يرتطمون بالخنازير النائمة في الأدغال أو الحقول. كما تصبح أنثى الخنزير أكثر شراسة في الربيع عندما تهجع إلى مأواها لترضع صغارها. فالبرغم من أن الإناث تظهر غير قادرات على الحركة بسبب الوزن، إلا أنها تثب بسرعة مرعبة وتدهم الشخص المتطفل في محاولة مستميتة للدفاع عن فراخها. كتب لايارد في مذكراته عن عرب يلاحقون الخنازير البرية لصيدها على ضفاف القنوات وفي الأدغال.

مازالت الخنازير اليوم ليست فقط في منأى عن الانقراض، بل أكثر عدداً من أي وقت مضى لأن السكان غير قادرين على تغطية نفقات الرصاص الضروري لقتلها. ولإعطاء فكرة مبسطة عن الخراب الذي يمكن أن تحدثه الخنازير في الحقول، ما على الشخص إلا أن يتصور منظر قطيع من أربعين، بل حتى من ستين خنزيراً ضخماً وقبيحاً، وهي تسرح في حقل للرز كأنها أغنام هائلة الحجم. إن أمكن تخيل ذلك، فبالامكان فهم مدى القهر الذي يعانيه أصحاب الحقول. بعض الرجال، مدفوعين بهذا القهر، يثبون على ظهور الخنازير العائمة في المياه العميقة، لإغراقها، إما بالضرب بالهراوة، أو بسحبها من قوائمها الخلفية لخنقها تحت سطح الماء.

في مناطق مختلفة من الأهوار ترى الناس يعرضون آثار اشتباكهم مع الخنازير. فهذه الحيوانات القبيحة هي هاجسهم، وكلما حزمت أمري للذهاب للصيد، تحمس الناس جميعاً وأسرع كل من هو قادر على تفريغ نفسه من العمل في ذلك اليوم إلى زورقه، صبياً كان أم رجلاً، مسلحين بأي شيء ممكن كالبنادق والكسريات والفالات والخناجر، ويبدأ الزحف إلى "المعركة". إن عرب الأهوار، بغض النظر عن فكرة القضاء على أعتى خصومهم، يحبون الإثارة التي تولدها ملاحقة الخنازير. ويمثل قتل أحدها مدعاة لتجمع سكان القرية، ويحصل أحياناً أن يهرب خنزير مرتعب بين الحشد المجتمع ويجرح بعض الناس.

لا تبهت في مخيلتي صورة هذه الحيوانات المقززة؛ هياكل هائلة تعدو على مبعدة أربعين ياردة بظلالها الداكنة، بين جدران من رذاذ متطاير من المياه الضحلة، وهي تنطلق في الهجوم مرفوعة الرؤوس. الضخامة المخيفة لخنزيرة، تظهر فجأة ممددة تحت قدميك وسط البردي الكثيف، والرعب المفاجئ الذي يرافق وثوبها، ثم خفوته بالتوافق مع انطلاق رصاصة مسددة بدقة وفي الوقت المناسب إلى الهدف. أحياناً يكون صيد الخنازير مروعاً ومثيراً ومقيتاً، وفي أحيان أخرى تكون كل تلك الانطباعات مجتمعة. لقد استعملت في الصيد للوهلة الأولى بندقية أعارني إياها ويلفرد تسيغر، وهي من نوع ٢٧٥ ذات السرعة العالية، صناعة جون ركبي في لندن، وأظن أنها أفضل بندقية صيد من عيارها في العالم. ثم اقتنيت لنفسي بندقية خاصة، أقل جمالاً ولكنها تؤدي الغرض. كانت من نوع مانليتشر شوناور ٨ ملم. ثقيلة نوعاً ما ومغطاة بالخشب من المخزن حتى نهاية الماسورة. عرب الأهوار الذين يحبون تسمية الأشياء، يسمون بندقية تسيغر "ركيبي" وهو مصغر الاسم الانجليزي، لكنهم لم يأملوا بتلفظ مانتشيلر ـ شوناور، فأطلقوا عليها اسم "النمساوي".

يستعمل عرب الأهوار أي شيء لقتل الخنازير. فالتدمير الذي تحدثه هذه المخلوقات يبرر القضاء عليها. وهم يفضلون ملاحقة الخنازير في المياه العميقة، حيث يمكن التجذيف إلى جانبها وهي عائمة، ويطلقون الرصاص من مسافة قريبة على مؤخرة الرأس تماماً. ليست تلك بالعملية السهلة إذ يمكن للخنزير أن يستدير ليقلب المشحوف.

أولى مواجهة لي مع خنزير كانت كابوساً حقيقياً. كنت مع عجرم وحفاظ في زورق عندما أيقظنا ثلاثة خنازير متوسطة الحجم، كانت مختبئة في مياه ضحلة

وسط البردي. لم أجرب من قبل إطلاق النار على خنزير. صوبت نحو أحدها خلف الكتفين وأطلقت النار بسرعة فائقة، فأصبته في البطن وخرجت أحشاؤه الداخلية، لكن الرصاصة لم تقتله، بل لم توقفه، وكم كان مرعباً حين هرب مختفياً وسط البردي الكثيف، مطلقاً صراخاً رهيباً، لربما يموت بعد ساعة أو ساعتين على الأكثر. تعلمت بعد ذلك أخذ الحيطة القصوى حول مدى وكيف يجب التصويب، وشكراً للإله لم تتكرر تلك المحاولة البائسة معي. إن الخنازير حيوانات ضارة يجب بالتأكيد تقليل عددها. وقد تعرضت مرة للتعنيف من قبل عرب الأهوار حين أشحت بوجهي بعيداً عندما قتلوا بالفالة الخنانيص، التي عثروا عليها في وِجار مهجور، وقلت إنها حيوانات بريئة. إلا أنهم أجابوا بنفاد صبر:

- "أتريدها تكبر لقتلنا؟".

- "كلا بالطبع، ولكن...".

إن أخطر شيء أثناء صيد الخنازير هو إيقاظها في المقاصب الكثيفة. إنه لأمر مرعب أن توقظها على اليابسة أو في البساتين الصغيرة أو الأدغال التي تقع على ضفاف الأهوار، حيث تلتف القنوات حول المزارع أو المراعي. تزحف الخنازير إلى هذه الواحات وتتمدد في ظلال الشجيرات البرية وتنام. لا تمكنك رؤيتها وهي نائمة إلى أن تدوس عليها. وما سيحصل في الثانيتين اللاحقتين - لا أكثر - هو إما أن تجد نفسك تحتها، وإما أن تلوذ بالفرار مرتعبة.

اعتدت التقدم في أدغال الخنازير تلك وفق خطة مرسومة. فأنا مسلح ببندقيتي وإلى يميني إلى الخلف قليلاً وببنادق معبأة حفاظ وحسن بن مناتي، أو أحد معارفي الآخرين ممن يجيدون التصويب. في أحيان أخرى قد يتواجد معنا شخص مسلح بفالة لصيد السمك أو بخنجر، ولكن لا يمكن الاتكال عليه كثيراً. في إحدى المرات ظهر من الأدغال خنزير ضخم، رافعاً ذنبه مخفضاً رأسه، وراكضاً باتجاهي مباشرة من مسافة ثلاثين قدماً لم يكن لدي وقت كاف للتسديد ومرت رصاصتي فوق رأسه فاستجمعت عزيمتي وهيأت نفسي لصدمة، تقض عظامي في مكان ما قرب خاصرتي، مع خنزير يزن حوالي ٣٥٠ باونداً. جاءني صراخ حفاظ كأنه قادم من مكان ناء:

- "دير بالك".

وهي نصيحة لم أكن بحاجة إليها على أية حال. ولكن الخنزير وبأعجوبة

انحرف على يميني ومر بيني وبين حفاظ كأنه قذيفة مدفعية. مس رجلي فشممت رائحته النتنة، وإندفع جانباً كجبل مشعر بعضلات بارزة وأنياب حادة، واقتحم الأدغال الكثيفة القريبة، فيما ذهبت رصاصات حفاظ أدراج الرياح بين الأشجار، وبقينا نحدق ببعضنا مندهشين ونحن نحاول التقاط أنفاسنا من جديد.

في وقت آخر أقعى حسن، وإن بطريقة غير سليمة، على ركبته عندما هاجمني خنزير وأوقف هجومه المميت بإفراغ خزانين من كسريته فيه بسرعة فائقة. قد يولد ذلك انطباعاً بأن قتل الخنازير هو عمل سهل. ببساطة يجب التسديد بدقة لكن الأمر أكبر من ذلك. فمن الممكن أن تصيب خنزيراً سريع العدو لكن ذلك لم يمنعه من الهجوم، لذا فأنا أتوقف دائماً عن ملاحقة الخنازير بكسرية واحدة.

إن عرب الأهوار شجعان في أوقات الأزمة. ففي إحدى المرات هوجم ثسيغر وطاقمه عندما كان زورقهما راسياً، ليس من قبل خنزير واحد فقط بل من قبل خنزيرين ضخمين. بدا الخنزيران برأسيهما المنخفضين وسناميهما الكبيرين، مندفعين كأنهما يريدان القفز إلى الزورق، وتطلب إيقافهما خمسة إطلاقات دقيقة من ثسيغر. وعندما سقطا عند قدميه مضرجين بالدماء والطين، التفت ثسيغر إلى رفاقه فوجدهم متحفزين وقد استلوا خناجرهم فسألهم عما يمكنهم عمله لو أن الخنزير قفز إلى الزورق؟. فأجابه عمارة:

- "سنقتله بالخناجر".

بالكثرة نفسها ربما تتواجد الجواميس في الأهوار، لكنها محبوبة بقدر كراهية الخنازير البرية، وهي ما تنفك تتحرك بتثاقل في المستنقعات والأراضي المنبسطة لجنوب العراق كأنها نماذج مكررة لإفريز قديم. أتذكر مرة في إحدى الليالي، خرجت من دار صحين إلى دكة الجواميس لقضاء حاجة، فسمعت صوتاً خافتاً تناهى لي عبر صمت المياه، ينطلق في الظلمة من أحد الأكواخ على مبعدة خمسين ياردة. لم أتمكن من الرؤية بسبب الظلام. خيل إليّ أن شخصاً ما يغني لكن بطريقة متوجعة غريبة وشجية - كان الوقت متأخراً للغناء. عندما سألت، في صباح اليوم التالي، عن ذلك الصوت الغريب، قيل لي إنه صوت عجرم حين كان يواسي جاموسة مريضة تحت النجوم للترويح عنها. وحين جاء عجرم أكد لي ذلك. لقد كان ذلك شيئاً مألوفاً، كما قال، بالرغم من أن الحيوان المسكين لم يشف من مرضه العصي على التشخيص ومات قبيل الفجر، فسألته:

ـ "ماذا كنت تقول؟".

ـ "أي شيء يخطر ببالي" أجابني عجرم.

تلحق عادة ببعض البيوت سقيفة خاصة بالجواميس تسمى "سترة"، تكون على الجزيرة نفسها لكنها منفصلة عن البيت. مع ذلك فبعض الجواميس ينام خارج الباب الرئيسي. أحياناً يسمح لصغار الجواميس والعجول بدخول البيت. كما يحصل أن يوقظك في الليل شخير حيوان فضولي يرن في أذنك متشمماً، أو رفسة جاموس مهتاج. الغريب أنه لا يبدو أن أحداً جرح أثناء نومه مطلقاً ولا أعرف سر ذلك.

تتمتع الجواميس، لرداءة طبعها، بحياة كسولة. ففي الصباح الباكر من كل يوم، تقوم النسوة بإيقاظها تلك الحيوانات الضخمة، والتي غالباً ما تحتج بخوارها ضد هذا التطفل على حياتها الخاصة، لتقضي بقية يومها في الرعي. إن أولئك النسوة السليطات يجبرن كذلك أزواجهن العنيدين على مغادرة البيت وبدء العمل. تساق الجواميس بالعصي والصراخ والشتائم كي يمكن تحريكها على أنغام خوارها إلى الحافة فتهبط بحركة بطيئة إلى الماء وتحدث موجاً عنيفاً يهز الزوارق الراسية.

تقضي أميرات الكسل هذه يومها بالغطس في المياه الباردة وأكل العلف والتجول حيثما تشاء، غير آبهة بإنسان أو حيوان. تعوم بسهولة في المياه العميقة وتشق طريقها وسط أحواض القصب فتخلف مسارب مائية سرعان ما يستعملها عرب الأهوار في تنقلهم. تنظر إلى العالم ببلاهة وبعيون متلألئة ذوات أهداب طويلة ومناخر تبقى دائماً فوق سطح الماء. من المألوف أن ترى جواميس غاطسة تماماً ما عدا المنخرين. من الممكن للطيور، أو حتى الأطفال، أن تقف على ظهر جاموسة واقفة، دون أن تأبه لها. في الشتاء تصبح المياه باردة، فتقضي الجواميس يومها بالخوار والشكوى وعلف الحشيش الذي يقدم لها مثلما يوضع طاووس مشوي أمام الأميرة. حتى في أيام الصيف تخرج العائلة ـ الرجال والنساء والصبايا والأولاد ـ لقص الحشيش وجلبه للجواميس، التي قد تكون قضت النهار كله في الرعي في المقاصب. وفي الحقيقة، فإن ما يتم الحصول عليه من حليب وزبدة ولبن، إضافة إلى أطنان الروث المستعمل كوقود، يستأهل الجهد الذي تبذله العائلة.

تتمثل قيمة الجواميس لدى عرب الأهوار من الأسعار التالية، التي سجلتها عام ١٩٧٦: سعر الجاموس ١١٧ ديناراً عراقياً، وسعر الذكر العجوز ٧٦ ديناراً، صغار الجاموس تباع بـ ٣٥ ديناراً للواحد. تملك عوائل المعدان المستقرة مابين

ثلاث إلى ثماني جواميس، لكن عوائل الرحل في الأهوار الشرقية يتنقلون بقطعان كبيرة ما بين غرب دجلة إلى الحدود الإيرانية. في الماضي عندما كانت سرقات الجواميس ممارسة مألوفة، أدت إلى قتال مستمر وسفك دماء وإنتقام بين العشائر. بالرغم من ذلك فإن مظهر الجواميس بأشكالها السوداء وأجسامها الضخمة يدعو للأسى. فأية حيوانات مسالمة هي قبل كل شيء وكم مفيدة. إنها عرضة للأذى والأمراض على الرغم من ضخامتها. تنتقل الأمراض إليها من الخنازير البرية، وهي تضع صغارها في الماء، وإذا ما تعرضت للإزعاج فإنها تمرض بسرعة. إنها بحاجة إلى رعاية دون شك، فهذه الحيوانات، بالرغم من مظهرها الغريب، هي عماد حياة الأهوار وهي تعيش بوئام مع الطبيعة.

لا يوجد سوى القليل مما يمكن قوله عن الحيوانات الأخرى التي تقطن الأهوار ـ كالأبقار مثلاً أو القطط أو الأغنام، التي استطاعت العيش في أكواخ المعدان. على أية حال، فإن كلاب الأهوار تستحق الإشارة بسبب عدوانيتها الشرسة ونباحها الذي يصم الآذان ويمزق هدوء القرى في الأهوار ليلاً ونهاراً. فإطلاق رصاصة عابرة أو صرخة أو ظهور مشحوف على أطراف الهور يحمل رجلاً غريباً، وأحياناً يكفي خوار جاموسة محبوسة خلف أحد الأكواخ ليطلق اللحن المسعور لنباح هستيري. نباح فظ وعنيف أو زئير مكبوت أو عواء مستمر دون انقطاع لالتقاط الأنفاس، يختلط كدوي قصف مجنون ويجعلك تغطي رأسك وتصلي للصمت أن يعود. أحياناً يبدو أن دهراً قد مر قبل أن تؤوب الكلاب وتخشع للنوم لتمنحك فرصة للاستماع لحفيف القصب الذي تعبث به الرياح أو لنقيق الضفادع.

كلاب الأهوار هذه لا تنبح فقط بل هي في غاية الشراسة. وحين تهاجم الغرباء تبدو كأنها تسعى إلى قتلهم، ولن يوقفها عن ذلك إلا شخص معروف لديها. توجد في أقطار الشرق الأخرى مجاميع من كلاب الحراسة، وعليك أن تكون حذراً منها أيضاً عندما تقترب من إحدى القرى في تايلند أو الهند مثلاً. لكن كلاب القرى الجنوبية في العراق هي من صنف شرس مختلف. أعتقد أنها أكبر حجماً من مثيلاتها في البلدان الأخرى. كما تبدو أنها أضخم وأقوى عند الرقبة و الكتفين: رغم أنها ليست أطول من الكلاب الهندية ، إنها تتقاتل بشراسة فيما بينها ، فيشتبك أربعة أو خمسة منها في عراك مستميت ، وتسفر معاركها عن جروح في الرأس أو قطع الأذن أو فقس عين. وهي قد اعتادت على الضرب بالعصا أو الحجارة

من قبل أفراد العائلة التي تملكها (من الصعب السيطرة عليها بطرق أخرى) . إنني أتجنب تماما تمسيد أي كلب منها مهما بدا وديعاً وبغض النظر عن وجود صاحبه قربي .

في إحدى المرات ، وكنت خارجاً من بيت السيد صروط إلى قرية ليست بعيدة ، وجدت نفسي محاطاً بمجموعة من الكلاب المسعورة ـ أظن أنها كانت بحدود اثني عشر إلى خمسة عشر كلباً. فاجأتني كأنها حشد من النحل في حالة هجوم. ولكن ، وبعناية إلهية، وجدت قربي رجلين من القرية قادمين بالاتجاه المعاكس، فركضا نحوي صارخين بالكلاب، التي كنت أحاول زجرها بصعوبة برشقها بالحجارة والتراب. كنت ألمح الغضب العارم في عيونها ومخالبها. قفز عليّ أكبرها حجماً بغرض تمزيقي إرباً إرباً، لكنه لم يستطع الوقوف في الوقت المناسب، فاصطدم بي مثيراً زوبعة من الغبار. كانت صدمة موجعة في ساقي، ومن حسن الحظ أنها أرعبته، بالقدر نفسه الذي أرعبتني، فتراجع ليواصل الهجوم من مسافة معينة. تمكن الرجلان من زجر الكلاب التي كان بإمكانها قتلي.

على الرجل أن يكون سيء الحظ فعلاً إذا ما وجد نفسه بمواجهة نوعين خطيرين آخرين يعيشان في الأهوار وهما: أسماك القرش، وهي نادرة، والأفاعي، وهي جد مألوفة، وتحاول غالباً تجنب الإنسان بدلاً من مهاجمته. لقد شوهدت أسماك القرش في الطرق الملاحية في البصرة ـ هذا ما أخبرت به عندما كنت هناك ـ ولكن السكان المحليين يتداولون أنباءً عن هجومات وقعت ضد المستحمين في شط العرب. يتحدث الناس كذلك عن أن هذه الأسماك شوهدت في مناسبات نادرة في أعلى دجلة وحتى بالقرب من بغداد. لكن القصة التي رواها أحد زملاء الجنرال جيسني عن قرش بطول ١٥ قدماً شوهد في الفرات قرب القرنة، بدت غير واقعية:

ـ "قرش؟ إن الحوت أكثر احتمالاً" ردّ الجنرال مندهشاً.

لقد سمعت عرب الأهوار، بين الحين والآخر. يتناقلون خبر مشاهدة أسماك قرش صغيرة الحجم في الأهوار. إن هذا ممكن في أوقات الفيضان، لكنني أعتقد أنه من غير المحتمل أن ترى إحداها.

تكثر الأفاعي في الصيف خاصة ـ على المرء أن يكون دائم الحذر. فلدغات النوع المسمى بالعربيد قاتلة. في أحد أيام الصيف كنا في طرادة قرب بحيرة الديمة؛ فجأة صرخ جبار من المقدمة:

."دير بالك، عربيد... خلينه نقتله".

اعتقدت أنه رأى أفعى في القصب ويريد أن يقتلها. لكن رجلاً آخر كان يجمع العلف سبقه وقتله بفالته. رفع جبار العربيد بنهاية المردي فظهر شكله المفزع، وكان بطول أربعة أقدام وبطن ناصعة البياض. أحياناً تلف أفاعي الأهوار هذه ذنبها حول سيقان البردي وتبقى معلقة في الشمس. يعتبر العربيد بطول أربعة أقدام صغيراً مقارنة بالأفاعي الضخمة التي تتجول في غابات القصب. يميل لونه إلى الحمرة وسمكه بحجم ذراع رجل، وهو يزحف متخفياً في الأدغال، وليس غريباً أن يخافه عرب الأهوار. فهو من الأشياء التي لا تود رؤيتها ولو في الحلم. اخترع عرب الأهوار في الماضي كائناً خرافياً على شكل أفعى وبخصائص غير طبيعية سموه "آفة" أو "غنفيش". اليوم فهم ببساطة يحذرون الدوس على كائن واقعي هو العربيد، وهو كما أظن نوع خبيث من الأفاعي.

لقد تركت الطيور إلى النهاية. فهي تمثل قمة جمال الأهوار التي تتلون مقاصبها ومياهها منذ شهر تشرين الثاني حتى بداية الربيع بألوان مبهجة لطيور الرفراف؛ وسماؤها بالعقبان المحلقة وأسراب الإوز القادمة من سيبيريا والبط البري بأنواعه المختلفة. الصيف ليس وقتاً ملائماً للطيور، لأن أغلبها يهاجر في نهاية الربيع. ترى غاقة مشؤومة المنظر تحلق على علو واطئ عبر المياه. تقطن الأهوار سنة بعد أخرى أعداد من طيور مالك الحزين بمختلف الأحجام، بعضها بحجم رجل. ويروى حسب تقاليد عرب الأهوار، أن أسراب مالك الحزين كانت تنام بعد أن تختار أحدها للحراسة. وللتأكد من أنه يبقى يقظاً، فعليه أن يتوازن على ساق واحدة، سانداً ساقه الأخرى على الركبة، فإن غلبه النوم يسقط حالاً. والويل له إن نام أو سقط لأنه سيكون عرضة لهجوم الطيور الأخرى التي تنهشه بمناقيرها حتى الموت، أو هذا ما اعتقده عرب الأهوار.

في الشتاء تكون السماء صافية فتمتلئ بأعداد هائلة من الطيور. تمكنك رؤية كل أنواع البط النهري والبري والحذاف، والغطاس؛ إضافة إلى طيور النورس والهدهد والباز الأحمر والنكّات والطيور الصداحة من كل نوع مختفية وسط البردي تشدو دون خوف، والرفراف المرقّط، والحسّون واللقالق ذوات المنقار الأصفر. العقبان المحلقة في السماء، ومنها العقبان البحرية ذوات الذنب الأبيض، مألوفة وتتكاثر في أحواض القصب. وهناك طائر كبير ومفترس يسميه عرب الأهوار "الحوم" وهو ليس نسراً

ولا صقراً؛ له جناحان عريضان داكنان باتساع مدهش كأنهما مظلة، وهو دائم التحليق فوق المقاصب بحثاً عن فريسة من الزرازير أو دجاج الماء؛ وما إن يرى أحدها حتى ينطلق نحوها بسرعة فائقة مدفوعاً بقوة جناحيه وجسمه. رجال القبائل الذين يخرجون لصيد الزرازير ولم يحالفهم الحظ، يصوبون على الحوم على أمل إصابة طيور غير مرئية.

غالباً ما تصبح مياه الأهوار مظلمة من كثرة الزرازير. تنطلق العقبان باتجاهها لاخافتها بهدف تفريقها ومن ثم افتراسها. فهي تحب افتراس هذه الطيور الشهية في الجو. ولكن وبالرغم من أن الزرازير معروفة ببلادتها، إلا أن لديها من الحكمة ما تدرك به حيلة العقبان تلك. فعندما يبدأ العقاب مهمته، تحتشد الطيور باقترابها من بعضها أكثر فأكثر، وتنشر أجنحتها لتكون جداراً كثيفاً يكفي لكي يقنع العقاب بتغيير رأيه والذهاب للصيد في مكان آخر.

اعتاد عرب الأهوار على دفعي لصيد أكثر الطيور ألفة في الأهوار: البجع. لكني أرفض ذلك باستمرار. فالبجع طائر مسالم، وذو مظهر جليل يسهل صيده، ويشبه إطلاق النار على البجع اغتيال حشد من الرهبان. على أية حال فإن لحمه لا يؤكل؛ لكن رجال القبائل اعتادوا على استعمال جلد الرقبة المطاط في صنع أفضل أنواع الطبول. البجع طائر ضخم، وهو يشبه سفينة حين يعوم بكبرياء، نظراً لبياضه الناصع، وصفرة منقاره المنعكسة على صفحة الماء. كم يكون منظر البجعات رائعاً وهي تتصيد بالمئات في المياه الضحلة في أوقات الغروب وتنبش بمناقيرها فتبدو كأنها بحر من البياض المتحرك يتحول خلسة إلى القرنفلي مع الغسق. وحين تحلق وتنشر أجنحتها تضفي تلك الطيور المبهجة على آماد الماء والقصب والسماء الشاسعة لمحات سحرية أخاذة.

من بين كل الطيور والحيوانات، فإن صور الأوز والبط لابد أن تعلق في الذاكرة. فأسرابها البرية المحلقة في الجو والقادمة من غابات التندرا الروسية، تحمل الكثير من روحية الأهوار. وهي عندما تهتاج في الأفق، وقت الظلام، تخترق الغيوم، كالدخان أو النحل أو الجراد؛ عبر سماء مسائية لؤلؤية مرقطة بألسنة من الغيوم المتوهجة. وعندما يحل الظلام وتخمد ضوضاء القرية، يأتي نداء الأوز من الحقول، معلنا أن قد حان وقت الصمت لإفساح المجال للمخلوقات البرية لامتلاك عالم الأهوار لنفسها.

العودة إلى الأهوار

زرت الأهوار للمرة الأولى في بداية عام ١٩٥٢ كما وصفت، ورجعت إليها مرات عديدة ولمدة أطول بكثير، بعد أن تركت عملي في شركة رالي برذرز RALLY BROS.غادرت العراق بعد ذلك لمدة سنتين في سفرة غير منقطعة في هضاب جنوب ـ غربي العربية السعودية؛ من رمال وجبال الطائف والبيشا ونجران وعسير، إلى وديان الملح الرطبة لليث وجزان على ساحل تهامة. في العام ١٩٥٦ طرت راجعاً إلى البصرة في طريقي إلى الوطن لقضاء عطلة في لندن، فالتقيت، لوقت قصير وسعيد مع المعدان.

لقد سهّلت لي معايشتي لعرب الأهوار التأقلم على طريقة الحياة القاسية لعشائر البدو وسكان هضاب شبه الجزيرة. من حيث الطبيعة فالمنطقة التي عشت فيها في العربيا ـ مغبرة وجافة إلى الشرق، أما إلى الغرب فجبال ساحرة بجداول جارية وحقول، والسهل الذهبي لساحل البحر الأحمر ـ لكنها لا تشبه أهوار العراق بشيء مطلقاً. اللهجتان العربيتان مختلفتان أيضاً. أنا أنظر الآن إلى تلك الشهور في العربيا بإعتبارها أجمل ما في حياتي، لكن عرب الأهوار هم الناس الذين تعرفت عليهم أولاً ـ وهذا يمثل من حيث العاطفة فرقاً أساسياً.

لقد حدث، وتقريباً حال وصولي إلى لندن لقضاء تلك العطلة القصيرة في عام ١٩٥٦، أن انفجرت أزمة السويس كبركان سياسي، فأصبح البريطانيون بين ليلة وضحاها منبوذين في الشرق الأوسط، وأضحى من المستحيل الرجوع للمنطقة كرحالة. كنت تركت حقائبي وكتبي هناك. تركت أصدقائي العرب دون كلمة وداع، ولم تكن الكتابة اليهم ممكنة لأنهم لا يجيدون القراءة والكتابة، إضافة إلى عدم وجود عناوين ثابتة لهم. أصبح موضوع عودتي إلى العراق أكثر استحالة بعد أن

حدثت ثورة في بغداد أطاحت بالملكية وأقحمت البلد في عقد للاضطراب السياسي. مضت سنون عديدة قبل أن يمكنني حتى التفكير جدياً بالعودة إلى الأهوار. أصبحت مراسلاً للشؤون الدولية في الأوبزرفر، شاهدت أجزاءً مهمة من العالم، وكنت شاهد عيان للعديد من الحروب والانتفاضات، وأصبحت متعلقاً بأماكن أخرى وأناس آخرين. بالرغم من ذلك فإن حلم العودة إلى الأهوار لم يبارحني مطلقاً.

ينصحني بعض الأصدقاء العقلاء بين الفينة والأخرى بنسيان عرب الأهوار:

- "لا ترجعَ هناك أبداً" كانوا يقولون.

ولربما كانت تلك نصيحة نافعة في أغلب الأوقات. لأنك إن عزمت الرجوع، بعد سبعة عشر عاماً، إلى مكان ما كنت تحبه فلا شك أنك تبحث عن الخيبة. صحيح إن ذكرى الحب الأول نادراً ما تخبو. لكن الخطر ينبع من أن الزمن قد يحرف الذكرى إلى حالات غريبة وخادعة.

وهكذا وعندما أجابني موظف حكومي في بغداد، في العام ١٩٧٣ قائلاً:

- "نعم بالطبع، بإمكانك مشاهدة الأهوار ثانية".

لم أتردد للحظة إلا في السيارة على الطريق جنوباً باتجاه العمارة من بغداد، حيث بدأت أقلق. كنت أعرف أنه قد حدثت تغييرات. فالشيوخ (أو أغلبهم) فقدوا ملكياتهم، ووسائل التحكم بجريان المياه قد تكون قللت من مساحة الأهوار ووزعت الأراضي على الفلاحين. ولكن كلما اقتربت سيارة الأجرة الشفروليت من الأهوار، أخذت أتخيل حدوث تغيرات قاسية. ماذا لو جففت الأهوار كلها؟ ماذا لو أن جميع الناس الذين عرفتهم هاجروا إلى المجهول للعمل في بغداد أو الكويت؟ ماذا لو أنهم ماتوا؟. في الحقيقة اقترحت التوقف والرجوع إلى بغداد لكن السائق نظر إلي كأنني مجنون. وكان ذلك بالنسبة إلي سيعني تراجعاً مخزياً.

بعد أن اجتزنا دجلة في مدينة العمارة انبسطت أمامي السماء والمشهد الطبيعي بالضبط كما كنت أتذكر. توقفت السيارة على حافة الماء في المكان نفسه الذي قابلت فيه ثسيغر بجانب الطرادة تقريباً قبل واحد وعشرين عاماً. كانت تلك لحظة مؤثرة. لأني وخلال دقائق سأعرف إذا كان من الأجدر الاستمرار. الأخبار ستأتي من مركز صغير للشرطة يقع إلى الأمام على الطريق المائي الذي أراه أمامي - بناء يضم عريفاً وأربعة رجال شرطة. ما بعد هذا المركز لا شيء عدا الأهوار. رجال

الشرطة "يحرسون"، على الأقل نظرياً، الأهوار الممتدة إلى الجنوب من المركز. وهم إذاً قادرون على نقل الأخبار إليّ سواء كانت سارة أم محزنة.

تركت السائق في السيارة وترجلت باتجاه البناء المطلي. ظهر شرطي لمقابلتي عندما اقتربت. كان بديناً في الخمسينيات من العمر وبذقن غير حليق يلبس جاكيته الخاكي فوق الدشداشة. نظر إلي بفضول فحدقت أنا خائفاً بذقن ولحية الرجل الذي سيتنبأ لي بالمستقبل.

ـ "مساء الخير".

ـ "مساء الخير".

صافحني وكان لا يزال ينظر إلي بثبات وقال:

ـ"آه. ألم أرك سابقاً؟"

ـ "حسناً، ربما كان ذلك قبل عشرين عاماً".

ـ "نعم، منذ سنين طويلة. كنت تجيء مع أجنبي آخر واعتمدتما الذهاب إلى الأهوار".

شكراً للإله لم أنس بعد اللهجة العراقية كلها.

ـ "نعم هذا صحيح".

قلت ولم تكن تلك اللحظة مريحة بعد، بل كانت لحظة للحقيقة.

ـ "هل تعرف ما الذي حدث لأصدقائي؟ أعني صحين وعمارة وحفّاظ أخي صحين؟".

ـ "تعني في الكباب".

واستغرق وقتاً طويلاً بإشعال سيكارة أخرجها من علبة حمراء وبيضاء، بقداحة عتيقة اشتعلت بصعوبة.

ـ "نعم هناك وفي الأماكن الأخرى".

ـ "ئي نعم لا زالوا هناك".

قال ببطء وهو ينفث الدخان وأضاف:

ـ "صحين، نعم وعمارة. يمكن حفاظ مات. لست متأكداً..."

فهزني الخبر:

ـ "هل يمكنني تأجير مركب؟".

أجفلت لهفتي رجل الشرطة ـ لم يكن يعرف أني شعرت برغبة جامحة

لمعانقته للأخبار التي أبلغني إياها.

ـ "نعم هذا الزورق البخاري".

قالها بشك مشيراً إلى مركب بالٍ بسقف خشبي يطفو على الماء فيه رجل بدشداشة رثة وولد صغير ملوث بالزيت يحمل مفتاح براغي، ينحني على صندوق المحرك وهو يحاول تصليح شيء ما. أسرعت بسؤال الرجل:

ـ "بكم تذهب إلى الروفية؟".

فنظر إلى الأعلى وقال:

ـ "لا أذهب إلى الروفية مرة أخرى إلا في الصباح".

بالفعل كانت الشمس تهبط عبر الأفق والظلام كان سيحل بعد ساعة ونصف على أبعد تقدير.

ـ "انظر القضية مستعجلة ويجب أن أصل هذه الليلة. مهما كانت الأجرة سأدفع لك ثلاثة أضعاف".

ـ "ثلاثة أضعاف؟ حسنا. اجلب حقائبك".

ثم فكر لحظة وقال:

ـ "ولكن علي أن أرجع في الظلام وبدون ركاب".

ـ "سأعطيك أربعة أضعاف الأجرة".

قلت له، فأجاب:

ـ "هيا اركب".

ركض الصبي الملطخ بالزيت وأطلق رباط المركب، ودمدم المحرك بضربتين سريعتين من مقود التشغيل فانزلق المركب بعيداً عن الجرف.

ـ "سلم لي على عمارة. أخبره بأني قادم لرؤيته قريباً".

قال رجل الشرطة البدين.

ـ "سأعمل ذلك، أنا مدين لك بألف شكر".

ـ "على ماذا؟".

هز كتفيه بلا مبالاة، وأدار وجهه باتجاه المركز حيث كان هناك مذياع صغير ينقل نتائج مباريات بكرة القدم في بغداد.

لا يمكنك أن تزيد من سرعة زورق بخاري قديم مهما فعلت. توقف المحرك مرتين في وسط النهر، وببطء عالجه الرجل ومساعده بقضيب معدني كانا يدخلانه

في محركه، ولم تكن لدي طاقة على تحمل ذلك التوقف. لكننا ببطء وبثبات تحركنا باتجاه منعطف قناة الوادية الذي مازلت أتذكره جيداً. كان الماء عكراً يجري برشاقة كما كان من قبل. طيور الرفراف المرقطة تتقاذف إلى الماء من أغصان أشجار الصفصاف كما كانت دائماً. سلاحف بلون الغرين تنزلق كالعادة إلى جحورها في لحظات انجراف موجات الماء نحوها. الحشائش المقصوصة نفسها تغطي جرفي القناة. الشمس البرتقالية الغاضبة تنحدر ببطء في مساء بنفسجي مضبب.

كانت هناك تغييرات مرئية. نظرت إلى هيكل بناء شاهق ظهر خلفنا في الأفق فقال سائق المركب عندما لاحظ ذلك:

-"هذا مصنع السكر الجديد".

وعندما مررنا في مفرق على القناة حيث حللنا أنا وثيسغر في مضيف الشيخ فالح - الآن هو مكان مقفر تتراقص فيه سحب من الذباب على ضوء المساء، قال:

- "كان الشيوخ يسكنون هناك".

- "نعم أتذكر ذلك".

كان الجو معتماً حين مررنا بجانب المضيف الكبير للسيد صروط سألت:

- "هل السيد صروط مازال هناك؟"

- "نعم مازال".

لكنني كنت أريد الوصول إلى عمارة في تلك الليلة. تجاوزنا طرادة جميلة الشكل مربوطة إلى شجرة صفصاف تابعة للسيد. كان هناك نباح كثير من كلاب السيد صروط حين انحرفنا إلى اليمين باتجاه قناة الروفية. اختفى الضياء حينذاك. انزلقنا في الروفية. الطريق مظلمة من الأشجار المحصورة بين ضفتي القناة وتبدو ضبابية وخطرة. رأيت مرة أخرى حشداً طويلاً من بيوت القصب والحصران المقوسة ممتدة على جانبي القناة بين الحقول المحصودة للقمح والرز. خفف السائق سرعة الماكنة فقل انجراف الماء. أصبح البصيص الضعيف للأبواب المضيئة أكثر وضوحاً. اندفعت الكلاب الأولى باتجاهنا فيما تحركت إلى الجرف شخوص معتمة خلل اللهب الأزرق لنيران المساء، فقلت:

-" الروفية، هيا إلى بيت عمارة".

كان عمارة المرافق المفضل لثسيغر. احتفظت له من كل تلك السنين الماضية

في البصرة، برؤية كشخصية نحيفة صغيرة حينما قدمه ثسيغر وهو يبتسم بوقار، ثم وبكياسة مماثلة قدم لي حفنة من كعك هانتلي وبالمر من صندوق فضي كان موضوعاً على منضدة القنصل البريطاني. قابلته بعد ذلك في طرقات الأهوار المبهمة في كل مرة كنت أقابل فيها ثسيغر. افترق عن ثسيغر إلى الأبد في عام ١٩٥٨. أما أنا فلم أرَ عمارة منذ عام ١٩٥٦.

- "هذا بيت عمارة".

قال سائق المركب بلا مبالاة.

رسونا على الجرف فقفز الصبي إلى اليابسة برباط المركب، فيما نهرالناس الواقفون هناك في الظلمة، الكلاب المزمجرة. ثمة أصوات "السلام علكيم" وأمسكت يد قوية بيدي لمساعدتي للقفز إلى اليابسة، وأنزل سائق المركب حقيبتي. رحب بي عدة أشخاص ولكني لم أستطع التعرف على أي منهم. ثم رأيت عمارة حين أضاءت وجهه ومضة من اللهب من نار مشتعلة (كان الطقس دافئاً وكانوا يتناولون الشاي خارج البيت). كان وجهاً طويلاً ونحيفاً، بل متعباً، بشاربين أسودين أنيقين. إنه أطول الآن، وكما هو الحال معي، فقد كبر كثيراً. عرفته حالا من عينيه العميقتين والحزينتين، أو قل عينيه المسبلتين. لكني أحسست أنه لم يتعرف بعد عليّ بالرغم من همهمته ومصافحته لي مرحباً. في تلك اللحظة عندما استدار لتحضير الشاي لنا صحت به بالإنجليزية:

- "عمارة، أنت يا ولد يا أثول".

وكانت تلك العبارة الإنجليزية الوحيدة التي تعلمها عمارة وهي التي اعتاد على سماعها من ثسيغر حين يغضب تحت ضغط التطبيب، أو عندما يسقط عمارة حقنة ما أو يناوله خطأ علبة دواء. وحصل أن أصبحت عبارة للمزاح مع كل أصدقائنا العرب. تجمد عمارة في مكانه عندما سمعها وكان ظهره إليّ، فاستدار فاتحاً عينيه وعلى وجهه تعابير دهشة وفرح لا أستطيع نسيانها إلى الأبد.

- "صاحب".

وخطا باتجاهي وأمسك يدي بخفة وقال:

-"كان ذلك زمناً طويلاً، زمناً طويلاً".

-"عشرون عاماً يا عمارة يا ولد، هل نسيت؟".

- "كلا، كلا! لم أتمكن من رؤيتك في الظلام. لم أنسك مطلقاً".

أخذني للجلوس على البساط الملقى قرب النار. وبدت الأشياء آنذاك مختلفة. تشبع الجو بالإثارة كالكهرباء. كبر الحشد والارتباك. صاح رجل:

ـ"حضروا القهوة، وهات المقاعد".

كان هناك نباح كلاب تطرد بانزعاج. أناس يفدون من بيوت بعيدة، وطرطشة ماء من مجاذيف الزوارق. جلست مندهشاً في مركز زوبعة بشرية غير قادر، إلا بصعوبة، على الإمساك بمكاني فيما راح عمارة يمسك يدي ويسأل:

ـ "كيف حالك؟ وكيف ثسيغر؟ أين هو الآن؟".

ثم ومن بين الزحام أطل وجه حسن ابن محيسن مشعاً وكرر الأسئلة نفسها:

ـ "كيف وصلت إلى هنا؟ ومن أين أتيت؟".

أحاط الناس بسائق المركب ومساعده وهم يستفهمون، وراح السائق يشرح كيف وجدني وجلبني، وكيف أني رفضت الانتظار حتى الصباح، أو التوقف عند السيد صروط في طريقنا، وأنه بنبل وافق على إيصالي، على الرغم من تأخر الوقت وحلول الظلام، وهو الآن مضطر إلى العودة لأنه متعب وكذلك مساعده... وحسناً... وبالطبع سيتناول كوباً من الشاي... والله يطول عمرك...

حضر في تلك الليلة حشد كبير من الناس، سواء من الروفية أو من القرى الأخرى في الأهوار. جلسنا وشربنا شاياً وقهوة ثم مزيداً من الشاي. صار بإمكاني أن أرى عيني عمارة المندهشتين مصوبتين نحوي. جلب أطفاله الصغار لمصافحتي وشرح لهم بعناية من أكون ومن هو ثسيغر وأين سافرنا معاً، وسأل:

ـ" هل ثسيغر في أفريقيا حقاً؟.. ياسبحان الله، أنت لا تبدو كبيراً في السن، لست أكبر مني في الأقل".

استغرق فيما بعد بالتحادث بصوت عال وحركات إيمائية كثيرة مع حسن واثنين من جيرانه: فرحان وعيدان، ولدي زغيّر، ثم التفت وقال:

ـ "غداً سنستعير طرادة سيد صروط، إنها ممتازة، وسنذهب في الهور كما كنا أيام زمان. هل تتذكر صحين؟ سنذهب إلى الكباب لرؤيته وتمضية وقت طيب معه".

لا يمكن أن يكون هناك شيء أجمل من هذا. تحدثنا تحدثنا، وفي الأخير بدأ الحشد بالانحسار. كان يوماً طويلاً. سحبت البطانيات التي أعطاني إياها عمارة

وتمددت. حدقت بسرب النجوم العالية. أحسست بالنسيم الدافئ من الأهوار القريبة غير المرئية، وعاد لي يقيني القديم بأني سأتمكن من أن أشم رائحة الهور. أحسست بالفضاء المدهش، اللاتغير في مشهد الأرض والماء الممتد، كما يبدو، إلى اللاحدود من حولي. كنت أسمع صوت عمارة العميق لايزال يدمدم لأصدقائه على مسافة مني. انتهت سبعة عشر عاماً من غربتي، كأنني أرجعت عجلة عمري إلى الوراء فعدت شاباً نحيلاً يعمل في شركة شحن في البصرة. تأكدت آنئذ بأن قراري بالعودة كان صائباً.

ترك عمارة أصدقاءه وجاء لتعديل بطانيتي. قرفص إلى جانبي كأنه يحضر لصلاة الغروب. التحق به حسن وفرحان. عدلوا من وضع عباءاتهم وفتحوا علب التبغ، وبدؤوا لف السكائر.

- "اذهب للنوم، عمارة!".

همست:

- "سأبقى بجانبك لبعض الوقت. البيت بيتك على أية حال".

الأهوار اليوم

- "الطرادة جاهزة. هل نبدأ".

قال لي عمارة في صباح اليوم التالي، وأشار إلى طرادة السيد صروط التي تطفو على مقربة منا - الزورق الذي رأيته مربوطاً إلى الجرف في الليلة الماضية - طويلاً، أهيف، يرتفع حيزومه ببراعة إلى الأعلى: جمال أصيل.

- "يقول السيد إنك تستطيع الاحتفاظ به للمدة التي تشاء بشرط واحد: أن تعود لزيارته بعد زيارة صحين".

كانت الطرادة هبة إلهية، فقد عرفت فيما بعد أن الزوارق العظيمة تلك أصبحت نادرة، خاصة بعد أن انتهى نفوذ الشيوخ أو معظمهم. فلم يعد هناك من يمكنه عملياً تغطية تكاليف طرادة تصنع في الهوير. السيد صروط مازال قادراً على ذلك، لكنه يحتفظ بها للآخرين في تلك الأيام. فقد جاوز الثمانين من العمر و أمسى هرما وثقيل الحركة غير قادر على التجوال في الطرادة.

لم تتغير الطريق إلى قرية الكباب. جلست في الطرادة وخلفي الصندوق القصديري المليء بالأدوية والأفلام، وهو خرجي الذي اشتريته قبل عامين في الحجاز، ورحت أراقب غابات البردي الأليفة التي تسيجنا من كل جانب، بالضبط كما حدث في المرة الأولى مع ثسيغر. جلس عمارة في الوسط. أخبرني أنه كان مريضاً لبعض الوقت - كان يعاني من فتق على الأغلب - واضطر إلى تجنب الأعمال المجهدة. لم يكن عمارة قوياً بالأساس حتى في الماضي. استلم التجذيف في المقدمة كل من فرحان وعيدان فيما جثم على المؤخرة جبار، وهو رجل قوي بشاربين ووجه بدوي، ورجل آخر يسمى موسى، وهو جار قصير القامة لعمارة، وانطلق الزورق يشق عباب الهور.

كان الصباح بهيجاً والسماء خفيفة الزرقة تتحرك فيها غيمات متناثرة.

أعـواد القصب النـاعـمـة المصفـرة تتراقص، وتنطلق أصـوات الحيـوانات من أجمـات البردي، فيمـا تحـوم العقبـان في السمـاء بتكاسل. انطلقنا إلى بحيـرة الديمة الرائعـة: مرآة زرقاء من الماء بغطاء أبيض من اللقالق كأنها لم تغادر مكانها منذ رأيتـها في المرة الأولى. غنى فرحان، وتحدث عمارة:

- "نعم الروفية توسعت. لدينا الآن أراض أكبر، فأراضي الشيوخ قد وزعت وأصبحنا نملك الحقول التي نفلحها. ابني يذهب إلى المدرسة في قرية أم الهوش حيث يداوم ١٥٠ طفلاً وستة معلمين".

وعن صديقه سبيتي، الذي لم أره في الليلة الماضية، قال:

- "هو الآن يعمل تاجراً في المجر الكبير. أصبح بديناً وصار له عدة أطفال. يجب أن تزوره".

الرنين الأليف لتساقط قطرات الماء من المجاذيف على صفحة الماء والخفقان المفاجئ للأجنحة الضخمة لمالك الحزين يحلق عالياً واللغة المميزة لعرب الأهوار: كيف تأتى لي أن أفكر أن الأصوات تلك قد اندثرت؟.

- "يجب أن أخبرك أن صحين مازال شيخنا. أخوه الأصغر حفّاظ مات على حين غرة. ياسين كذلك، قتل مطالبة بالثأر كما أعتقد. مازالت زوجته في الكباب مع أبنائه".

رحت أفكر بذلك المسكين الشقي المشاكس ياسين. بعد وقت قصير بانت لنا سقوف البواري المقوسة من فوق القصب. فصاح فرحان:

- "شوف...الكباب!".

قلل المجذفون سرعة الزورق لدخول قرية أخرى بوقار عشائري.

كانت الكباب بالنسبة إلي في الماضي بمثابة بيتي الذي أعود إليه. تبدو الآن أوسع مما كانت وتضم أكثر من ١٠٠ كوخ. قرية البومغيفط، حيث كان يسكن صحين، هجرت منذ سنين وتجمع سكان عشيرة الفريكات حول بيت صحين في الكباب كما يتجمع النحل حول الملكة.

لا أشك إن ذلك الذي يقف قبالة داره وبيده مجذاف هو صحين. لا مجال هنا للخطأ. وجه أكثر نحافة وشعر أشيب، وما عدا ذلك القوة نفسها والجسم القصير، وعينان مسبلتان ضاحكتان. كان وهج الشمس ينعكس على صفحة الماء. لا مجال للشك بحسن الضيافة أيضاً.

كان لوصولنا إلى قرية الكباب صدى أشد صخباً مما حدث في الروفية. سرعان ما وصل عجرم مبتهجاً. لم يتغير على قدر رؤيتي له وهو مازال في زورق مليء بإخوته وأبنائه. أبناء صحين، باني ومحمد وأكبرهم سنا وريّد، عادوا للتو من الخدمة العسكرية، وما انفكوا يتراكضون بخفة لتحضير وجبة شهية من: الشريت وخبز الحنطة والفاصوليا الخضراء والمشمش المجفف والدجاج والشوربة الكثيفة المتبلة واللبن ومرقة لحم الغنم والسمك المشوي. تكدس الجميع على دكة الجواميس التي بدأت تغطس وينضح منها الماء، فأسرعوا إلى جلب حزم إضافية من البردي لرفع مستوى الأرضية ورصفها.

رجال متوسطو الأعمار طلبوا مني أن أسميهم، فأدركت أن هذه الوجوه النحيفة التي لوحتها الشمس، هي لأولئك الصبية ذوي البشرة الرقيقة، الذين اعتادوا السباحة وهم عراة في صيف السنوات الماضية. كان بينهم جثير، الذي لم يعد صبياً رقيقاً ونحيفاً بل هو رجل ذو وجه مجعد، في السادسة والثلاثين من العمر، بساعد ممتلئ وداكن، وذقن خشن خدش خدي عندما عانقني، وضغط بشدة على يدي عند مصافحتي. يدان كثيرة المسامات تشبه الواحدة منهما عمود مجذاف. عرفته حالاً، كما عرفت عمارة من قبله، من عينيه العميقتين، اللتين لم تغيرهما السنون، فسألته متذكراً تلك البقع القبيحة التي عالجتها عند طبيب في البصرة.

- "كيف حال حنجرتك يا جثير؟".

- "هل ما زلت تتذكر ذلك؟... بخير. لم أعان أية مشكلة منذ سنوات".

أما صحين فقال:

- "هل تعلم أن حفّاظ مات. كان صديقاً لك أليس كذلك؟ لم يكن بوسعنا عمل شيء. اشتكى من ألم في بطه وصدره، حير الطبيب، وفي أحد الأيام وبدون سابق إنذار انهار ومات".

تلألأت الدموع في عيني صحين فقلت:

- "إني أفتقده الآن".

- "ونحن كذلك... أتعرف أنه جرح يده ببندقيتك التي أعطيته إياها؟ أي نعم. ترك أحد الأغبياء رصاصة محشوة في ماسورتها، ثم جاء حفاظ، ومن دون أن يعلم، عبأ البندقية وأطلق النار فانفجرت خزانتها وقطعت إبهامه. انظر".

وذهب خلف الحاجز الحصيري الذي يقسم البيت وأحضر البندقية التي

تركتها لحفاظ في عام ١٩٥٦ كان واضحاً أن خزانتها مكسورة وأعيد تصليحها. لم أسمع من قبل مطلقاً بحادثة من هذا النوع، وعزيت نفسي أن بندقيتي لم تكن سبباً في قتل حفاظ. أمسك صحين بذراعي وقال مبتسماً:

ـ "تفضل أقعد، إجلس هنا وخبرنا ماذا كنت تعمل... الشاي بسرعة... عجرم إعمل القهوة... إبني وريد هات بعض المخدات... ولدي ياسين تعالا هنا كي يتعرف عليكما كافن. هل تتذكر ياسين؟".

ـ "أجل بالطبع".

جلس الصبيان بجانبي، بعيون عسلية مترقبة وملامح منغولية، بعمر عشرة أعوام واثني عشر عاماً، يشبهان أباهما تماماً، فقلت لهما:

ـ "في حقيبتي هذه صور أبيكم، سأريكما إياها بعد قليل. كان رجلاً شهماً وشجاعاً في ملاحقة الخنازير. كان شخصاً عزيزاً علينا، اسألا عجرم عن ذلك".

ـ "أي والله صحيح" قال عجرم.

أحداث الماضي بدأت بالتشكل من جديد. خرجنا لصيد الطيور. تخليت عن الطرادة لصالح زورق صغير يسمى "الجلابية". وهي ضرورية للمرور بالطرق الضيقة الكثيفة القصب، يبلغ طولها ٤ أقدام وهي شبه مجهولة إلا لعيون وذاكرة عرب الأهوار.

اخترت رجلاً طاعناً في السن يسمى صفير لمرافقتي كدليل: صياد خبير حتى بمقاييس الأهوار، نحيف هادئ ذو أنف طويل كأنه منقار؛ وبالرغم من نظارته القديمة الدائرية الشكل، فإن لديه قدرة خارقة على تعيين الطريدة. كان يصيد بارعاً بكسرية قديمة. يكمن أحياناً لساعات مخفياً جسده النحيل في كوم من القصب، في انتظار طريدة، كأنه مالك الحزين يراقب مجموعة من الضفادع.

هناك في أعماق غابات القصب الخضراء ـ السمراء، شعرت بالارتياح المفقود. كم كانت تؤنسني فكرة احتمال خروجنا من الأهوار لنرى سومر القديمة حولنا: البصرة يحكمها والٍ، ويتسكع في أسواقها الانكشاريون. سفن البرتغاليين الشراعية تعب شط العرب. الإمام علي بلحيته البيضاء مقيماً في عاصمته الكوفة، بمسجدها الجديد المشيد من القصب واللبن. أو أن بغداد مازالت قرية مهملة على دجلة تنتظر هارون الرشيد لتشييدها.

افتتحت مدرسة ابتدائية في قرية الكباب، وهي عبارة عن إيشان كبير.

غطي بالقصب والأدغال. فيها ثلاثة صفوف مبنية من القصب أيضاً، وكوخ قصبي صغير آخر للمعلمين، وهما شابان مرحان من مدينة قرب بغداد موفدان للعمل هناك لمدة تسعة أشهر. جميع أطفال القرية يذهبون للمدرسة كل صباح. رأيتهم يقودون المشاحيف بأنفسهم، وبعضهم بمساعدة أمهاتهم، ويسرعون بدشاديشهم للجلوس على الرحلات الصغيرة. في الصيف تجري الدروس في "الهواء الطلق" إذا لم تكن هناك مشكلة مع البعوض؛ هناك سمعت المعلم يكرر:

- "هذه ثلاثة...كم هذه؟".

- "ثلا...ثة".

ردد خلفه الأطفال بصوت واحد، فأفزع صوتهم طيري البلشون اللذين كانا على السقيفة فحلقا خائفين.

- "واحد، إثنان، ثلاثة".

- "واحد، إثنان، ثلاثة".

استمر الأطفال بترديد ما يقوله المعلم. رأيت عجرما وهو يزن سمكاً أمام دكة البيت المقابل فلوح لي. ولداه، باطل وخنجر، كانا في المدرسة. في المساء جلس خنجر بقربي في دار صحين ليجرب معي إنجليزيته:

- "كم عمرك؟ ما هو اسمي؟ واحد، إثنان، ثلاثة!".

في قرية أكبر تقع على مبعدة عدة ساعات، رأيت احتفالاً لتوزيع الجوائز ومباراة بالكرة الطائرة. كان نجم المباراة صبياً أسود فارع الطول، حوالي ٦ أقدام قال لي إن عمره ١٢ عاماً. كانت تلك القرية مزدهرة دون تغييرات قاسية في طبيعتها. مظهر الناس كان أفضل، ويقوم أصحاب المراكب، مثل ذلك الذي إستأجرته إلى الروفية، برحلات منتظمة إلى الأسواق القريبة. تتحرك المراكب بسرعة معقولة، وتمنح سقوفها فرصة ممتازة للاستمتاع بالمشهد الطبيعي.

وبالرغم من أن محركات بعضها تحدث ضجيجاً وتطلق دخاناً، إلا أنها لا تعكر صفو الأهوار، كما أن حجمها الكبير نسبياً، يجعل مساراتها محددة بالقنوات العميقة فقط ولا تمكن مشاهدتها في كل منعطف من طرقات القصب.

خصصت واحدة من الرحلات لزيارة جاسم بن فارس في قرية العوادية البعيدة. فقد عرفت أن ذلك الشيخ المدهش مازال على قيد الحياة. كان هذا الرجل نموذجاً للشيخ المحبوب من قبل عشيرته، وقد صوتوا لصالح إبقائه شيخاً عليهم.

كنت أتطلع بالفعل إلى رؤية ذلك الشخص المحدب قليلاً والذي يبدو واهناً، عكس ما هو عليه حقيقة وهو ممسك بمشربه، وتعلو محياه ابتسامة تشجع على المزيد من الابتهاج، كما كان في عرس ابنه يردد النداء الحربي "فوقهم". لكنه كان مريضاً في الشطرة، كماعرفنا من إبنه نصيف الذي استقبلنا مرحباً. ومصادفة وصل ابنه فالح للتو من الشطرة وأكد نبأ بقائه هناك. لقد اختفى مضيفه المائل ذو الثقبين اللذين عملتهما بإطلاق النار أثناء الاحتفاء باستكمال مراسيم زواج ابنه نصيف، ويوجد بمكانه الآن بناء أكبر. وصل الرخاء في الحقيقة إلى آل فرطوس. فنصيف يشغل الآن منصب رئيس تعاونية تسويق السمك الجديدة التي أنشئت في القرية. الثلج الذي لم أره في السابق إلا نادراً، أصبح ينقل بالمراكب. يسوق السمك إما إلى البصرة و إما إلى مدينة العمارة. شاهدت رجال القبيلة يفرغون صيدهم من السمك في المكان المخصص ويقوم نصيف بتعبئته في بلم خاص ويوزع الأرباح المحصلة من البيع.

ـ "إنه عمل شاق، إضافة إلى الفلاحة والجواميس. لكنه يستأهل التعب" قال نصيف.

بالتأكيد، فرجال الأهوار يكسبون الآن بحدود ألفين إلى ثلاثة آلاف دينار سنوياً، وهو مبلغ عال جدافي العراق. ضيافة نصيف وأخيه فالح سخية كما كانت دائماً. رافقني فالح للصيد كذلك.

في السابق كان البربرة فقط يعملون بصيد وبيع السمك. أما الآن فيقوم بذلك الجميع بمن فيهم عجرم.

ـ "كلكم بربرة الآن، يا عجرم؟".

ـ "يجب عليّ العمل، فعائلتي كبيرة. هل تتذكر يوم ولد ابني الأول؟".

ـ "نعم أتذكر مستر خريبط جيداً".

ـ "ولد لي خريبط آخر ثم باطل وعلوان وخنجر وعلي!".

ـ ألا تعتقد أن الوقت قد حان للتوقف عن الإنجاب؟".

ابتسم وهز كتفيه بلا مبالاة.

في ظهيرة أحد الأيام، وكنا في الصيد، ذهبنا إلى البومغيفط أو ما كان سابقاً قرية البومغيفط. كانت بيوتها مغطاة بالمياه تماماً، إيشانات غاطسة تحت الماء. مد صحين يده مؤشراً.

ـ "هذا كان بيتي".

- "هذا بيتي أنا... ذلك هو بيتي" قال عدد آخر منهم وهم يتضاحكون. إنه لمن المحزن أن يضيع الماضي هكذا.

بيت صحين الحالي أكبر بكثير من بيته السابق. بناء مريح من القصب والبواري، ملحقة به مساحة يابسة يتم فيها إعداد القهوة. شكرت الإله أننا لم نقض الأمسية بالتحلق حول جهاز الراديو الأبله. كم كان الصخب المنبعث عن أحاديث الناس ومزاحهم وغنائهم جميلاً. في الأماسي الدافئة تفرش السجادات خارجاً حيث تمكن مشاهدة الطيور المتخفية بين أعواد القصب، خاصة وقت الغروب حين تمتلئ النسائم بأصوات ناعمة. بين الفينة والأخرى يسمع هدير إطلاق نار ويرد عليها بمثلها.

- "هذه من فلان منطقة".

يحدس أحدهم. لربما أخذ بثأر. في الواقع إن عشيرة صحين نفسها مطلوبة ثأراً بسبب شخص أبله من الفريكات هرب مع فتاة من عشيرة أخرى، فولّد الأمر مشكلات عديدة لصحين قبل التوصل إلى هدنة بجهود وكفالة السيد صروط. فقد كانت شروط عشيرة الفتاة للفصل قاسية ومن دون تحقيقها فهم في غاية الخطورة.

- "يا صحين! من الآن فصاعداً على جماعتك أن يحرصوا على حياتهم جيداً إن ذهبوا للصيد أو السوق أو قطع القصب. عليهم أن يكونوا حذرين".

كان هذا هو إنذارهم، أما مطالبهم فهي فتاتان بسن الزواج ومبلغ ٧٠٠ دينار، وهو مبلغ عال جداً في ظروف المنطقة. وقد رفض بشدة طلب صحين لمهلة معينة للعثور على الشاب الهارب وإرجاع الفتاة. لذلك طلب مساعدة السيد صروط. وفعلاً تم التوصل إلى هدنة لمدة ستة أشهر بالمساعدة القيمة للسيد صروط، ودعم معاون الشرطة (الذي اعتاد على عدم التدخل بالشؤون العشائرية)، وأمكن تمديدها إلى فترة مماثلة. لكن الكباب شهدت ليالي وأياماً صعبة قبل التوصل إلى الهدنة. وقد لاحظت الناس أسرع بالسؤال، عند سماعهم أي صوت في الليل:

- "يا هو هاذ".

فيأتي الجواب أسرع كذلك:

- "صديج".

وجد الموظفون البريطانيون في العام ١٩١٥، أن التقاليد الاجتماعية لسكان الأهوار جد صعبة. فالحاج ركان روى لهيدجكوك أن شاباً طعن أخته بالسكين

حتى الموت بعد سماعه خبر علاقتها مع شخص آخر، قائلاً لها:

ـ "إن ثمن الزنا هو الموت".

فقال هيدجكوك:

ـ "لا شك أنه تصرف بحماقة".

ـ "كلا. فلا أحد يغامر بإطلاق إشاعة كاذبة مثل هذه إذا كان ثمنها غالياً جداً. لا يمكن أن يكون ناقل الخبر كاذباً. لذا فإن الأخ كان مجبراً على القتل".

تقاليد السلوك الاجتماعي في الأهوار عريقة جداً وهي ليست سهلة. فتقاليد "الفصل" التي بإمكانها إلغاء الثأر تحسب وفق أصول تشبه جدول الضرب في الحساب. يجري التعويض إما بالنساء أو الجواميس أو الفلوس. ولكن كم من هذه أو تلك يعتمد على منزلة القاتل أو الضحية وطبيعة العلاقة التي كانت قائمة بينهما. إن كان ثمة علاقة، أو إلى أية عشيرة ينتميان.. إلخ. لذلك لابد أن تكون لعواطف وأحقاد سكان مسلحين، تحتل قضية الشرف بالنسبة إليهم أهمية قصوى، ويعيشون بعيداً عن سيطرة الحكومة، قواعد صارمة.

كل رجل في السابق كان يملك بندقية واحدة وهو فخور بها. أما الآن فقد انتشر تهريب السلاح الأوتوماتيكي، إلا أن الحصول على الذخيرة أمسى صعباً ومكلفاً. مع ذلك لم يبخل الناس بإطلاق الرصاص بغزارة في الأعراس والمآتم، كتقليد عشائري.

قيل لي إنه عندما مات الحاج يونس ابن آل عكار البار، صديقي وصديق ثسيغر، عن عمر متقدم في عام ١٩٧٦، أطلقت مابين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف رصاصة على شرفه. آخر أعمال الحاج يونس كان بناء مطحنة في قرية آل عكار، وكانت بمثابة ثلاث قرى وآخذة بالتوسع. كانت مطحنة ضخمة من الطراز القديم تميزت بصرير عجلاتها وأحزمتها الهائلة، أنشأتها شركة روستن لنكولن الإنجليزية منذ سنين. وقد تطلب تشغيل ماكنتها عدة رجال لسحب حبل التشغيل إلى أن أطلقت شخيراً وحشياً، فيما كان الحاج يونس يشد عزيمة الرجال مردداً:

ـ "يا الله، على بركة الله... الله يساعدكم".

فتزيد حماسة الرجال وتدور العجلة الضخمة. تحلق آنذاك عشرات الفلاحين للرقص وشد العزائم إلى أن انطلق أخيراً صوت مجلجل هز الماكنة، مصحوباً بدخان كثيف غطى الجميع ثم انحسر ليبدأ الجرش. كانت ماكنة قديمة وضاجة لكنها، شكراً

للإله، تعمل، واستحق الحاج يونس كل التقدير على ذلك التجديد.

توجد اليوم في قرية الصيكل مطحنتان أو ثلاث مثل مطحنة الحاج يونس. تقع الصيكل على حافة الهور وهي من أكثر قرى وسط وغرب الأهوار كثافة سكنية. يقطنها ما لا يقل عن ألف عائلة يقيم بعضها على اليابسة وبعضها الآخر في جزر عائمة. يوجد فيها مركز للشرطة كذلك، وهو بناء بحجر قديم ينعكس عنه ضوء الشمس عند شروقها فيصبح ذا لون برتقالي. وماذا بعد؟ مستوصف كونكريتي صغير يعمل به طبيب عراقي شاب يدعى فؤاد، وممرضة واحدة أو اثنتان. وجدته مزدحماً عندما زرته والمرضى يقفون بالطابور خارج الباب منشغلين بنش الذباب عن الجروح. لم أر من قبل طبيباً في الأهوار. كان الناس يأتون إلى فؤاد من أماكن بعيدة. كما يقوم هو بزيارة القرى المجاورة مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع ليطبب ويلقح، كما كنا نعمل من قبل، ولكن بمعرفة أشمل بالجراحة. التقيته في السنوات اللاحقة في أكثر من قرية بما فيها العوادية، قرية جاسم بن فارس. وهو ذو شخصية مرحة، وقد أخبرني أن حالات الإصابة بالبلهارزيا قلت كثيراً - إلا أنه يصعب القضاء على المرض، حيث تجب إبادة القواقع الحاملة للطفيليات. لكن المشكلة الرئيسية الآن هي مرض التدرن الرئوي والتراخوما والدزنتري والالتهاب الرئوي.

- "وسوء التغذية؟".

- "كلا" قال الدكتور فؤاد. كما أنني لم أسمع بأية حالة من هذا القبيل. كان هناك أطباء آخرون كما أعتقد في قرية صحين (قرية كبيرة إلى الشمال من الصيكل) وقرية الشطانية إلى الشمال، والشطرة والجبايش (مدينة على الفرات) وكذلك في المجر الكبير. يتواجد أيضاً بعض الموظفين الصحيين في أماكن أخرى في الأطراف الشمالية للأهوار كالنغارة وحمّص.

لا شك أن الأراضي الزراعية الإضافية التي منحت للمعدان بعد عام ١٩٦٨ قد ساهمت بتحسين التغذية، وقل إثرها عدد الأطفال من ذوي البطون المنتفخة بسبب نقص الفيتامينات. كانت حصة الفلاح الواحد خمسة دونمات، وقد تصل إلى سبعة أو ثمانية عندما تكون هناك وفرة في الأراضي الصالحة للزراعة في المناطق المجاورة.

- "مازال بعض الناس في عمق الأهوار يعيشون على السمك والجاموس والقصب فقط" قال عمارة.

حصة عشيرة الفريكات كانت بحدود ثلاثة دونمات إلى خمسة للواحد، تبعد

عن قريتهم مسيرة ثلاث ساعات بالزورق محسوبة من دار صحين. لكن ذلك عديم الأهميـة، ففي المواسم يذهبون إلى العمل في حقول الرز والقمح عند بزوغ الفجر ويعودون عند الغروب أو بعده، يغنون عالياً غير عابئين بشيء. إن هذا يكشف كم هي قوية مشاعر الفخر القبائلية، التي تجعل عرب الأهوار يفضلون الإقامة في الأهوار على الإقامة في المدن المزدحمة، كما فعل العديد من الفلاحين. فالفلاحون، ضيقو الأفق، بدؤوا رحلة البحث عن الذهب في شوارع بغداد والبصرة في الخمسينيات، ولا يزالون يواصلون رحلتهم تلك دون أن يتعلموا درساً من كل السنين الماضية.

- "لماذا لا يرحل المعدان؟".

- "مسكننا الماء والقصب والفضاء، وهنا نريد أن نبقى".

جاءتني إجابة جثير القصيرة والبسيطة. وهو صادق في ذلك.

في صباح اليوم الأول لوصولي قال لي عمارة، عن لسان السيد صروط، أنه يمكنني الاحتفاظ بالطرادة كما أحب بشرط زيارته في أقرب فرصة. ولم تكن زيارة هذا الرجل المؤمن صعبة. فطاقم الطرادة يحبون البقاء معه وهم، مثل ما هو الأمر مع الناس الآخرين من أطراف بعيدة من الأهوار وما حواليها، يسعون لاستشارته في مواضيع تتراوح من الاعتقالات الكيفية وأفعال الزنا إلى سرقة الدواب.

حالما نرسو بطرادتنا إلى جانب المضيف الكونكريتي الجديد وملحقه الخارجي على حافة الماء، يأتي صوت السيد:

- "أهلاً... أهلاً... أهلاً.. كيف كانت الطرادة، لم تكن سيئة أليس كذلك؟ لا يمكن أن أعطيك شيئاً غير أمين. أي نعم، كم مضى من الوقت منذ رأيتك آخر مرة؟ ألم تكن مع ثسيغر آنذاك؟ نعم صحيح في زمن الشيوخ. شلونك يا عمارة؟ دير بالك على صديقي... دير بالك يحفظك الله!".

يشمر السيد عن ذراعيه فيبدو هائلاً بصايته السوداء ويستمر:

- "هل علينا أن نبقى واقفين هنا في الحر؟ هل سرقت السجادات؟ هل بيعت؟ لماذا لا تجلبون بعضها لضيفنا كي يستريح؟ جبار... شلونك وشلون العائلة، سمعت أن الوالدة أجرت عملية، الله يشافيها. تعال يا كافن اجلس بجانبي فالحمد لله قد أبقوا لي هذه السجادة على الأقل..." هكذا يمضي حديث السيد غير منقطع مع ضيوفه والمحيطين به. يبلغ الآن الثمانين من العمر، كما أخبرني، بالرغم من أن

الأعمار في الأهوار غير أكيدة.

لا يزال السيد يصبغ لحيته بالأسود ويضحكه هذا الأمر مثل طفل. جسمه الضخم وصوته الرخيم لم يضعفا بعد. لقد إرتعبت عائلته عندما نقل إلى بغداد لإجراء عملية جراحية خطيرة لعينه. فقد كاد أن يصبح أعمى تماماً. لكن العملية نجحت. وقد ضجت المستشفى بزواره الذين عادوه للاطمئنان. نصحه الأطباء بالخلود إلى الراحة بعد العملية، لكن لم تعد مقاومة العدد الهائل من الزوار ممكنة، فطلب السيد غرفة إضافية للقائهم واستجابت السلطات للطلب. كان يطعمهم على نفقته الخاصة. من حسن الحظ أن العملية نجحت وتمكن السيد من قراءة سور القرآن الذي أهدته له الحكومة.

كنت أذهب في الماضي إلى بيته مباشرة في كل مرة أزور الأهوار فيخرج من مضيفه القصبي لاستقبالي مرحباً بصوته الرخيم الذي يرجع صداه شجر الصفصاف الممتد على ضفاف الماء:

- "يا هله، يا مرحبه..هات المخدات...الشاي، القهوة... يا الله بسرعة، بسرعة فصديقي ينتظر وأنتم تقفون هنا بدون عمل".

يسرع الناس آنذاك مقهقهين إذ يعتبرون غضب السيد نوعاً من المزاح. معظم هؤلاء الملفعين بعباءات داكنة، بعضها يعيق الحركة السريعة المطلوبة لجلب أباريق الشربت والشاي، هم من أبناء السيد الأحد عشر أو الاثني عشر، وهو عدد كبير على أية حال، ولابد أن أكبرهم سناً قد تجاوز الأربعين أو الخمسين عاماً.

أصغرهم السيد عباس (ينتقل لقب السيد بالوراثة) يدرس في إحدى مدارس بغداد؛ شاب جميل المظهر في السابعة عشرة من العمر. متألق وذو سلوك في غاية الأدب. التقيته في بغداد وشرب معي كأس من البيرة (يحرم دينه وموقعه الاجتماعي الكحول بالطبع) وهو يعلق على ذلك بالقول:

- "على المرء أن يجرب كل شيء في الحياة، وإلا كيف يمكنه التمييز؟".

و أنا بدوري لا أعتقد أنه يرتكب بذلك جرماً. فالطيبة تشع منه كالنور. كان ذلك دليلاً على تبدل الزمن، فهو نفسه سيصبح مهندساً. أخوه مطر يعمل في مصنع للسكر في المجر الكبير، وهو المصنع نفسه الذي رأيته عن بعد في أول يوم لعودتي.

مروج خضراء من حقول السكر تمتد ما بين بيت السيد صروط والمصنع. قال

لي مطر مبتهجاً:

- "المنطقة تعج بالخنازير والحجل، دعنا نخرج للصيد".

و بالفعل خرجنا للصيد عدة مرات. كان مطر يبقى مرتدياً بدلة العمل الزرقاء وقد أخذني مرة لزيارة مصنع السكر الذي قال عنه بإعتزاز:

إنه مصنع ضخم ومعقد التصميم لكنه يعرفه جيداً. العمال الآخرون يبدون على علاقة طيبة معه وكان واضحاً أنه شخص محبوب - ليس لكونه سيداً فقط فعمال مدينة العمارة ذوو الميول الاشتراكية لا يعيرون أهمية للألقاب الدينية على عكس عرب الأهوار، بل لأنه رجل طيب مثل والده.

إن وجود السيد صروط وعائلته في جنوب العراق هو شرف للمنطقة بسبب قدسية العائلة. فالسيد بالذات يجسد كل ما هو خير في العراق والعروبة والإسلام. كان بيته مكاناً غير رسمي للحج. رأيت كبار الرسميين العراقيين يسعون لإستشارته. فرأيت عنده قاضياً من مدينة العمارة، ومرة أخرى محافظ المدينة بنفسه. وقد توسط السيد بنفسه لمساعدة صديقي عمارة - وهو دائم العطف على الصغار والفقراء. فنتيجة لسوء فهم لم يدفع عمارة غرامة مالية للمحكمة المحلية فواجه بذلك خطر الاعتقال. لكن السيد تحدث بهدوء على مائدة شاي وشربت مع موظف حكومي زائر، فقال الأخير قبل المغادرة مبتسماً: "لا تقلق على صديقك - ما اسمه؟ آه عمارة، كل شيء سيكون على ما يرام". قال له السيد إنه يعرف عمارة مذ كان طفلاً وهو رجل طيب.

عندما قتل ابنه المفضل في حادث سيارة قبل أكثر من عام، تجمع الناس للمواساة، لكنه صرفهم بلطف قائلاً: "إنه مكتوب". عندما يتوفى السيد نفسه ستشهد النجف مراسيم جنائزية لم يسبق لها مثيل.

يتميز مضيف السيد صروط ببعض الخصائص الممتعة المتعلقة بتأريخه. فهو كبير بالطبع لكنه ليس أكبر مضيف في المنطقة، مع ذلك فقد ساهم في بنائه عدد كبير من سكان القرى المجاورة. إستغرق نصب الأعمدة القصبية الضخمة الأحد عشر مدة أربعة شهور، ثم شهر آخر لتثبيت الأركان العمودية في الأطراف، وستة أيام أخرى لثني الأعمدة وربطها مع بعضها. تطلب إطعام العمال نحر سبعة وعشرين خروفاً، إضافة إلى الرز والخبز والسكر والشاي والقهوة والحامض والشربت واللبن لحوالي ٢٠٠ شخص في اليوم. وقد قدرت الكلفة آنذاك بحوالي ٣٠٠٠ باوند أو

أكثر. الجلوس في هذا المضيف المهيب يجب أن يكون على أرضيته المغطاة بالحصران، لأن وضع كراسٍ ومنضدات يشوه تناسقه. للسيد مجموعة رائعة من دلال القهوة مرصوفة قرب الموقد كأنها أحجار شطرنج يغطيها سخام أسود كما هو الحال مع الجدار والسقف، حيث تلتجئ الخفافيش. تتدلى من السقف عدة مصابيح كهربائية يعلوها الغبار، لكنها لحسن الحظ لا تعمل ـ فضوء المصابيح الزيتية أنسب هنا. المضيف الكونكريتي الجديد ذو الأعمدة الأربعة أفضل لاستعمال الضوء الكهربائي. فيه مقاعد خشبية وكراسٍ معدنية خفيفة للجلوس أيضاً. وهو قد بني للرسميين من يعتقدون أن الجلوس بالطريقة العربية على الأرض غير مريح أو غير لائق. في أوقات الحر يجلب السيد و أولاده الكراسي لنجلس ونراقب الطيور تتهادى حولنا عبر القناة، ونستمع لهديل الحجل الأسود. أسأله في تلك الأوقات عن التقاليد القبلية القديمة، فهو خبير بها قل مثيله. فالقسم المكتوب على راية العباس مثلاً، والذي وصفه بروعة هيدجكوك في كتابه المعنون "الحاج ركان" والذي اعتقدت أنه منسي الآن، يهدف إلى القضاء على المطالبة بالثأر. حيث يدعى المتخاصمون للاجتماع والتعاهد باسم قبائلهم على السلم، وهم يعملون ذلك بالطريقة التالية على وجه التقريب: تجلب عوداً قصبياً بطول قامة رجل وتضعها على الأرض وتقول:

ـ "هذا سيف العباس، أبو راس الحار".

ثم تأخذ دشداشة بيضاء وتضعها إلى جانب القصبة وتقول:

"هذه راية الله ورسوله والإمام علي والعباس صاحب الثأر. هذه الراية عليّ وعلى عيوني وحياتي وأخوتي وعائلتي إذا أخفيت شيئاً، والعباس صاحب الثأر".

تطوى زاوية من الدشداشة حول القصبة. ثم يطوي الشخص الآخر عقدة في الدشداشة قائلاً:

ـ "أربط نفسي وأخوتي وعائلتي بهذه الراية".

لم يكن هذا القسم بسيطاً بالنسبة إلى عرب الأهوار وكنت تواقاً إلى معرفة إن كان لا يزال مستعملاً كما كان في العام ١٩١٩، فسألت السيد الذي قال: أجل لا يزال، وأضاف مندهشاً.

ـ "عجيب أن تقرأ ذلك بالإنجليزي، لم يكن هنا الكثير من الإنجليز، و بالمناسبة توجد هنا قناة تسمى كريملية نسبة إلى مستر كريملي، الذي أظن أنه كان قنصلاً في العمارة".

قبل عام أو أكثر عندما وصلت هذا المكان الأليف وقابلت السيد، قال مشيراً بيده"
ـ "انظر إلى الطرادة، أعني طرادتك، انظر فقط".

كانت مصبوغة باللون الأبيض من المقدمة حتى المؤخرة، وباللون الأزرق من الداخل. لم أر من قبل إلا الطرادة المعتادة السوداء، ولم أكن متأكداً أنني أحببت اللون الأبيض، لكنني سرعان ما اعتدت عليه، وكذا الأمر مع فرحان وعيدان وجبار وموسى. أصبحنا في الحقيقة نحب تميزها، ففي المقاصب كانت تبدو كأنها شبح أبيض وفي القرى تنزلق كأنها بجعة بيضاء تستقطب عيون الناظرين.

في واحدة من النزهات في الأهوار بعد عودتي عام ١٩٧٣، زرت الهوير مرة أخرى للتأكد إن كان فن صناعة الزوارق اندثر. فالسيد صروط أخبرني أن صانع المراكب الشهير الحاج حميد قد تقاعد وحل محله الحاج عبد المحسن، الذي قام ببناء طرادة السيد صروط. عند وصولنا الهوير وجدنا الحاج وعماله مشغولين ببناء عدد من الزوارق بين أشجار النخيل والقنوات الصغيرة. أكداس من زوارق شبه مكتملة تملأ سقيفة الحاج الكبيرة. أكد الحاج أن عدد الزوارق الآن في الأهوار أكبر من ذي قبل، وأضاف:

ـ"تجارتنا جيدة، ونحن ننتج حوالي ٢٠٠ زورق في الشهر، بعضها كبير والبعض الآخر أصغر حجماً. فالأحجام تتغير حسب الطلب.وكمعدل تبلغ أجورنا ١٥ ديناراً، يعمر المشحوف الجيد خمسة أعوام".

ـ "وماذا عن رولزرايس المشاحيف ـ الطرادة؟".

فأجاب وهو يربت على حيزومها:

ـ"الطرادة الممتازة التي معك هذه صنعتها للسيد صروط. فمنذ أن ذهب الشيوخ لايوجد من يستطيع تغطية الكلفة التي تصل إلى حوالي ٢٠٠ دينار، هذا إن أمكن الحصول على المسامير ذات الرؤوس الكبيرة الخاصة بتثبيت العوارض الجانبية. ولكن إن كنت راغباً بواحدة فلا تقلق، سأصنعها لك".

هذا الرجل الطيب، الذي يعمل بالنجارة بمهارات عريقة عراقة العالم نفسه، جلس معنا لمدة عشر دقائق لتناول الشاي.

للأهوار بالطبع بعض الخصائص الغريبة كما هو الحال مع أي مكان آخر في العالم. ففي قرية آل عكار يوجد رجل اعتاد أن يحدث فوضى في المضيف بإطفاء النور حين يعج بالناس (وغالباً بعد أن يهجع المسنون إلى النوم). يرش على وجهه

مسحوقاً أبيض فيبدو كأنه شبح. يكبر منخريه لضعف حجمها بشظية من القصب. يكشر عن أسنانه ويحملق عينيه، ثم يأتي زاحفاً على أربعة قوائم مطلقاً زئيراً مروعاً. يرتعب الصغار ويصرخون بهستيريا تعبر عن فزع حقيقي:

- "ملك الهور، ملك الهور".

يضطرب المضيف بالناس الخائفين من الشبح الزاحف. كان الناس في الماضي يؤمنون بوجود هذه الأشباح ويدعي بعضهم أنه شاهدها. والشبح عند بعضهم أسود ضخم، أو ذو وجه نوراني يسطع بين النجوم عند بعض آخر. لم يعد الناس اليوم يؤمنون بهذه الأشياء، كما هو الحال في أوربا وأمريكا، لكنهم يتجنبون قضاء الليالي بمفردهم في بيوت مسكونة بالأرواح.

الشاب شبل ابن جثير، ذو السبعة عشر عاماً، شخصية مميزة. فقد ورث عن أبيه نتوء الوجنتين وعينين خضراوين وشيئاً ما بين الحزن والدهاء. كما اكتسب خصلة الفضولية من والده عندما كان بمثل سنه. حين كنت أصطحب جثير إلى الطبيب في البصرة لعلاج البقع القبيحة في حنجرته، كان يخرج من المستوصف صامتاً ومستغرقاً في التفكير إلى أن نجلس في مكان هادئ فيلتفت إليّ دون كلام، وبتركيز شديد يمرر أصبعه حول تضاريس وجهه، فأستغرب ويصعب عليّ البقاء ساكتاً:

- "شبيك جثير؟".

فينفجر بالضحك دون أن ينطق بشيء ويواصل تحريك إصبعه ثم يتوقف ويعاود الضحك ثانية. يخبرني بعد ذلك عما قاله الطبيب ويعود كالعادة للحديث عما يجب فعله في اليوم التالي وغير ذلك من أمور. الآن أرى ابنه يعمل الحركات نفسها، مع إنه لم ير طبيباً من قبل. فإصبعه يتحرك أمام عيني بهدوء وبطء ثم أسفل حول الذقن وبتعبير تام الذهول. عيناه الخضراوان لا تنطقان بشيء البتة، وهو يعمل ذلك في الأوقات التي نجلس بها لتمضية الوقت. إنها حركات غامضة لا يخجل منها أبناء الأهوار وليس لها تفسير. في الأوقات الأخرى ترى شبلاً يتحدث ويلهو بحماس، ويقول عنه الجميع إنه صياد وسماك ماهر مثل أبيه.

في عام ١٩٧٦ طلبت من السلطات العراقية إن كان بالإمكان رؤية الأهوار من الجو. لقد سبق لي رؤيتها بالطبع عندما انتقلت بالطائرة من بغداد إلى البصرة. ولكن غيوما كثيفة كانت تحجب الرؤية من ذلك الارتفاع. استجيب لطلبي وحصلت على طائرة هليكوبتر حلقت بي فوق الأهوار لمدة يومين عندما عرف السيد صروط

بذلك دعانا للهبوط في داره. أوصلت دعوته إلى الطيار، وهو ضابط لطيف في القوة الجوية بشاربين كبيرين، فقبلها. وفعلاً هبطت الطائرة خارج مضيف السيد، وكادت مروحيتها أن تلامس سقف البناء. تجمع الناس من القرى المجاورة بسرعة، وأمر السيد بتحضير مأدبة على شرف الطيار ومساعديه.

سألني الطيار إن كان هناك مكان خاص أود رؤيته. فطلبت التوجه إلى قرية الكباب، لكن العثور عليها كان أصعب مما تخيلت. فمن الأعلى تبدو السقوف المقوسة للأكواخ متشابهة ومتناثرة وعلى مسافات متباعدة عن بعضها حلقنا على ارتفاع منخفض ودرنا كثيراً إلى أن أوشك وقود الطائرة على النفاد. وفي الأخير، وحمداً لله، عثرنا على القرية. فخفض الطيار ارتفاع الطائرة كثيراً، ودار بها فوق المدرسة ودار صحين، والايشانات الأخرى. هاجت الجواميس وتقافزت إلى الماء خائفة، وخرج الرجال والنساء وهم يلوحون بأيديهم، فيما حلقنا للمرة الأخيرة على علو جد منخفض قبل أن ننطلق عائدين إلى مضيف السيد صروط.

في اليوم التالي ذهبنا بالطرادة إلى قرية الكباب، فاستغرقت رحلتنا ثلاث ساعات. وعندما تجمع الناس حول الموقد في دار صحين، سألتهم إن شاهدوا طائرة هليكوبتر بالأمس:

- "أي، أي شفناك... لماذا لم تهبط؟".

- "وكيف عرفتموني؟ كنا نحلق عالياً ومن الصعب رؤيتي" (كنت بعيداً عن الأهوار لعدة شهور ولم يتوقع عودتي أحد).

- "لا أحد غيرك يعمل ذلك، كنت أنت بالتأكيد" قال جثير.

- "تمنينا لو هبطت" قال عجرم.

- "لكن أين، فأرضية المدرسة رخوة، ومنصة الجواميس في دارك ضيقة".

- "كنا نتمنى".

لا ترجع مطلقاً؟ من يمكنه القول "مطلقاً"؟ هناك أشياء مهمة بحاجة إلى التذكير بها.

لقد نسيت التحدث عن سجايا النساء غير المحجبات في الأهوار، والتي لا تقل جاذبية عن الشراء الوردي وطراوة الشباب اليافع عندهن. من المفيد تذكر أن عرب الأهوار يمنحون كل الأشياء في محيطهم أسماءً. فلو سألت هندياً أو ماليزياً، ماذا تسمي هذا الطير؟. فسيقول "طير". أو ما اسم تلك الوردة؟. سيجيبك أنها

"وردة". لكن ابن الأهوار يعرف جيداً الرفراف الصغير هو "بنت الشيخ" وليس أي شيء آخر. ومالك الحزين "زركي" والنوع الأصغر منه "رخيوي"، ويعرف نبات "لسان الثور" ووردة الإوز، ونبتات الحوذان البيضاء والذهبية، ويعرف أن البرسيم زهر أرجواني جذاب وليس فقط علفاً مفضلاً للجواميس. إن عرب الأهوار محبون للحياة. يرتبط مزاجهم العذب بطبيعة الهور الذي حولهم، والريح التي تهب عليه. كم هو رائع أن تسمع هناك أغاني العشق القديمة قدم غابات القصب، أو حتى أغنية "الفئران الثلاث العمياء".

بودي إضافة أن هناك فكرة في الأهوار تقول: الأشياء متاحة للناس للمتعة والاستفادة. أعني أن الامتداد الفسيح للسماء وعظمتها، تجعل الأشياء صغيرة. فلا شيء أكبر من منظر رجل يرفع فالته ويقف متوازناً في زورقه الطافي على صفحة الماء التي تمتد إلى نهاية العالم.

دعاء

وصلت التغيرات إلى ما كان يبدو عصياً على التغير: الأهوار. و أنا منشغل بإعداد هذا الكتاب توفي في العوادية الشيخ جاسم بن فارس - الذي وصفت زواج إبنه البكر. لم أقابل رجلاً بطيبته، فقد قاتل البريطانيين ثم صادقهم من بعد، وأظهر لي ولثسيغر ما معنى الشهامة لدى الرجل العربي. بعد عدة شهور من وفاته رنّ هاتفي في لندن فرفعت السماعة لأسمع صوتاً يقول بالعربية:

- "إني فالح بن جاسم".

- "مَنْ؟".

فقد بدا لي ذلك بدون معنى إلى أن أدركت فجأة أنه فالح الابن الثاني للشيخ جاسم فقلت:

- "ماذا تعمل هنا في لندن؟".

كنت أعرف أنه لم يسافر من قبل إلى بغداد كثيراً ولم يعرف كلمة انجليزية واحدة.

- "أنا مريض وجئت هنا للعلاج، هل يمكنك المجيء إليّ؟".

أسرعت بسيارة أجرة إلى فندق صغير بالقرب من شارع Bays water وهناك، من دون الأماكن الأخرى، قابلت فالحاً مرة أخرى. كان شخصاً نحيلاً يرتدي بدلة - أول بدلة في حياته - وكانت تتدلى فوق رؤوسنا علامة النيون مشيرة إلى مكان البار، فيما كان التلفزيون يبث مسابقات ألعاب الساحة والميدان البريطانية.

- "ألم تخف من المجيء إلى هذا المكان البعيد؟".

- "كلا كنت أعرف أني سألقاك لتدلني على طبيب جيد".

ثم مد يده ورفع سلة كبيرة من التمر قائلاً:

ـ"هذه هدية من تمر القرنة...راح تشربنا شاي؟".

بالرغم من صخب السياح الألمان والعرب من حولنا كنا نجلس قريبين من بعضنا كأننا في مضيف والده، يحيطنا البردي والماء.

قامت عشيرته بتغطية جزء من تكاليف سفرته وعلاجه عن طريق التبرع لأنه كان مصراً على الإنجاب، وبما أن الأمر كذلك، فقد وافق رجال العشيرة على أن المشكلة تستحق المساهمة بحلها.

لم يكن أي من عرب الأهوار قبل عشرين عاماً يحلم بزيارة لندن. سافر بعض أغنياء الإقطاعيين بالطبع إلى الخارج في السابق مثل مجيد آل خليفة. غير أن فالحاً كان شيخاً حقيقياً لعشيرته وهو إلى جانب أخيه نصيف، يعمل ويعيش مثل أبناء العشيرة الآخرين.

سألت فالحاً بعد خروجه من المستشفى عما يود رؤيته في لندن، فأجاب:

ـ ""لندن مدينة كبيرة مثل العديد من المدن، لذا أحب أن أرى الريف الإنجليزي، الفلاحين والدواب".

اصطحبته إذاك إلى بيتي القديم في عمق ساوث ويلز. أذهلته خضرة المروج وخصوبة الأرض. كما رافقه صديق فلاح إلى مسابقة لكلاب مختصة بحراسة قطعان الماشية. وقد أثارت الزيارة إعجابه الشديد بأمثاله من الفلاحين الذين يمتهنون العمل الشاق في فلاحة الأرض ورعاية الحيوانات.

في إحدى اللحظات فاض قلبه بالعاطفة وانطلق يغني أغنية أهوار قديمة فرددت تلال ساوث ويلز، لعدة لحظات، صدى صوت غريب قادم من أراض نائية ومختلفة. أنصت أصدقائي الفلاحون، الذين يرتدون الجزمات، بذهول إلى صوته وهم مبتسمون. لكنني أظن أنهم اهتزوا عميقاً لسعادته. لقد أذهلهم فالح عندما ودعهم بمعانقتهم بقوة وتقبيلهم على أكتافهم امتناناً. في فرصة أخرى ذهب فالح لزيارة حقل كبير وحديث لتربية الأبقار وتعجب حين شاهد الآلات الكهربائية تستعمل في حلبها وقال:

ـ"سيكون لدي الكثير مما يمكن قوله للناس في الأهوار بالتأكيد".

عندما غادر فالح لندن ذهب سعيداً إلى بيت قصبي يطفو على جزيرة صغيرة مطوقة بالماء.

قد يكون الجشع مجيد آل خليفة، المصاب بالروماتيزم والذي شاهدته يعقد

محكمة استبدادية في العام ١٩٥٣ مازال حياً. فقد أمضى عمره في قصره ببغداد بعد ثورة ١٤ تموز. إنه أكبر سناً من فالح بن جاسم وأظنه قد تجاوز التسعين من العمر.

في نهاية عام ١٩٧٥ اتخذ عمارة قراراً كان يفكر فيه منذ مدة وهو الانتقال إلى بغداد. فقد كان مريضاً لسنوات عدة، وقد أجريت له عمليتان في بطنه أضعفتاه كثيراً بالرغم من نجاحهما. يبدو عليه الانهاك ولم أسمح له بالتجذيف ثانية، وقد وافق الجميع على ذلك. حتى حصاد محصوله من الرز أمسى عبئاً ثقيلاً عليه. من هنا كان قراره بالرحيل. يسكن الآن ببغداد في بيت صغير ويعمل فراشاً في أحد المستشفيات كما يذهب أولاده إلى المدرسة. أما أرضه في الروفية فقد تولى العناية بها أصدقاؤه عيدان وجبار وحسن بن محيسن، وهو يقوم بزيارتهم بين الحين والآخر. حين زرتهم طلبوا مني زيارته ببغداد وقد قمت بذلك بالفعل.

ما هو مستقبل الأهوار يا ترى؟

لقد أوردت بعض معالم التقدم فيها، كالأطباء والممرضات والمستوصفات والمدارس وسهولة المواصلات مع المدن إضافة إلى تحسين الوضع المعيشي وامتلاك مساحات زراعية أكبر وتغذية أفضل وضرائب أقل. كل ذلك كان بمثابة الأمنيات التي يحلم بها سكان الأهوار وقد تحققت بعد أن عودتهم الحكومات المتعاقبة ولسنين عديدة على إطلاق الوعود بشأنها.

الشيء الخطير الآخر الذي كان في طور التخطيط منذ الحرب العالمية الثانية في الأقل، هو إنجاز شبكات الري واستصلاح الأراضي. إن الخطط الطموحة مثل هذه لا يمكن إنجازها بين ليلة وضحاها. في الحقيقة لا يمكن تنفيذها مطلقاً إذا ما استمر تغيير الحكومات، وحيث يعين وزراء التخطيط ويقالون بسرعة وتتناقض الأولويات. يملك العراق ثروات عديدة كالماء والبترول، وقد قال لي بعض الموظفين:

- "إذا ما أعطينا عشر سنوات من السلم فسنخلق العجائب".

إن تحقيق أمنيتهم تعني أن السدود الجديدة في شمال البلاد ستحول مياه الفرات ودجلة لإرواء الحقول في شمالي ووسط العراق. ستقلل السدود تلك مناسيب المياه الجارية التي تتغذى منها الأهوار فتتقلص مساحاتها بالطبع. في الوقت نفسه من المؤمل أن السدود الجديدة في منطقة العمارة ستحول الأراضي المنخفضة على ضفاف دجلة والفرات إلى حقول شاسعة لزراعة الحبوب. إن تحقق ذلك فإن مستقبل

أراضي بني لام والبو محمد المنتفك ستضاهي في ثرائها الحدائق السومرية في بلاد ما بين النهرين.

مهما يكن من أمر مستقبل العراق فسيبقى بحاجة إلى السمك والقصب. فمصانع الورق تشاد على أطراف الأهوار ليس بعيداً عن مدينة القرنة الصغيرة المحاطة بغابات النخيل، والتي قاتلت من أجل السيطرة عليها أمم عديدة. إني آمل أن يبقى المعدان، خاصة بعد أن توجهوا لممارسة صيد الأسماك، يحظون بالتقدير لبراعتهم في استعمال الزوارق والفالات.

إنه لأمر محزن أن يتركوا موطن أجدادهم ليصبحوا فلاحين نازحين أو عمال مصانع يرتدون البدلات الزرق المجهولة الأصل. فالريفي الفخور لن يصمد طويلاً في مدن الفوضى اللاأخلاقية قبل أن يضمحل، ألم نر تراجيديا الهنود الحمر والسكان الأصليين لحوض الأمازون.

الخطر الآخر هو الكحول. فصحة أبناء المدن على الرغم من قربهم من المستشفيات، ليست بالضرورة أفضل من نظرائهم أبناء الريف بمن فيهم عرب الأهوار. صحيح أن الأوبئة كانت أكبر كارثة تواجه عرب الأهوار في الماضي، أما الآن فبوجود الأطباء والأدوية والمستشفيات الجديدة فلن يكون المعدان تلقائياً بوضع أفضل إن هم نقلوا إلى بيوت من الكونكريت. لقد تطورت بيوت القصب عبر القرون لوقايتهم من البرد والحر وهي رخيصة وسهلة البناء والنقل وغالباً ما تكون أنظف بكثير من بيوت المدن المزدحمة. وإن ما يشاع من أنها قذرة ليس إلا خطأ مصدره أناس لم يقضوا فيها وقتاً كافياً.

لا تزال الأهوار نابضة بالحياة. وهي ليست مجرد متنزه ذي طبيعة مختلفة بل فيها حياة حقيقية. يمكن اليوم زيارتها حيث أقيمت في القرنة دار للسياحة من القصب والطابوق، ويمكن للسائح المبيت فيها وتلمس الكيفية التي عاش عليها السومريون الأوائل وسط تلك المياه الجامحة، حيث لا تمل الزوارق من الحركة، وليس ثمة وقت للرجال المشغولين للتحدث مع الغرباء، على الرغم من أنهم لطفاء بالتأكيد.

المضايف العظيمة التي تمثل دون شك نوعاً فذاً من العمران في العالم، مازالت قائمة على ضفتي الفرات تشبه قصوراً ذهبية مقوصة. والمشهد الذي تراه اليوم هو المشهد نفسه الذي أذهل جورج كيبل المحب للاطلاع والكولونيل جيسني أو

"فولانين" في السنين الخوالي.

إن عرب الأهوار ليسوا أقل جمالاً أو ذكاءً. إنه لمن المستحيل أن أنسى تلك الذكريات الحلوة التي تعبر عن الروحية الحقيقية لأولئك الناس. ومن العجيب أني وجدت ذلك مجسداً في مكان غير متوقع. ففي العام ١٩٧٤ أمضيت ليلة في الدار السياحية الحكومية في القرنة، وكانت معي ترجمة لرواية تولستوي "القوزاق". وبما أن اليوم التالي كان ممطراً وبارداً فقد بقيت في الداخل وأمضيت الوقت بقراءتها. هناك في تلك القصة المذهلة يقول الصياد: "آه نعم، أنا هو ذلك الصياد... سأريكم كل شيء... فمرة وجدت الطريق الذي أعرفه، ويعرفه الحيوان - حيث يرد الماء ويلهو. هناك اتخذت لنفسي مكاناً وجلست طوال الليل أرقب الأشياء، فهل من معنى للبقاء في البيت على أي حال...؟ ولكن أن تخرج عند حلول الظلام لهو شيء مختلف تماماً. أن تتخذ لك مكاناً صغيراً. تثني أعواد القصب وتجلس منتظراً. فهناك في الأيكة يمكنك التعرف على ما يجري. تحدق إلى السماء في الأعالي حيث تتلألأ النجوم، فمنها تمكنك معرفة كيف يمضي الوقت. تلتفت حواليك على خشخشة في القصب، ثم ضجيج فيخرج من الوحل خنزير. تستمع إلى صوت العقبان وصياح الديكة في القرية وضجيج الإوز. إذا سمعت الإوز فاعرف أنه ليس منتصف الليل بعد. كل تلك الأشياء التي أعرفها...". الآن ضع "قوزاق" تولستوي جانباً وتخيل جثير مثلاً وابنه شبل وهما جالسان لصق بعضهما باسترخاء. رجل من عرب الأهوار بوجه لوحته الشمس، وساعدين قويين يقعد وسط البردي، شباكه وفالته في المشحوف إلى جانب البندقية والخنجر والمنجل، يمكنك حينذاك معرفة مغزى ما كتبه الروائي الروسي. إن وقع الحياة الوادعة يتناهى إلى مسامع جثير وأصدقائه كأنه صدى أغنية قديمة رائعة، وهم مستغرقون بها دون أسئلة، ومنسجمون بعالمهم السحري.

وبعد؟

في أحد الأيام وكنت وحدي مع شبل وهو يصيد السمك، قلت:

- "قبل مجيئي هذه المرة فكرت أنه لا تمكنني رؤية الأهوار أو أي واحد منكم مرة أخرى. ظننت أنكم انقرضتم هكذا".

فلطم صدره العاري بقوة وقال متعجباً:

- "انقرضنا؟ نحن المعدان؟ هل تعتقد أني يمكن أن أختفي إلى الأبد؟".

كان يقف على قيدوم الزورق ضاحكاً، أسمر شبه عار، رافعاً فالته إلى الأعلى في وضع استعداد للصيد، ففكرت قليلاً وقلت:

ـ "كلا بالطبع لا يمكن".

لكن العصور تتداخل، وستشهد حياة عرب الأهوار تغييراً خلال وقت قصير، لكنني أتمنى أن يجري احترام طريقتهم في الحياة وحمايتها من الاستئصال المفاجئ، لأن ذلك سيقتل أجمل ما فيهم. وبما أن ذلك ممكن الحدوث فلربما يكون من الأنسب أن أختتم هذا بالدعاء: بأن يحتفظ أحفاد السومريين العظام ومحاربي الصحراء جنود خالد بن الوليد بنقائهم الروحي العريق في القدم رغم عاديات الزمن.

إني أصلي من أجلهم الآن. وإن حدث في النهاية مكروه وتبددوا، فأنا أصلي لأطفال أطفالهم ولقرون قادمة. وفي الأخير، وعندما يسمع عجرم دعائي الصادر من القلب هذا، سيدمدم: ـ "الله كريم..." ويبتسم لي حينذاك ـ لأن الاستغراق في التأمل يقلقه، "يا له من ولد أغبرا".

خاتمة

مهما كان من أمر دعائي فقد جاء في وقته. فحين صاح شبل مندهشاً، "هل تعتقد أني يمكن أن أختفي إلى الأبد" كان ذلك في العام ١٩٧٧, والآن وقد مرّ على ذلك التاريخ عشر سنين فمن الممكن جداً أنه قد اختفى في الحرب الطاحنة بين العراق وإيران التي اندلعت بعد ذلك التاريخ بثلاث سنين. ولربما واجه العديد من أصدقائي العرب المصير نفسه.

كان يبدو أن طريقة حياة المعدان في طريقها إلى التغيير حد الانقراض ربما، سواء بالحرب أو بغيرها. فمشاريع الري كانت مصدراً دائماً للتهديد وهي قد تنجز في النهاية. سدود أعالي الفرات ودجلة التي كثر الحديث عنها قد أنجزت بالفعل. لقد جلبت أموال النفط دون شك، بعض الفوائد للأهوار - أطباء ومستوصفات وثلج وطرق مواصلات وغيرها، وإن مجرد مظاهر "التقدم" هذه كافية لإحداث تغيرات قاسية. شخصياً أتمنى أن المساحات المغطاة بالأهوار والتي يجري تجفيفها ستصبح حقولاً للرز أو جزءاً من المروج الخصبة والجميلة لوادي الرافدين. لا شيء أجمل من الأهوار، وأملي أن يتمكن أحفاد السومريين من التأقلم للشرط الجديد بعد خبرة ستة آلاف عام من الحياة في القصب والماء، وأن لا يحدث "انقلاب" مفاجئ وقاس في حياتهم، بل تحويل بطيء ومعتدل. إنه الأمل.

الحقيقة أن الحرب الطاحنة الدائرة الآن مزقت و أحرقت وأقفرت مناطق شاسعة من الأهوار، كانت توسعت خلال عقد كامل. لقد تمكن عرب الأهوار من البقاء بالرغم من حروب القرن العشرين المتكررة كلها وقد حققوا، كما رأينا، انتصارات معتبرة ضد الجيش البريطاني. لكن هذه الحرب مختلفة تماماً؛ إنها حرب

نهاية القرن العشرين: صواريخ أرض ـ أرض وطائرات، وقذائف مدفعية بعيدة المدى. ما الذي يمكن أن تفعله خرب أقل بشاعة من الحرب النووية بقليل بتكوين طبيعي هو عرضة للتدمير أساساً؟ لقد تفشى إثرها الرعب وتزايدت الإصابات البشرية إلى حدود بعيدة عن التصور؛ وعندما تخيلت مصير شبل، لم أكن أتخيل هذا قط.

عندما اندلعت هذه الحرب في تشرين أول من عام ١٩٨٠، كنت أسافر بعيداً عن العراق. ولم أستطع العودة إلى الأهوار مرة أخرى لسنين تلت حتى آذار من عام ,١٩٨٤ التغيرات التي أحدثتها الحرب كانت جلية وكان القتال العنيف يدور إلى جنوب وشرق وشمالي البصرة وشرق العمارة، حيث نظم "شهداء" الخميني من المتطوعين المتعصبين دينياً هجومات عديدة شرقي الأهوار وعلى شكل موجات من البشر، تبلغ أعمار أصغرهم سناً إثني عشر عاماً وأكبرهم يزيد على الستين، غير عابئين بالموت في محاولة يائسة لقطع الطريق الرئيسية بين بغداد و البصرة. كان الهدف هو عزل البصرة ثم الانقضاض "لتحرير" الكوت. وبالطبع فإن النجف وكربلاء غنيمتان ذهبيتان، فاحتلال المدن المقدسة للشيعة يعد بمثابة تتويج لانتصار الإسلام الأصولي. فقد أقنع آية الله نفسه أن جنوده سيلقون كل حفاوة وترحيب كأبطال طال انتظارهم من قبل السكان المحيطين بمراقد الأئمة علي والحسين والعباس "أبو راس الحار". ربما كان سيحصل أن حشداً هائجاً يتجمع أمام تلك البوابات الهادئة ـ بينهم عرب الأهوار ـ لاستقبال آية الله العظمى بالتصفيق والزغاريد والهوسات وإطلاق الرصاص. لكن الجيش العراقي أوقف تلك الهجومات الانتحارية المتهورة وتبعثرت جثث الإيرانيين بالآلاف على طول خط الجبهة. تمكن "شهداء" الخميني من خرق خطوط الدفاع العراقية هنا وهناك ـ احتلوا جزءاً من جزيرة مجنون الغنية بالنفط في أهوار الحويزة ـ ولكن لم يحدث ذلك انهياراً يقود إلى السيطرة على طريق بغداد ـ البصرة. مع ذلك كانت القذائف تتساقط بكثافة على البصرة نفسها. وقد وجدت عند عودتي مدينة السندباد "مدينة التجارة العظيمة للتوابل والعقاقير" كما قال رالف فيتش، أو "فينيسيا الشرق" التي شهدت سنوات شبابي في العمل مع رالي برذرز، وحيث التقيت للمرة الأولى مع ويلفرد تسيغر، مطوقة بالخنادق والتحصينات ومليئة بأكياس الرمل، مثل لندن أثناء القصف النازي.

في بغداد عندما طلبت السماح لي بزيارة الأهوار، أخبرت أنها أضحت منطقة عسكرية لا تمكن زيارتها إلا بمرافقة عسكرية. وخصص لمرافقتي رجل ظهر أنه

ضابط عراقي برتبة نقيب من أهالي الموصل له شاربان كثان ويبدو من بنيته القوية أنه خبير في الكاراتيه. لم يعرف هذا الضابط أي شيء عن عرب الأهوار. ولماذا يشغل نفسه بذلك؟. ففي الماضي لم يسمع بهم العراقيون من شمال الكوت أيضاً، لكني عرفت أثناء توقفي في بغداد أن الصحف الحكومية بدأت بالإطراء على رجال الأهوار - ونسائها - لثبات وطنيتهم بوجه الأعداء، يا لسخرية القدر! فلعدة سنين كانوا ينعتونني - ومن قبلي ثسيغر - بالجنون وذلك لبقائي مع أولئك السكان الفقراء المتخلفين الذين يفضلون العيش في المستنقعات القذرة والكريهة على البيوت "الحديثة" الخالية من الروح في العاصمة. وقد تعودت على تلك الابتسامات الصفراء على الوجوه عندما أتحدث عن خصال عرب الأهوار وقيمهم التي ورثوها عن قبائل شبه الجزيرة التي نزحت في القرن الثامن مع خالد بن الوليد، والمثلة بالإقدام وحب العمل والشجاعة والبساطة والكرم والكبرياء وهي قيم لم تعد قائمة في المدن الكبرى. أما في ما يخص النساء، فقد اعتدت القول إنهن كن على الدوام القوة الخفية في الأهوار. الآن تحولت ابتسامات المجاملة تلك إلى الحديث عن أبطال وبطلات الهور.

كان النقيب الذي رافقني مرحاً بالرغم من أنه كثير الشكوك، ولابد أنه كان مندهشاً من رجل أجنبي مثلي يقصد زيارة مستنقعات لا يمكن أن يخطر طيف زيارتها على باله شخصياً. وقد فوجئ من أول يوم لزيارتنا للمجر الكبير عندما التفت إليّ أحد ضباطه، وهو رجل داكن السمرة، وقال مبتسماً:

- "أنا أتذكرك جيداً فأنت طهرتني قبل ثلاثين عاماً".

- "لعلك تقصد صديقي ويلفرد ثسيغر" أجبته.

أخبرني ذلك الضابط أنه من آل عكار فرحنا نتحدث بحماسة عن الحاج يونس وجاسم بن فارس فأثار ذلك دهشة النقيب الذي كان واضحاً أن شكوكه ازدادت، لأنه لم يسمح لي بالمبيت في دار السيد صروط، رافضاً رجاء السيد و أولاده. لقد كانت تلك المرة الأولى خلال ثلاثين سنة التي أجبرت فيها على الرجوع والمبيت في أحد فنادق مدينة العمارة. ما هي الخيانة التي يتوقع الجيش العراقي أني سأرتكبها في الأهوار؟ أيعتقدون أني سأرسل إشارات للطيران الإيراني من بطارية ضوئية؟ أم أرسم خرائط للمنطقة (بالرغم من أني قمت مع ثسيغر برسم خرائط دقيقة لاستعمالنا الخاص)؟. شعرت أني منعت من زيارة بيتي ورأيت بأم عيني مدى

انزعاج عباس ومطر وبقية الأصدقاء القدامى من حقيقة أن كرم الضيافة الطبيعي اللائق أضحى على حين غرة أمراً مرفوضاً.

لكنها الحرب.

عندما وصلت مسكن السيد صروط كان القصف مسموعاً على مسافة لكنه كان يمثل خطراً إلى الشرق من العزير. وحالما خطوت على اليابسة، تحت شجرة الصفصاف على ضفة النهير التي أعرفها جيداً، أحسست بحجم التغيير. لم أندهش عندما أخبرت بوفاة السيد صروط فقد بلغني الخبر من قبل. إستقبلني مطر آنذاك وكان يرتدي السواد؛ أما أخوه عباس الأصغر فقد جاء بسيارة أجرة ولم أتعرف عليه بسهولة وهو يرتدي بدلته العسكرية وبرتبة رائد، وقال:

ـ "عرفت أنك قادم فطلبت إجازة".

شارك عباس في معارك البصرة وكشف لي عن إصابة في ركبته تمت معالجتها بترقيع غير متقن بعد أن كسر عظمها. كما حصل على نوطي شجاعة ـ ثُماني النجوم بسيفين متقاطعين من الذهب وحزام أسود وأحمر.

ـ "حضر لتشييع والدي حوالي مائتي ألف رجل من بغداد والبصرة والكويت وحتى من البحرين. كما شاركت جميع العشائر: الشغانبة وآل فرطوس وآل سويد... نحرنا لهم عشرات الخراف. لقد طلب والدي أن يراك عندما وافته المنية".

ـ "نعم بلغتني الرسالة في وقت متأخر جداً".

كان ذلك شيئاً سأبقى نادماً عليه ما حييت.

كان الناس يبنون مزاراً للسيد بالقرب من قناة الوادية. بناء بقبة مرصعة بالآجر وجدران من الرخام.

ـ "بالرغم من أن قبر الوالد في النجف فإن الناس سيأتون لزيارة هذا المكان" قال عباس.

أجل في مقبرة وادي السلام، في ظلال مرقد الإمام علي حيث أراد إنني أبتهل إلى الله أن يدخله فسيح جنانه.

ـ "هل يمكن لرجل مسيحي أن يزوره هناك؟" سألت عباساً، فأجاب:

ـ "نعم سنذهب معاً... أنت تعرف أن الوالد ينتمي إلى المعتقد نفسه مثل آية الله الخميني، لكنه لم يكن يأبه به. فالخميني أراد احتلالنا وفصلنا عن بغداد، يهزمنا عن طريق تقسيمنا".

جلسنا في ذلك اليوم في المضيف الكبير فتجمع حولنا الأصدقاء والجيران. سمعت عدة أشخاص يذكرون "القادسية" وهي المعركة التي جرت عام ٦٣٥ م وقتل فيها البطل الفارسي رستم وهزم جيشه الساساني هزيمة نكراء على أيدي العرب المسلمين القادمين من الصحراء. كما سمعت كلمة "عجمي" التي تعني "فارسي" تتردد بدلاً من "إيراني" إمعاناً في الإزدراء. هكذا رجعت عقارب الزمن إلى الوراء وأعاد التاريخ نفسه. فالعرب يقاتلون الفرس مجدداً، أي أن رابطة الدم أقوى من تأثير الدين. قال عباس:

- "الحرب أحزنت الوالد ولم يكن يرغب في الحديث عنها".

قتل إثنان من أبناء إخوته في معركة عبادان. عباس سيرجع للجبهة كذلك.

- "لماذا يا عباس لماذا؟" سألته.

- "الدولة تحتاجني".

بدت لي الوادية مكاناً مقفراً بدون السيد صروط الذي حاولت في هذا الكتاب أن أبين مدى الصداقة التي جمعتني وإياه. إن جميع المسلمين يقولون "بسم الله الرحمن الرحيم" لكني أشك إن كان بإمكان آية الله الخميني، على الرغم من أصوليته الإسلامية، أن يظهر صداقة غير مشروطة لرجل غير مسلم. إن كان هناك شيء يمقته السيد صروط فهو التعصب الديني وهو يعتقد أن هناك شيئين لا يعلى عليهما وهما العطف والفضيلة ، وقد كان مؤمناً بالله العطوف الرحيم.

كانت طرادتي البيضاء - هدية السيد صروط - تطفو على مبعدة كصدى شاحب لصداقتنا وتبدو أنها بحاجة إلى تصليح.

كان الوقت صيفاً فسافرت إلى قرية صحين ببلم مزود بمحرك. جاء معي السيد عباس وفرحان (الذي جاء راكضاً عبر الحقول من بيته في الروفية) إضافة إلى شخص أو إثنين آخرين. لقد خلق مرورنا في الروفية انفجارا للعواطف، لربما يعود ذلك إلى العزلة التي خلقتها الحرب، ولابد أن ذلك أزعج بالضرورة النقيب النزق. فقد بدا أن جميع من في القرية من رجال ونساء وأطفال، يتقافزون داخل السقوف المقوسة لأكواخ القصب على ضفتي القناة، ويلوحون ويصرخون بتلهف. كنت أسمع اسمي يتردد من كل جانب وأرى وأسمع الوجوه والأصوات الأليفة ونباح الكلاب وخوار الجواميس. أبطأت سرعة البلم ووقفت في وسطه ولوحت للجميع محيياً وأنا

أردد بصوت كنت أحس بصعوبة أنه صوتي عبارات التحية المألوفة "الله يساعدكم والسلام عليكم" لكني هذه المرة كنت أعنيهما بالفعل جاء جبار الذي سبق له أن استلم التجذيف في مقدمة الطرادة البيضاء في مرات سابقة، ولوح لنا من على الجرف وطلب مرافقتنا:

ـ "خلوني أركب".

فوقفنا فيما ركض هو إلى بيته لالتقاط بندقيته الكلاشينكوف وحقيبة صغيرة وقفز إلى البلم. أصبح أقوى وأكثر سمرة من ذي قبل وبشاربين سميكين وتكشيرة واسعة، فهو الآن جندي في الوحدات الخاصة وقد أفشى لي بذلك السر عندما شعر بالأمان. أمثاله من رجال الاهوار مازالوا يجولون في الأهوار بمشاحيفهم اعتماداً على مهاراتهم العريقة المثلة بذكائهم الفطري في مقارعة الغزاة.

من يا ترى يوجد عند صحين؟ صحين نفسه وجثير وحسن بن مناتي وآخرون بمن فيهم أم حسن. كان بعضهم غائباً ليوم أو يومين. فالصياد الماهر زغير مثلاً كان في المجر الكبير للتسوق وشبل في الجيش. لكن بعضهم رحل إلى الأبد. فقد مات عجرم بعد مرض عضال. وقتل فاضل إبن الحجمي أحمد شقيق زغير في الحرب. أبناء من هذه العائلة أو أبناء عمومة من تلك قتلوا أو جرحوا في الحرب. قمت بتعزية عوائلهم مخترقاً الجواميس المتأوهة والكلاب المزمجرة في الأكواخ القصبية المعتمة ومقدماً تعازي عديمة الفائدة وحداً أدنى من المواساة.

بعد أن تناولنا الغداء في دار صحين، تألقت الروح الفطرية للناس مرة أخرى. وكما كان يحصل في السابق، خرجنا ـ دزينة من الرجال ـ إلى بحيرة الديمة وتعالى الغناء والضحك من قافلة المشاحيف. نزلنا عند جزيرة صغيرة وعملنا جبيشة وأشعلنا النار و أمضينا وقتاً رائعاً للنزهة. قام باني الابن الأكبر لصحين، الذي كان في إجازة من الجبهة، بوضع علبة سكائر كهدف على قصبة بارتفاع عشرة أقدام وبدأت مسابقة التصويب: أولاً ببندقية رشاشة ثم بأخرى ذات خزان واحد كنت أعرفها من السابق (كان جثير، على العكس من الآخرين، يحبها كثيراً).

كنا نسمع هدير المدفعية المشؤوم عن بعد لكنا لم نعره إهتماماً. حلّق مالك الحزين عالياً مصفقاً بجناحيه وحوّم رفراف مرقط ثم أطبق جناحيه وانطلق كسهم باتجاه فريسته. بجعات تنفش ريشها بكل وقار عبر المسطحات المائية وصقور تحوم على إرتفاع منخفض، فأين هي الحرب يا ترى؟. لم يتغير هنا شيء بالتأكيد فهل

الحرب هي مجرد عاصفة خلف العزير؟.

- "عندما تنتهي الحرب سنذهب لصيد الخنازير ثانية كما كنا في السابق" قال باني.

وكالعادة فاز فرحان بالمسابقة.

قمت بعد ذلك بزيارة قبر السيد صروط في النجف برفقة ولديه عباس ومطر. كان قبراً مهيباً بقبة خضراء داكنة في مقبرة وادي السلام التي تضم آلاف القبور الأخرى؛ شوارع كاملة من القبور تمتد حتى حدود الأفق حيث لا شيء بعدها سوى الصحراء الممتدة حتى مكة المكرمة. وضعت على الجدار داخل المقبرة صورة مؤطرة للسيد الجليل وإثنين من أبناء إخوته قتلاً في الحرب. نزلنا على سلم ضيق وهناك تحت الأرض رأيت جسد السيد مسجى وإلى جانبه تتمدد جثتا الشابين في محراب حجري. أشعل عباس ومطر أعواد بخور وأعتقد أن كل واحد منا ذرف دمعتين. خرجنا بعدها من القبر فودعني عباس قائلاً:

- "أرجوك أن تعود لزيارتنا سأنتظرك في البيت - بيتك. أو هنا في النجف في هذا المكان".

- "ليكن في البيت إذن".

كان ذلك وقت المغيب ومنارة ضريح الإمام علي ترتفع بجلال فوق المدينة التي يتوق إليها جنود الخميني وتضيء كأنها من الذهب الخالص وبما يوحي أنها معلقة في الجو لا يسندها شيء بل هي محلقة في رياح الغروب. صعد عباس إلى سيارته العسكرية وغادر متمتماً:

- "إنها إرادة الله".

رجعت أنا مع مطر إلى بغداد.

لم أر الأهوار منذ ذلك الحين. امتدت الحرب وتصاعد أوارها ثم خمدت. القيادة العراقية بدورها لم ترغب في وجود شخص أجنبي غريب الأطوار يتجول خلف خطوطهم الأمامية في الجنوب حيث الاصابات جد ثقيلة. واليوم لم أعد أعرف من بقي على قيد الحياة ومن قتل في الحرب. لكني أسمع - خطأ أم صواباً - أن الدفاعات قد تعززت كثيراً وتم إسنادها ووصلت خطوطها الخلفية إلى الأهوار الوسطى وهذا يعني أن مساحات شاسعة قد جففت ولربما أغرقت مساحات أخرى. إن كان الأمر كذلك، فإن أعداداً كبيرة من القرى قد أزيلت من الوجود والله وحده يعلم مصير

سكانها. إن قلبي يخفق خوفاً حين أفكر بذلك، فالاجتثاث المفاجئ الذي تحدثت عنه قد حدث فعلاً.

هل انقرض عرب الأهوار؟ وهل قبرت آلاف السنين من تلك الحياة الغنية في مسلخة القرن العشرين هذه؟. لقد مضت خمس سنين منذ أن سألني فرحان سؤالاً يائساً، وكنا جالسين في دار صحين:

"متى تنتهي الحرب؟".

كم أود لو أني أعرف الجواب. لقد فشلت في التنبؤ بحدوثها أصلاً فكيف لي أن أتكهن بنهايتها؟

اليوم، وأنا أكتب، وبالرغم من توقف القتال، لم يسحب أي من الأطراف قواته ولم يوقع رسمياً اتفاق سلمي ومازال التوتر يسود المناطق الحدودية. قد يحل هناك سلام حقيقي عند طباعة هذا الكتاب ولكن فقط عندما تتاح لي رؤية السيد عباس وصحين وشبل وزيارة مرقد السيد صروط على ضفاف الوادية لن تمكنني معرفة من غادر ومن بقي حياً.

إن طريق الحياة الخاصة لعرب الأهوار عرضة للعسف، وإني أواسي نفسي بفكرة أن المجنون فقط يمكنه أن يتنبأ بموت أقدم وأنبل الناس.

الهوامش

كلمة المؤلف

١- يسمى باللهجة العراقية الجنوبية "صليلكع".

من سومر إلى الإسلام

١- أرض مرتفعة أو رابية.

١- جمع طنطل باللهجة المحلية.

١- ملك الفرنجة حتى عام ٨١٤م.

١- يؤكد الباحث العراقي هادي العلوي أن هذا القائد الفارسي.

١- هذا الاسم غير متداول بالعربية ولربما يكون هناك خطأ بنقله.

٢- جمع شاه.

٣- جمع خان.

١- تسمية الأسد باللهجة المحلية.

٢- جمع فأر باللهجة المحلية.

الأوربيون الأوائل

١- وحدة قياس سرعة البواخر.

عالم الأهوار

١- جمع عقال باللهجة المحلية.

١- تسمى زهر باللهجة المحلية، وهي كلمة فارسية تعني (السم).

١- لابد ان يكون هذا بيت أبوذية لست قادراً الآن على إرجاعه إلى أصله باللهجة المحلية.

١- روث جواميس مصنوع على شكل أقراص مجففة تستعمل كوقود في المنطقة.

٢- إبريق الشاي.

(×) البِشَل باللهجة المحلية.

زوجان وقرار

١- تسمى الغاكة باللهجة العراقية.

١- قطعة مجوفة من الخشب أو الخزف تستعمل في التدخين.

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في هذا المشروع العربي متنازلة عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN:2-84305-746-X





سلسلة كتب شهرية توزع مجاناً مع الصحف التالية

المدى	العراق
الاتحاد	العراق
البيان	الإمارات
الأيام	البحرين
الثورة	سورية
الحياة	السعودية
السفير	لبنان
القاهرة	مصر
القبس	الكويت

